الطبعة الثانية

السجين

رواية

صالح مرسي



رواية

السجين

صالح مرسي

«لماذا يخاف؟ ولماذا كتب الله عليه أن يخاف دائمًا؟! ولماذا لا تخاف مثله «أوظة»... ولا يخاف مثله حامد أو بعضشي؟

متى يموت أبوه؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يخاف منه...»

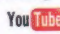
وهكذا يعيش بطل رواية «السجين» للأديب صالح مرسي، خلف مخاوفه وأوهامه وتساؤلاته. يقبع خلف ظلمات ذاته دون أن يبوح بما في صدره لغيره. تأخذه الحياة في دوامات البحث عن الحب والدفء والأمان والذات فلم يحصد سوى العدم.

الناشر











السجيـــــــن

صالـــح مرســـي



العنـــوان:

السجيـــــن

تأليـــف:

صالـــح مرســـي

إشـــراف عـــام:

داليـــا محمـــد إبراهيـــم

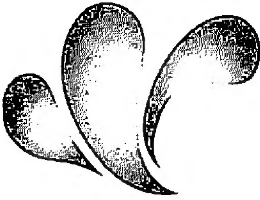
الترقيم الدولي: 978-977-14-4381-x
رقـــم الإيـــداع: 10784 / 2013
الطبعـــة الثانيـــة: أكتوبـــر 2013



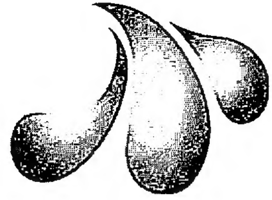
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفـــون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

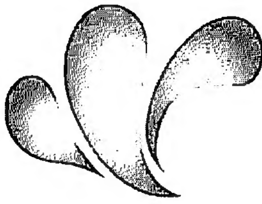


إهداء

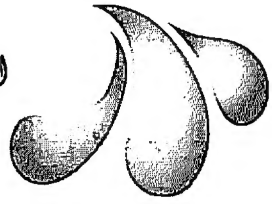


إلى ولدي أحمد

بابا صالح



الفصل الأول



لـم يعـد يعنيه الآن سـوى أن ينال حريتـه، كم انتظر تلك السـاعات طوال شهور الشتاء... يقولون له ابتعد عن شمس الصيف حتى لا تضر بـك حرارتها، وهم لا يعلمون كم يسـعده لفح الشـمس إذا كان طليقًا، أو حتـى نصـف طليـق يجلس فـي البلكونـة ويرقـب من بيـن قضبانها شـارعهم السـاكن، ويرى العيال وهم يعـدون ويتصايحون خلف عربة الرش عرايا!

يشـرئب بعنقه ملتفتًا نحو اليسـار ليرقب «بعضشي» وهو يلعب عند الناصيـة بالكرة والأطواق وطوب الشـارع... أما هو فلا يسـتطيع، ولن يستطيع أبدًا!!!

بالرغـم من ذلك فالحمد لله... إنه - في هذه اللحظة بالذات - غير مجبر على شـيء بعينه، فهما يغطان في النوم منذ نصف ساعة، وقبل أن يدخل أبوه إلى غرفة النوم، وقبل أن يكمل تجفيف كفيه بعد أن غسلهما بعد الغداء، قال له بوجهه الغاضب:

«النتيجة حاتظهر إمتى يا سيدنا الافندي؟».

لم يكن يدري فلم يرد، وتمسحت نظراته ببلاط الصالة.

كم يحبه وكم يكرهه، وكم يتمنى ألا تظهر النتيجة أبدًا.

كم يحبه في بعض الأحيان أكثر من استغفر الله العظيم ذاته...

كم ليال حلم فيها أنه مات، فاستيقظ من النوم وظل يبكي في الظلام وحده حتى مطلع النهار... الجسد المُسَجَّى والكفن الأبيض، الصراخ والعويل ودموع أمه وإخوته وصوات الجيران، النعش المحمول على الأكتاف، والصرخة المحتبسة في حلقه... الألم الطاغي عند المقابر والشواهد البيضاء وأفواه الناس تتحدث بلا صوت، وتخرج الصرخة من حلقه كسكين يقطع لحمه: «بابا... بابا...» ثم السكون والظلام والدموع وأنفاس إخوته المترددة في انتظام. يرتجف جسده من البرد في عز الشتاء. ولا تكف يداه عن تدثير إخوته الراقدين بجواره فوق السرير الكبير، وتجفيف العرق البارد المنهمر على جبينه ومن تحت إبطيه ويفيض به الحنان أحيانًا فيقبلهم جميعًا وهم نيام، ويحتضنهم، وتزداد دموعه انهمارًا!!

كم من ليلة استنزف فيها البكاء كل قواه، ويأبى النوم على نفسه حتى يطمئن أن أباه ما زال حيًّا... سعلة يطلقها في الغرفة المجاورة، أو حلم يدفعه للكلام والغمغمة، وفي بعض الأحيان كان يظل صاحيًا حتى يصحو أبوه... وقتها، كان يندفع إليه بكل عذاب الليل الطويل، فلا يجد منه سوى العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين... ثم:

«إيه اللي مصحيك بدري يا سيدنا الافندي؟!».

ويصمت... ولا يستطيع أن يقول شيئًا، وهل يقول لأبيه إنه حلم بموته؟!

وفي بعض الأحيان كان يكرهه أكثر من الشيطان الرجيم نفسه، وفي بعض الأحيان كان يدعو الله أن يأخذه، وذات مرة كسر وراءه قلة دون أن يشعر به أحد... ألقى بها من البلكونة إلى الشارع حتى تنكسر ولا يعود أبوه... لكن القلة لم تنكسر!!

ينادي عليه «بعضشي» من آخر الشارع:

«ويكا... يا ويكا...».

فيشهق ولا يستطيع الرد على نداء صديقه، ولو لبى النداء فسيسمع أبوه صوته ويستيقظ من نومه، ولو استيقظ في قيلولة الظهيرة هذه فالكارثة محققة... إنها ساعة القيالة التي تلعب فيها الشياطين بكل شيء، حتى بعقل أبيه... مثلها مثل ساعة المغربية في رمضان عندما يضيق الخلق بالرجال ويتحول الأب إلى كف لو هوت فوق جبل لحطمته!

«ويكا... يا ويكا».

لا... لن يرد على «بعضشي»...

«ويكا.. مش نازل بقى يا أخي؟».

كم يحبه ويحب اللعب معه، وكم يكره «حامدًا» ويكره صوته الغليظ...

«أصلك بتاع شوارع».

طالما سمعها منهم واحتار...

هل خلقه الله حقًّا ليكون صائعًا وضائعًا وابن شوارع مثل «بعضشي»؟

هو يحب اللعب مع «بعضشـي» رغم جلبابـه القذر المفتوح الصدر حتى منتصف البطن، ورغم شعره الهائش وقدميه الحافيتين وأنفه الذي يسيل باستمرار.

وهو لا يحـب اللعب مع «حامد» رغم قميصـه وبنطلونه، ورغم أنه لا يسير في الشارع حافيًا:

ماذا يحدث لو نجح «حامد» ورسب هو؟!

ترتعد ركبتاه رغم لسع الشمس الذي يكوي ساقيه النحيلتين ويتذكر أباه، ثم يتذكر «حامدًا» فيصيبه الغيظ...

سـخن رأسـه فوضع فوقه كفه، ثـم راحت أصابعه تلعب في شـعره الذهبي الطويل الذي يقول حامد إنه مثل شـعور البنات... فلماذا خلقه الله أصفر الشـعر ولم يخلق شـعره أسـود مثل بقية العيال؟! هل يكون لقيطًا وجدوه بجوار الجامع مثل ذلك الطفل الذي وجدوه في الأسبوع الماضـي؟ وهـل يكون ابنًا لعسـكري إنجليـزي كما أكد النـاس عندما حملـوا الطفـل إلى المركز؟ إن «تشـارلي» لم يصدقه فـي البداية عندما أخبره أنه مصري، أشار إلى شعره الأصفر وقال: «لكن شعرك أصفر!». ولكم أوحشه «تشـارلي» بالرغم مما حدث منه، ولكم يكره السجّان ذا الشـعر الأحمر، ويمقت الكابتن ذا الشارب الغليظ... ومع الغصة التي خنقته لثوان... تمنى لو كسب هتلر الحرب!

يجول ببصره في الشـارع السـابح فـي الصهد وتتخايل عيناه بشـبح يعدو من ناحية السوق نحوه... فهل يكون هذا هو «حامد»؟

«يا ابني أنا كل يوم الضهر... بابا بيقول نوم الضهر صحة...».

كم حاول أن ينام بعد الغداء لكنه لم يستطع.. وكم يكره النوم إذا غزاه الليل أيضًا...

«شوف أنا صحتي أحسن من صحتك ازاي».

وهو لا يحب «أبا حامد» أيضًا، يشعر به وكأنه شيء مقرف، ويقول عنه أبوه إنه بخيل لا يصرف مليمًا، وإنه يحرم نفسه من كل شيء ويضع القرش فوق القرش حتى بنى بيتًا، وأصبح عنده ملك!

أمه تملك بيتًا في وقف الإسكندرية... ورغم هذا... ...

يتقدم الشبح بسرعة متوغلًا في شارعهم وهو يلح، وإذا الشك تذيبه الحقيقة الواضحة، فهذا «حامد» ينادي عليه بكل صوته الغليظ الخشن:

«أنا نجحت.. أنا نجحت يا بني.. النتيجة ظهرت وأنا نجحت!».

تحت البلكونة يتوقف «حامد» لاهثًا لكنه لا يكف عن الصياح...

«وأنا... أنا يا حامد؟!».

ينطقها قلبه الخافق باللهفة والخوف والقلق المدمر... يبول نقطتين على نفسه ويغص حلقه ثم يستطيع أن يتمالك وإن بردت أطرافه، ويهوي فوق رأسه صوت «حامد» يملأ سكون الشارع ويوقظ - حتمًا - أباه من النوم وأمه.

«بابا كان في المكتب وكلم البندر وعرف إني نجحت... ما تخلي أبوك يكلم البندر هو كمان... أنا نجحت ورايح اركب بسكليته، تيجي معايا؟!

يزداد خوفه مطعمًا بالغيظ الشديد، هو يعلم أن «حامدًا» يسخر منه، وهو لن يستطيع الخروج من البيت بدون إذن ولن يستطيع مشاركته

اللعب حتى يعرف النتيجة... هكذا «حامد» دائمًا، برأسه الكبير وأنفه الأفطس وملامحه الثقيلة وشعره القصير المدبب كالإبر... لماذا يبدو له دائمًا وكأن وجهه مربع يرسمه فكري أفندي على السبورة بالطباشير الأزرق؟!

جاءت إليه الحركة تسعى من داخل الغرفة فلابد أن أمه تغادر السرير، يسيل عرقه ليغرق جسده، وتتداخل الأشياء أمام عينيه ويترك «بعضشي» الطوق والكرة ويعدو متسائلًا:

«ويكا... ويكا... إنت نجحت ولا سقطت؟!».

ومن خلف أذنه الغارقة في لهب الشمس يأتيه صوت الباب وهو يُفتح، ودبيب قدمي أمه الحافيتين فوق بلاط الصالة، وصوتها اللاهث يتساءل في لهفة:

«إيه الحكاية يا ولد؟!».

جاءت الساعة فأين المفر؟!

«إيه الحكاية يا ابني ما ترد عليَّ... إنت يا ولد... ما ترد يا ابني!».

ويهتف «حامد» من الشارع:

«أصل أنا نجحت... بابا عرف النتيجة من البندر!».

كان ينتظر تلك اللحظة دون شك، وما إن ظهرت أمه من خلفه حتى قال ما قال ثم انطلق يعدو مغادرًا الشارع كله:

«ويكا.. ما تقول بقى يا ويكا.. نجحت ولا سقطت؟!».

«إنت يا ولد... ما تقوم يا ابني تشوف النتيجة!».

ماذا يفعل لو أنه كان راسبًا؟!.

«ساكت كده ليه يا ولد... ما تفز تشوف انت عملت إيه؟».

تصطدم عيناه ببطن أمه المنتفخ، يجف لعابه ويلتهب حلقه وتتعالى في أذنيه أصوات صفير حاد، ينزلق منديل أمه من فوق رأسها إلى الخلف وعندما مالت عليه تلاعب ثدياها داخل قميصها المهدل، تلح عليه بالسؤال فيقول بصوت يبدو له شديد البعد:

«ده عم أبو فرخة هو اللي سأل في البندر وبيقول النتيجة ظهرت!».

تجذبه من كتفه فينهض مستسلمًا وترتجف ركبتاه، يداهمه إحساس جارف بأنه راسب لا محالة... كان ينجح دائمًا دون أن يدري كيف، كان يلعب ويحب الشارع أكثر من أي شيء آخر، يغلقون عليه الغرفة بالمفتاح، ويمنعه أبوه من النزول إلى الشارع، ويستذكر دروسه في ساعات كان يشعر فيها أنه يختنق... ذله ومهانته يوم يصبح عليه ألا يفعل شيئًا سوى المذاكرة... كلمة كالسوط تطارده ليل نهار... وكان يذاكر في ساعات، ويلهو بين السطور والصور في ساعات أخرى دون أن يفعل شيئًا سوى استجلاب الملل... ورغم ذلك كان دائمًا ينجح فكيف؟!

غير أن هذه المرة تختلف... إن اليوم هو يوم الحساب، ويوم الفصل، بابان لا ثالث لهما... إما الجنة أو النار!!

يسعل أبوه في الداخل فيبول على نفسه مرة أخرى لكنه لا يغرقها...

«تعالى هنا يا سيدنا الافندي».

يأتيه الصوت عبر الباب، لا بد أنه الآن قد أشعل السيجارة وجلس في الفراش بلا طاقية... الجبهة العريضة اللامعة، والعينان الحمراوان،

وثنية اللحم فيما بين الحاجبين... هذه علامة الشر، ولأقل هفوة مهما كانت سيكون جزاؤه مهولًا، الصفع والضرب والركل والإهانة أمام إخوته والخادمة وسيسمع الجيران صراخه... مع الصيحة تدقدق أقدام إخوته مهرولة فوق أرض الغرفة ومعهم الخادمة، وتأخذ عيونهم في الاتساع محملقة فيه عبر الباب الموصل ما بين غرفة أبيه وغرفتهم وأفواههم فاغرة في انتظار ما سيحدث... يجذب أبوه نفسًا من السيجارة ثم ينفث الدخان بصوت مرتفع... يحس بالاختناق وهو يسمع أمه تقول شيئًا، يضيق صدره بما فيه فتتدفق دموعه بلا حساب، يشتد غيظه لأنه يبكي فيزداد انهمار الدمع، فيتقدم إلى الداخل بخطوات مترددة وتسبقه أمه دون أن تكف عن الحديث لحظة:

«يا اخويا قول له يروح المحطة يسأل... يا ندامه... جرى إيه يا افندي الولد حامد بيقول إن النتيجة ظهرت.. هو ابن أبو فرخة ينجح وابنك لأ؟! جرى إيه يا ثفندي ما تقو.........».

لماذا لا تنطق أمه اسم أبيه واضحًا؟ لماذا لا تقول «يا ثابت أفندي» بدلًا من ثفندي هذه التي تغيظه وتثير ضيقه؟! لماذا لا تفعل مثل طنت جانيت وتنادي أباه يا ثابت فقط؟!

«تعالى هنا... قرب!».

تقذف به صيحة أبيه إلى الأمام خطوتين في الحال، يهرب من العينين الحمراوين إلى جدران الغرفة وسقفها وأرضها وأثاثها... السرير الأبيض ذي الأعمدة اللامعة والستائر المسدلة... الدولاب والمائدة الصغيرة، وتحت الشباك تقبع الكنبة بكسوتها البيضاء الكمونية... وتحت قدمه السجادة المليئة بالنقوش والألوان الزاهية... والـ...

«قال لك إيه زفت اللي كان بينادي عليك دلوقتي؟!».

«ده حامد يا بابا... بيقول إن النتيجة ظهرت».

يحاول التماسك فيشد قامته ويمسح دموعه بظهر يده، لكن صوته ينسلخ بالرغم منه، وكان يعلم أن التحذير آت لا ريب فيه...

«أنا مش قلت لك ميت مرة محدش ينادي عليك في ساعة زي دي أبدًا؟!».

يعاوده الاختناق فيملأ صدره بالهواء ولا يفتح فمه.

«بالك إنت حا تفلح؟! إبقى تعالى قابلني!».

«فال الله ولا فالك يا ثفندي... حقه مالكش حق يا خويا!».

لابد أن يحدث شيء ما... الكف النظيفة والأصابع الغليظة والأظافر النظيفة...

لماذا لا تتسخ يدا أبيه؟!

«اتفضل غور على المحطة يا سيدنا الافندي... تروح لعمك مينا وتقول له يكلم جوز عمتك في البندر ويسأل على النتيجة!».

«حاضر...».

يقولها وهو يستدير مندفعًا إلى الخارج وقلبه يرقص بالخلاص والحرية ولو لدقائق....

«تعالى هنا يا سيدنا الافندي».

وتتسمر قدماه عند باب الغرفة... ثم يستدير...

«مستعجل على إيه؟!».

«أبدًا والله يا بابا... دا ... ...».

لماذا يتحدث... وهل سيصدق أبوه كلمة مما سيقول؟!

«ما تنطق؟!».

«يوه يا ثفندي، حقه ما لكش حق... مش عاوز يفرح بنجاحه؟!».

«ومين قال له انه حاينجح يا ست هانم»...

لماذا تبدو أمه منتفخة البطن دائمًا؟!

سهام وسامية، وسامي، ويقول أبوه إنها لو جاءتهم بولد هذه المرة فسيسميه عليًا...

«يوه بقى يا خويا... إنت حا تفول على الولد؟ بعد الشر عليه من السقوط يا خويا».

هو يعلم نتيجة حديثهما مقدمًا... ليتها ما تحدثت...

«إبقي تعالي قابليني يا ست هانم... وده وش نجاح ده؟!».

لماذا تصمت... ولماذا يسري التنميل في ساقيه؟!

«اتفضل يا بيه... اتفضل!».

يستدير مبتعدًا عندما تمسك بخناقه الكلمات الغاضبة:

يفقد رغبته في الحرية فجأة... يقول «حاضر» ويسلم أمره في انهيار كامل... أصبح لا يريد الذهاب إلى المحطة ولا رؤية «بعضشي» ولا ظهور النتيجة...

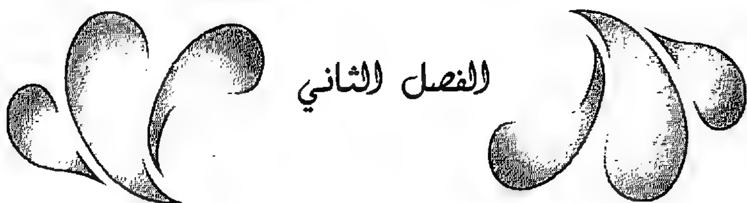
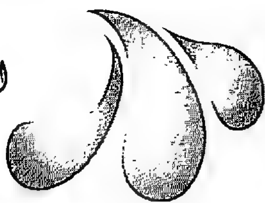
«ما تتفضل يا سيدنا الافندي... امشي غور من هنا!».

لا يقول حاضر ويتمنى الموت لنفسه فتنسكب دموعه من جديد... يسود الصمت لثوان يجذب فيها أبوه نفسًا ثم يقول بصوت خافت:

«إنت فالح إلا في العياط!».

ويستدير في بطء، يقطع الصالة دون أن يرى فيها شيئًا، تغرق الدموع عينيه وترفض التوقف رغم كل ما يبذله من جهد، يمد يده ويفتح الباب وينحدر إلى السلم في خطى بطيئة، وكلما هبط درجة يزداد بكاؤه، ويشتد نحيبه... وقد حيره أمر الله كثيرًا... فلطالما دعاه وتوسل إليه وناجاه وصلى فلماذا لا يستجيب؟!

في منتصف الطريق إلى باب البيت يتوقف ليمسح دموعه، كان لابد أن يوقف كل هذا وبأي ثمن ومهما كلفه من جهد... فعند باب البيت، سيسأله بعضشي - حتمًا - عن سبب بكائه.

الفصل الثاني

ترى... ما شكل الله؟!

لابد أنه يشبه أباه، أو يشبه الملك... لماذا لا تستجيب السيدة زينب وسيدنا الحسين والسيد البدوي لتوسلاته ودعواته؟ زاره النبي في المنام منذ أيام وكان يرتدي ملابس بيضاء، لكنه لم ير وجهه جيدًا، غطت ظلال النور الأزرق ملامح الوجه كله، وكان النبي يقف قبالته في صالة البيت ويسراه مستندة إلى مائدة الطعام...

يمتلئ صدره بالهواء وتجف دموعه فيتنهد بارتياح ويداخله اليقين بأنه ناجح، ولقد قال النبي هذا في المنام... تستقبله نسمة رطبة تهب عليه من شاطئ النيل حيث يصب شارعهم في ميدان البلدية الواسع... ويغسل الهواء وجهه فيشعر براحة شديدة، ويعبر السوق بزحامه وناسه ويمشي حتى نهاية الشارع فيطالعه مبنى البلدية الهائل بلونه الأصفر... عندما ناداه «بعضشي» عند باب البيت صاح فيه دون أن يلتفت نحوه: أنا رايح المحطة... وعندما جرى نحوه أطلق لساقيه العنان محتجًّا بأن أباه ينتظره... كان يرتجف من الخوف ساعتها... وعندما خرج من باب البيت إلى الشارع كان بيت النواجي المقابل لبيتهم خاليًا من الواقفين في النوافذ أو على الأبواب، حمد الله ووضع وجهه في الأرض... وعندما ابتعد وخفت خطوات «بعضشي» من خلفه، كان

الطريـق إلـى النيـل خاليًـا... فخفـف مـن اندفاعــه، وخطـرت ببالـه «أوظه»...

لماذا لم يخلقه الله في زمن آخر؟!

لمـاذا لم يخلقـه في زمن النبي حتـى يموت شـهيدًا... ألم يكن من الممكن أن يكون هو نفسه علي بن أبي طالب؟ الله قادر على كل شيء وكان من الممكن أن يكون هو نفسه الـ... ...

«أسـتغفر الله العظيم ... أسـتغفر الله العظيم ... أستغفر الله العظيم الـ... ...».

تخطر «أوظه» بباله من جديد وهو سادر في الاستغفار وعد المرات فـوق عقل أصابعه... عندما قبلهـا لأول مرة قبلته هي الأخرى وارتعب قلبـه بذكر جهنـم، الزبانية والأسـياخ المحماة والمعـدن المصهور في العيون والأفواه... الرعب والرجفة والليالي السـوداء والأحلام الرهيبة وخيـالات الشـياطين على الحائـط... لكنه لم يكمل الثامنة عشـرة من عمره بعد، وما زالت أمامه سـبع سـنوات حتى يحاسبه الله على أفعاله، سـبع سـنوات يستطيع أن يفعل فيها ما يشـاء، ولن يكون قبلها حساب فلماذا يستغفر؟!

تنبسـط حواسـه جميعًـا فيفتـح ذراعيـه للميـدان الواسـع ويكـف عـن الاسـتغفار والعـد... ينطلـق سـائرًا وقـد هــدأت دقــات قلبــه وانتظمت أنفاسـه ولربما مات قبل أن يبلـغ الثامنة عشـرة فيدخل الجنة بـلا حسـاب... يلـوك كل شـيء في ذهنـه بلا خـوف أو تـردد، ويتمنى لو كانت معه «أوظه»!

قامت الحرب منذ عامين وتدفق المهاجرون على البلد من الإسكندرية، وكان لأمه أقارب فيهم... ورأى «أوظه» يوم سكنت عائلتها في بيت عم إسماعيل المحولجي المجاور لبيت النواجي.

كأن السكة الحديد هي قمة الدنيا... كل الرجال يعملون فيها، أبوه وعمه وزوج عمته وخاله وعم إسكندر وعم مينا... حتى أبو «أوظه» يعمل هو الآخر بالسكة الحديد...

يعبر الميدان فيطالعه النهر بمياهه الساطعة بلون الشمس، يتوقف محملقًا في المياه ثم يقرر ألا يعمل في السكة الحديد عندما يحصل على الشهادة الثانوية الكبيرة، تلوح له قطعة حجر فيركلها بكل قواه ثم يتساءل: هل تحبه «أوظه» كما يحبها؟!

سألته بالأمس وهما غارقان في تلال الرمال عند الشاطئ الآخر للنهر:

«حا تنجح والا حا تسقط يا اسمك إيه؟!».

كانت مستلقية بجواره على ظهرها، وقد ابتلت ملابسها بالمياه وتعلقت بها الرمال، القطرات تتساقط من شعره وشعرها، ومن حولهما سكون البر الثاني والشمس تختفي قرب المغرب خلف النخيل، على الناحية الأخرى من الكوبري كانت معسكرات الإنجليز بوجوههم الحمراء وشواربهم الصفراء الهائشة، تذكر «تشارلي» ثم نسيه عندما قبلته «أوظه» في خده، نظر في عينيها الخضراوين وابتسم، تذكر المياه وجسده العاري وصياح أوظه وصدرها النابت، وتمنى لو تعلَّم السباحة حتى يلحق بها في المياه العميقة...

«لو أبوك شافنا دلوقت، تعمل إيه يا اسمك إيه؟!».

«ولا يهمني!».

«كداب!».

«ودين النبي والمصحف الشريف ولا يهمني».

«ولما يضربك؟!».

«علقة تفوت ولا حد يموت».

«أنا أبويا عمره ما ضربني!!».

اكتشفت أمه ذات ليلة أن شعره مبتل فصرخت فيه:

«كنت فين يا ولد؟!».

«ماكنتش».

لا يهمه صراخ أمه ولا عويلها، وهو لا يبكي مهما ضربته...

«إوعى تكون استحميت في النيل؟!».

وكادت الطامة الكبرى تقع لولا معجزة أنستها الأمر كله، ثم جف شعره فأصر على الإنكار!

هل لابد أن يعود إلى البيت؟! وهل لابد أن يذهب إلى المحطة ويسأل عن النتيجة؟! ومهما حدث فهو لن ينسى المرة الأولى أبدًا...

القبلة المختلسة خلف الباب والتقزز والقيء والقرف وضحكات «بعضشي»... كان يومًا من الأيام النادرة التي ابتسم له فيها أبوه وأعطاه تعريفة بدلًا من مليمين... وعندما طلب منه الإذن بالخروج ساعة

العصر وافق دون زجر لكنه أمره بالعودة مع أذان العشاء، كان الامتحان قد انتهى منذ أيام، ومرت بنفسه سحابة ضيق لوجود شرط يحد من حريته، تمنى لو لم يطلب منه أبوه ألا يتأخر في الشارع، تمنى أن يتركه مرة ليفعلها دون أمر، لكن بسمة أبيه أسعدته يومها وبددت عن نفسه كل ضيق... غادر البيت سعيدًا ويده تقبض على التعريفة في حرص داخل جيبه... وقف بالباب لحظات وكانت «أوظه» تجلس على عتبة بيتها. خطر «حامد» بباله فأحس بفتور وقلب شفتيه كما يفعل أبوه كلما انتابه القرف، وابتسمت له «أوظه» فارتفع الدم إلى وجهه والتهبت أذناه... كانت حافية القدمين وحذاؤها ملقى بجوارها، شعرها لم يمسه المشط، لكنه أحبه وهو يسيل على خديها وظهرها كأسلاك ذهب معفرة بالتراب، لم تكن ترتدي جلبابًا، بل فستانًا تحليه نقوش وفوق النقوش عشرات البقع... أحس بالسعادة لكنه لم يرد على ابتسامتها، سددت إليه عينيها فأشاح عنها والخجل يتملكه... لكنه تمنى لو جاءت وتحدثت إليه!!

طالما رآها من بين قضبان النافذة دون أن يجرؤ على الحديث معها، كانوا يغلقون عليه الغرفة الحمراء بالمفتاح حتى يذاكر، فوجد لنفسه مكانًا عند قاعدة النافذة يطل منه على شارعهم بكل ما فيه... رآها من بين القضبان يوم جاءوا، وابتسمت له، لكنه هرب عندما رأى لون عينيها لون توت عنخ آمون الذهبي في كتاب التاريخ.... لماذا لم يخلقه الله توت عنخ آمون نفسه؟! ورآها بعد ذلك في الشارع وفي بلكونة بيتهم وكانت تصيح به أحيانًا فلا يرد... وعندما لعب معها «بعضشي» ذات عصر أصابه الضيق وأغلق الشباك وانكب على كتبه، لكنه لم يقرأ

فيها حرفًا... وعندما فتح أبوه عليه الباب، ودعاه لطعام العشاء، اكتشف أنه شبعان، ولن يأكل!

كانت يده لا تزال على التعريفة في جيبه حتى بلله العرق، واندفع «بعضشي» بطوقه من عند ميدان الكنيسة وهو يتصايح:

«ويكا!... يا ويكا».

ولم يرد على «بعضشي» وخفق قلبه عندما نهضت «أوظه» لاستقباله، حملت حذاءها في يدها وخبت في تراب الشارع وطينه بقدمين حافيتين... وكانت عيناها ما زالتا تنظران إليه... فماذا يفعل؟!

«تاخد لفه بالطوق يا ويكا؟!».

توقف «بعضشي» أمامه وهو يلهث...

«إنت خلصت امتحان.. صحيح؟!».

هز رأسه ولمح عينيها وهما تبرقان...

«هيه النتيجة حتظهر إمتى؟!».

اقتربت «أوظه» منهما دون خجل...

«الولد حامد بيقول إنك ساقط!».

ولم يرد عليه ولم يغضب، وأصبحت «أوظه» تقف قبالته، وعيناها في وجهه...

«تديني لفه يا بعضشي؟!».

قالتها لبعضشي، لكن عينيها لم تفارقاه...

«بكام؟!».

قالها «بعضشـي» وهو يلتفـت إليها، واحمر وجـه «أوظه» فدق قلبه بعنف... واقترب منها «بعضشي» وهو يقول بصوت عال وسط الشارع وبلا حياء:

«اللفة ببوسة»!

شهق... ثم ابتلع لعابه، ثم قفز «بعضشي» فوق درجات السلم ثم دلف من جواره إلى ما خلف الباب، تسـمر في مكانه واحتبست أنفاسه وانهمر العـرق غزيرًا على جبهتـه وأحس أن الدنيا تدور به عندما مرت من جواره «أوظـه»... مـا كادت تدلـف هـي الأخرى حتـى أمالت نحو «بعضشـي» خدها وهي تنظر إليه باسمة، وقبل أن يميل عليها «بعضشي» جاشت نفسه بقيء مزق أمعاءه، انفلت يعدو بكل قواه مغادرًا الشـارع بلا كلمة، داهمه القـيء عنيفًـا فاقترب من جدار لكنـه لم يتوقف عن العدو، واسـتغفر الله وهو في الطريق إلى شاطئ النهر... وكان جوفه خاليًا من الطعام!!

ترى... هل ينجح؟!

يعبر الميدان الواسـع ويترك وراءه مبنـى البلدية ليصبح بحذاء النهر تمامًـا... الشـمس في باطن السـماء ترسـل شـواظها ليلهب كل شـيء بالحـرارة، يمتـد النهر متوغـلًا في قلـب الحقول إلى حيـث يصب في البحر الأبيض المتوسط... طالما سار في هذا الطريق عازمًا على السفر حتـى شـاطئ البحر ثـم فيما وراء البحـر حيث بلاد بـره... هناك حرب وأبوه يحب هتلر ويدعوه بخاله فهو يعطي الإنجليز دروسًـا في القتال، لكنه لا يحب هتلر وإن كان يتمنى له أن يكسب الحرب ويقتل الساجن

ذا الشعر الأحمر والكابتن ذا الشارب الغليظ، ولن يهتم إذا ما قتل معهما تشارلي... على اليسار يمتد الطريق حتى بداية الكوبري، وعلى البعد تبدو معسكرات الإنجليز والهنود السيخ والأفريكان السود في البر الثاني، في المسافة ما بين البلدية وبداية الكوبري حيث العسكري بمدفعه داخل الطابية الأسمنت يقع المنتزه والكازينو الذي يجلس فيه الأعيان وضباط الإنجليز والخواجات... رأى أباه ذات مرة يجلس في الكازينو مع أصدقائه فأحس بفخر شديد، قبل المنتزه هناك مبنى الإسعاف، وأمامه مقهى خريستو وأجزخانة برعي وصالون فاروق، ثم يقطع الطريق من بعده شريط السكة الحديد الموغل بين المنازل حتى مصنع الصابون...

الشارع خال والميدان ساكن ولا أحد هناك غيره... يتمنى ألا تظهر النتيجة أبدًا، ويتمنى لو مات «حامد» قبل أن يجيء بالنبأ... ترى، ماذا يقول أبوه الآن؟ وماذا يفعل به لو رسب؟!

يداهمه اليأس ويغزوه خوف مدمر فيميل بنفسه نحو الشاطئ. عند قمة السلم الخرساني الهابط من الشارع إلى سطح المياه يتوقف... هنا قابلته «أوظه» بعد أن ترك لها الشارع يوم القبلة المختلسة خلف الباب...

اثنان يخيفانه ويحيرانه... الله، أبوه...

لماذا لا يفعل الله شيئًا من أجله؟ طالما توضأ وصلى وصام رمضان كاملًا لكن شيئًا لا يحدث... والحرب لم تقف... وهتلر لم ينتصر... فلماذا؟!

«من هنا للمحطة، ومن المحطة لهنا، فاهم يا سيدنا الافندى؟!».

تترامى إلى الميدان ضجة قطار يعبر الكوبري في غير موعد فيوقن أنه لابـد قطـار الجرحـى، الدمـاء والأربطـة والسـيقان المبتـورة والوجـوه المحروقة... ويوم رأى رجلًا يغادر القطار صارخًا وأمعاؤه تتدلى، لم ينم طوال الليل، وظل أبوه يحدث أمه بما حدث حتى أذَّن الفجر، ولو ظهرت النتيجـة وكان ناجحًا فسـيأتي إلى هنـا وحده في سـكون... ويوم جاءت «أوظه» لتلحقه، كانت أمعاؤه تتلوى، وكانت رائحتها عفنة...

«من هنا للمحطة، ومن المحطة لهنا، فاهم يا سيدنا الافندي؟!».

الطربوش المائل إلى الخلف والجبهة المقطبة تعني شرًّا لا خلاص منـه، مـا الذي جعل أباه يتزوج أمه؟! لو لم يفعل ذلك لما ولد ولما كان له وجود ولما جاء به الله إلى الدنيا... سأل أمه ذات مرة سؤالًا كهذا... فصرخت في وجهه مرتعبة:

«إنت اتجننت يا ولد؟!».

«يعنـي يا ماما لو بابـا... يعني يعنـي يعني... اتجوز واحـدة ثانية... وانتـي اتجوزتـي... يعني يعني مثـلًا... يا ماما واحد تانـي كنت حابقى أنا ابن مين؟!».

لم تشف غليله كعادتها وتركته منذرة بإبلاغ الأمر إلى أبيه...

«شفت ابنك يا تفندي بيقول إيه؟ سمعت إيه اللي جرى لعقل الولد؟ قال يا اخويا لو يعني بعد الشر... ...».

النظرات الغاضبة والعينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين وسيل الشتائم والصفع والركل... لكن المشكلة ظلت تحيره...

«إزيك يا اسمك إيه؟!».

هكذا جاءته في ذلك اليوم بعد أن تركت «بعضشي» والطوق والقبلة المختلسة خلف باب البيت... نظرت بعينيها الخضراوين في عينيه فدق قلبه وأحس بالخجل والقرف، حذاؤها في يدها وقدماها حافيتان وعلى وجهه بسمة لم يردها ولكن لابد أن الله أراد...

«إزيك يا اسمك إيه؟!».

«الله يسلمك».

جلس فوق سياج السلم غاضبًا وأعطاها ظهره وراح ينظر إلى المياه... وفي البر الثاني كانت أشجار النخيل تشبه الرسوم في كتاب الجغرافيا...

«تيجي نلعب عروسة وعريس!».

جفل.. قفز إلى الأرض وارتد خطوة إلى الخلف وحملق فيها والذعر يتملكه... ماذا لو سمعها أحد وأخبر أباه؟ ماذا لو علم «بعضشي» أو «حامد» أو رآهما أحد؟

«ما لك يا اسمك إيه... إنت مخاصمني؟!».

جف حلقه وأحس بأذنيه تلتهبان بالدماء والحرارة معًا... ضحكت «أوظه» وهي تقترب منه وتلتصق به، ففر إلى قاعدة السلم الصخري فجلست بجواره وظهرها إلى الميدان...

«إنت مخاصمني يا إسمك إيه؟!».

«أبدًا...».

هز رأسه وأراد الله أن يبتسم فابتسم دون أن يريد، هبت نسمة عصر وتطاير شـعرها إلى الخلف وأفلتت فجأة من جواره لتهبط السلم عدوًا نحو المياه...

«حاسبي أحسن تغرقي!».

لم تلتفت نحوه عرت سـاقيها وهبطت في النهر فنهض صائحًا وقد تملكه الخوف:

«اطلعي أحسن حد يشوفك ويقول لمامتك!».

خاضت في مياه النهر بساقيها وقذفته برذاذ المياه ثم استدارت نحوه وهي ترفع ثوبها فشهق بالذعر الذي اجتاحه فجأة...

«تيجي نستحما في البر التاني يا اسمك إيه؟ تيجي نعوم؟».

صاح فيها بكل صوته ساخرًا:

«يعني انتي تعرفي تعومي يا بنتي؟!».

«تعالى البر التاني وانا نعلمك، أخويا علمني في البحر المالح»...

«تعرف تعوم في المالح؟!».

«إحنا لنا قرايب في اسكندرية».

صعدت السـلم عدوًا وتسـاقطت المياه من سـاقيها وانحنت لتلتقط حذاءها ومدت له كفًّا مبتلةً وصاحت فيه:

«تعالى... تعالى نروح البر التاني!!».

أراد الرفـض لكنـه أعطاها يـده فسـحبته خلفها وهي تعـدو، فتبعها طائعًا... كانت يدها رطبة طرية فأحس براحة لملمسـها، قطعا المسـافة

إلـى الكوبري عدوًا ثم اندفعا متجاورين في الممر الضيق وكانت تقول بصوت لاهث:

«إحنا قرايب!».

جذب يده من يدها وحملق في وجهها غير مصدق...

«أمي قالت كده... ما احنا كمان من الأنفوشي».

هـو لا يعـرف من عائلـة أمه سـوى ذلـك الخـال بعينيـه الزرقاوين وطربوشـه اللامـع وجلـده الأبيض ودفاتـره الهائلة التي توقـع فيها أمه كلما جاء ليعطيها نصيبًا من الوقف...

«عمي محمود يبقى متجوز خالة أمك!».

«مـا هو يا عبيط عمـي يبقى ابن خال أمي، وأختـه كمان متجوزة ابن خالتـي زهـرة، وحتى واحنـا جايين في القطـر أبلتي جمـالات قالت لنا نسلم على أمك».

لم يفهم شيئًا مما قالت وصمم على أن يخبر أمه بالأمر كله وعاجلته «أوظه»:

«مش أمك اسمها سيدة؟».

«وانتي ما لك!».

أحس كأنها تعريه وارتد بعيدًا عنها، لكنها ابتسمت في وجهه:

«ما لك واقف كده... ما تمدا!».

سـار بجوارهـا دون أن ينطـق حرفًـا، لم يفهم شـيئًا ممـا قالت لكنه أحس فجأة أنها لابد أن تكون قريبته بالفعل... هل يستحم في مياه النهر

كما يفعل «بعضشي» والحفاة وذوو الجلاليب الممزقة! لو علم أحد بالأمر لكانت مصيبة، هو يعلم تمامًا ماذا بعدها، الضرب والركل والإهانة أمام الخادمة وإخوته وسيسمع الجيران صراخه... توقف عن السير عند منتصف الكوبري فاستدارت نحوه «أوظه» متسائلة:

«ما لك يا اسمك إيه؟... وقفت ليه؟».

صمت قليلًا واستند إلى السياج وتعلق به وراح يرقب مياه النيل المتدفقة بعين غائبة، تسلقت «أوظه» سور الكوبري بجواره وحذاؤها ما زال في يدها مدلًّى في الهواء بلا مبالاة، ماذا يحدث لو أنه دفع الحذاء من يدها فهوى إلى المياه؟! التصقت به ومالت عليه فلامس شعرها جانب وجهه وطرف عينه... عادت تسأله عن سر توقفه فلم يرد لثوان ثم قال:

«الطراوة هنا حلوة».

«الطراوة تحت أحلى يا عبيط!».

«أنا معايا تعريفة... مصروفي».

«تعالى نستحمى».

«شعري يتنكش!».

«معايا مشط... تاخد؟».

قفزت من فوق السياج ودست يدها في جيب فستانها وقدمت له مشطًا تكسرت أسنانه فأحس بالضيق... هل يمشط شعره بمشط كهذا؟!

«المشط ده وسخ».

«اغسله في الميه».

«هدومنا تضيع».

«مفيش حد تحت... حتى شوف».

أشارت نحو شاطئ الرمال الخالي وكان يعرف أنه خال قبل أن تشير، كانت تريد وكان يرغب فلم يجد بدًّا من التسليم:

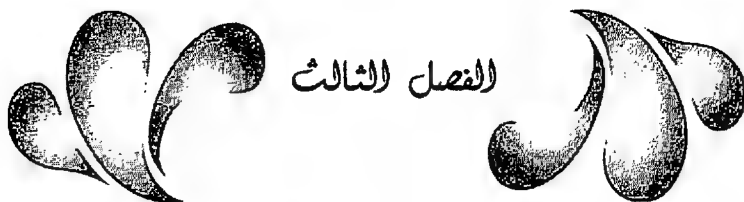
«بس حد يشوفنا».

«ماتبقاش عبيط يا اسمك إيه... تعالى... تعالى... تعالى».

أخذت تجذبه خلفها وهي تعدو، فترك نفسه لها مختارًا!

«قاعد في الشمس كده ليه يا ابني؟».

ينتفض مستديرًا نحو عم سعداوي ساعي مكتب التليفون، يسقط قلبه ويضطرب ويوقن أن أباه سيعلم بالخبر، أنه تلكأ، ولم يذهب من البيت إلى المحطة ولم يعد من المحطة إلى البيت، يطالعه وجه الرجل المكتنز والمنديل الذي يغطي رأسه والطربوش المتآكل... يملأ صدره بالهواء ويتمتم بكلمات لا يعرف لها معنى، ويزداد إحساسه بالاختناق... ويفكر: ألا يستطيع الهرب يومًا إلى حيث لا يعرفه أحد؟!



الفصل الثالث

من خلف عم سعداوي ودراجته تبدو أجزخانة برعي مغلقة الأبواب وخلف باب صالون فاروق يجلس عم بيومي بمعطفه الأبيض وقد تدلى رأسه فوق صدره وراح في سبات عميق، وكان مقهى خريستو شبه خال، ليس به سوى رجلين أو ثلاثة، حتى زكي الكرسون ذو الجاكتة البيضاء كفت نداءاته واختفى في الداخل... أما بار مانولي فهو مغلق الأبواب ولا يأتيه الإنجليز إلا ساعة العصر، وتشارلي لا يجلس في هذا البار ويفضل البار الآخر المقابل لبيت عم ألبير وطنط جانيت، وسيدخل تشارلي النار حدفًا ولن يدعو له الله لكي يدخله الجنة وإذا رآه وناداه فلن يرد عليه وسيبصق على الأرض في المرة القادمة... تحت شجرة مبنى الإسعاف يقف بائع البطيخ بعربته المكدسة، والميدان الواسع خلا إلا منه ومن عم سعداوي... وكل الأبواب مغلقة، ليس سوى السماء تبدو له بلا أبواب... فقط، كيف يصعد إليها الإنسان؟!

«إنت نجحت واللا سقطت يا ولد؟».

«ماتقولش يا ولد!».

يقولها بجفاء وهو ينهض من مكانه هربًا من عيني الرجل المنتفختين، يخلع عم سعداوي طربوشه ويجذب المنديل من فوق رأسه ليجفف به العرق السائل مبتسمًا... هو يعلم أنه يستطيع إيذاءه...

«أصل بابا قال لي أروح أشوف النتيجة».

«بيقولوا ان ابن أبو فرخة أفندي نجح... وانت عملت إيه؟!».

«ما هو بابا قال لي أروح أشوف النتيجة».

«وهيه النتيجة حاتظهر هنا؟ ما تروح لعمك مينا في المكتب وتقول له يسأل جوز عمتك في البندر!».

«ما هو بابا قال لي... ...».

«مش عاوزني أقول لك يا ولد... إنت اللي لعبي ومش عاوز تسأل!».

«أبدًا والله أصل... ...».

«حاقول لك يا سعادة البيه بس انت انجح وطوِّل رقبة أبوك!».

«ما هو أنا... ...».

«وكنت واقف هنا ليه؟ انتو وراكم إلا وجع القلب...».

«مانا رايح يا عم سعداوي».

«وإيه اللي مقعدك في الشمس الحامية دي؟!».

«أصل بابا قال لي... ...».

«الله يكون في عونه... الراجل بيشقى علشان يربيك وانت بتلعب!».

أصبح الرد لا يعنيه، يصمت ويمضي في الطريق دون كلمة ودون نظرة إلى الرجل الذي يعيد المنديل إلى رأسه ثم يضع فوقه الطربوش... بضع خطوات وإذا الرجل يمضي من جواره فوق الدراجة دون أن يدعوه للركوب وكان يحدث نفسه بصوت عال:

«وهيـه النتيجـة حاتظهـر إمتـى؟ إنتو شـاطرين إلا في اللعـب؟ إنتو وراكـم إلا وجع الدماغ وتعب القلـب واللقمة المرة؟! ما كلكم كده... أعوذ بالله منكم.... من .... العيشة!».

وإذا كان الآبـاء يكرهـون الأبنـاء ويتعبـون من المصاريـف والتربية فلمـاذا أنجبوهم من البدايـة؟! وإذا كبر وإذا تـزوج «أوظه» فلن ينجب أطفـالًا حتى يريح نفسـه مـن المصاريف ووجع الدمـاغ، قال أبوه ذات ليلـة إن عـم ألبيـر مرتاح لأنه بـلا أولاد... وشـهقت أمه قائلـة إن طنط جانيت تبكي... فلم يصدقها... يختفي عم سعداوي بدراجته عن عينيه فيطلق لسـاقيه العنـان حتى يعوض من الوقت ولو ثـوان، يقفز درجات السـلم ويصعـد إلـى رصيف المحطـة وينثني إلـى اليسـار ويندفع نحو مكتب التليفـون... الرصيف خال وعربة القطـار القديمة على الجانب الآخـر مـن المحطة، بداخلهـا بيته الذي بنـاه مع «أوظـه» فمتى يعودان إليـه؟ عند منتصف الرصيف يقـع مكتب التليفـون والتلغراف، بجواره مكتب المعاون ثم مكتب ناظر المحطة ذي الكرش والشوارب الرمادية والضحكة المجلجلة والوجه السـمين، عند نهاية الرصيف يقوم البوفيه الـذي تملكـه ماريكا ذات النظـارات السـميكة، صرخت فيه يـوم رأته يدخـن سـيجارة خلف الطابية وأقسـمت أن تخبر أباه بالأمـر، لكنها لم تفعل... هنا يعرفه طوب الأرض جيدًا، وأقل هفوة منه كفيلة بأن يتناقلها النـاس لتصـل إلـى البيـت قبل أن يدخلـه... وفـي البوفيه لا بد سـيجد حضرة الناظر بطربوشه الطويل والمنشة الفاخرة والنظرات المرعبة، قد يكـون الناظر موجـودًا وعليه أن يهندم قميصه وشـعره ويمسـح العرق المتصبـب على وجهه وأن يسـير الهوينى... وفـي أي مكان يذهب إليه

سيجد حضرة الناظر الذي لا تخفى عليه خافية، على المحطة وفي الأسوق والمنتزه على السواء، عيناه الحادتان ترقبان التلاميذ حتى ولو كانوا في بلدة أخرى، صوته الثاقب يفرقع في الأذن... كضربات سوط لا يتوقف عن العقاب لسبب وبلا سبب، وفي المدرسة خيرزانته التي أطلقوا عليها اسم «الحاجة»... ويل للذين يقعون يومًا تحت لسعاتها!!

يخفف اندفاعه نحو المكتب ويرقب البوفيه بعين متوجسة فلا يعلم الغيب إلا الله... يتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناظر قد جاء بنفسه ليعرف النتيجة... ولا يطول التساؤل... فقد برز الناظر من داخل البوفيه كالقضاء وعليه أن يستسلم، سابت مفاصله وأيقن أن فيه شيئًا لله وإلَّا... فكيف فكر في الناظر فوجده، وكيف يظهر كل إنسان يخطر بفكره؟!

تتسمر قدماه في الأرض ويكاد ينثني ليختبئ خلف المكتب لولا أن دوى في سكون المحطة صوت الناظر يزعق:

«يا ولد... إنت يا ولد انت هناك... تعالى هنا».

لماذا كتب عليه أن يطيع كل أمر يصدر إليه... يتمنى النجاح بكل قلبه وينذر لله أن يصوم عامًا كاملًا، فقط... يبعد عن الشارب الأبيض الهائش، والعينين النفاذتين، والوجه العابس دائمًا، والصوت الثاقب يأمر فلا مفر من الطاعة... عند المكتب يلمح بجانب عينه عم إسكندر يقف في الداخل قبالة الباب... ويحملق الناظر فيه غاضبًا لسبب لا يدريه، ولابد أن عم مينا يقبع الآن أمام آلات التلغراف ذات النقرات الغامضة...

«بتعمل إيه يا ولد في ساعد زي دي؟!».

«أبدًا والله يا حضرة الناظر... ده بابا اللي قال لي آجي أشوف النتيجة!».

«ومستني إيه؟!».

هو الذي أوقفه وهو الذي يسأله عن سبب انتظاره...

«إيه اللي موقفك كده؟ اتفضل ادخل قدامي!».

تلسعه شعيرات المنشة على ساقيه عندما يصيح عم إسكندر من الداخل:

«أهلًا حضرة الناظر... دي خطوة عزيزة».

من خلفه يأتي الصوت الحاد يلسع أذنيه:

«إزيك يا إسكندر افندي... هوه ثابت أفندي مش هنا والا إيه؟ فين أبو الولد العفريت ده؟!».

يدخل المكتب مكبلًا بجريمة لا يعرفها فماذا يفعل وماذا يقول؟ وصفه بالعفريت يعني أنه ارتكب ذنبًا واستحق العقاب... فما هو؟

«يا أهلًا يا مينا افندي... سعيدة عليكم... يا ترى العفريت ده أخباره إيه؟ ولد ذكي ونبيه بس شقي عفريت، جن مصور بيشاكل طوب الأرض!».

يسند ظهره إلى الحائط وتهب من الباب نسمة تجفف وجهه فيتنفس الصعداء...

«تصور يا إسكندر افندي، كنت طالع من البوفيه لقيته بيلعب على الرصيف، في ساعة زي دي، في القيالة والزمتة اللي العفاريت بتنام فيها؟!».

رغـم أن حضرة الناظر كاذب إلا أنه يقـول الحق قطعًا، فأين المفر؟ وإذا كانت العفاريت تنام في مثل هذه الساعة، فلماذا لا ينام هو؟!

«لـو لا ذكاؤه ونباهتـه أنا ما كنتـش قعدته في مدرسـتي يوم واحد... ده بيشـاكل طـوب الأرض إنمـا نبيه... ولـو لا صغر سـنه ماكنتش قبلته ولا بعشره جنيه مصاريف!».

الموال المعاد والحديث المكرر ولابد من ذكر الحادثة...

«أنـا مانسـاش يوم مـا كان حايضيع عيـن الولد حامد ابـن أبو فرخة افندي!».

مضـى عام ومـازال الناظر – مثل أبيـه – كلما جاءت السـيرة حكى الحكايـة... الفصـل والسـبورة ومسـائل الحسـاب والتجـار والباعـة والأرباح والخسارة... وفكري أفندي يعدل نظارته ويهدد:

«من الآن فصاعد، أي تلميذ يتكلم حاوديه لحضرة الناظر».

القلم المسـنون في يد حامد الممدودة من تحت التختة، النخسات المتتاليـة في فخذه وجنبه ولا يسـتطيع إلا أن ينتفض بالألم... يضحك حامد ويضحك العيال من خلفه ومن أمامه وتهمس الأصوات في أذنه:

«خيبة يا خيبة».

ولو ضرب حامد أو نخسـه بالقلم لصرخ شـاكيًا للأفندي والمصير بعدهـا تحـدده «الحاجة» وقدمـاه العاريتان ولسـع البرد مـع الضربات الموجعـة، ولو صرخ هو لنخسـات حامد لعايره العيال في الفصل وفي الحوش وفي الطريق صائحين:

«يابو دمعة زي البنات!».

حيطان الفصل العالية والسبورة السوداء وخريطة وادي النيل بترابها ولونها الباهت... نخسات القلم تؤلمه فيرتجف وتخرج من فمه آهة يسمعها الفصل كله... ويلتفت الأفندي منذرًا:

«إنت يا ولد انت هناك... دي آخر مرة ومن الآن فصاعد اللي حايلعب في الحصة أو يتكلم حايروح لحضرة الناظر ويتمد في طابور الصبح».

يستدير الأفندي فتعلو الهمسات في أذنه:

«خيبة يا خيبة» يضحك حامد ثم يركله من تحت التختة وعليه أن يحتمل، يدق الجرس ويخرج الأفندي ويملؤه الغضب والكل يحيطون به صارخين مولولين: «خيبة يا خيبة».

«ودين النبي لانا قايل لحضرة الناظر في الطابور... يا بليد يا كسلان، يا بو صفر!».

بسمة حامد وأسنانه الكبيرة ولسانه الطويل وحاجباه وصوته الغليظ يخرق أذنيه:

«أنا عارف اسم أمك».

«أنا كمان عارف اسم أمك».

«أمك اسمها سيدة».

«وانت امك اسمها زينب... وأبوك أقرع».

ويلتهب صدغه بالصفعة المغيظة ويصيح العيال من حوله:

«يي يي يي... خيبة يا خيبة».

الاختناق والدوار والغيظ وكف حامد والغضب الذي يملأ صدره... صفعة وركلة ويجري العيال إلى باب الفصل فيغلقونه... الوجه المربع بالطباشير الأزرق على السبورة وزجاجة الحبر في يد حامد وعيناه الضيقتان والحبر السائل فوق ملابسه ويعم الصمت. سحابات الغيظ تخنق صدره وماذا يقول لأبيه وأمه وقد صبغ الحبر بذلته الجديدة وشوهها إلى آخر العمر؟ نظرة منه إلى النافذة وحوش المدرسة الخالي بأشجاره العارية من الورق، تمتد يده إلى زجاجة الحبر فتسقط يده فوق قلمه المطروح فوق التختة، وجه حامد يهوي فوق وجهه وسن القلم المشروع ويده تهوي فوق الوجه ينغرس السن في العين اليسرى... الصرخة المدوية والدماء المتفجرة من العين وصيحات العيال المذعورة والسقف الهابط على الأرض، والأرض الصاعدة إلى السماء... والباب المفتوح في لهفة...

«أنا ماشفتتش ودين النبي يا افندي».

«هوه اللي ضربه بسن القلم في عينه».

اللهفة والقلق والأقدام الجارية والقطن المصبوغ بالدم وبكاء حامد والعيال... هرولة الشيخ بسيوني وكفه القابض على رسغه والصفعة والدفعة والسؤال والجواب وعينا الناظر المحملقتان في وجهه... لا ضرب ولا ركل ولا شتائم... فقط:

«هات لي ولي أمرك... اتفضل روح بيتكم... أنا مش عاوز مجرمين في المدرسة بتاعتي...».

الطريق الطويل المترب؛ ورذاذ المطر المتساقط وبكاء حامد بجواره، ولا كلمة...

عند بيت حامد تسمرت قدماه في الأرض عندما طقت أم حامد بالصوت وتجمع الناس في الشارع وتتالت الأسئلة وحملقت فيه العيون وحاصره العذاب ولم يصدق أحد أن حامدًا هو البادئ.

«ولولا ستر ربنا يا إسكندر أفندي كانت عين الولد راحت».

يسند رأسه إلى حائط المكتب ويجيش صدره ويفتح فمه ويتحرك لسانه لكن صوت الناظر يغلق أمامه سبيل الدفاع:

«ده ستر من ربنا والمسيح الطاهر... ولد ذكي صحيح، إنما كان حايودينا كلنا في داهية!».

الحائط الرطب والنسمة الساخنة ووجه عم مينا يطل عليه من خلف المكتب ونقرات التلغراف الغامضة وعندما يبتسم عم مينا ويبدو وجهه وكأنه صنع من شمع منصهر!

«كده تعملها في ابن أبو فرخة يا عفريت يا أزرق؟!».

تشجعه الابتسامة فيتحرك لسانه ويجيء صوته متحشرجًا:

«بابا بيقول لحضرتك، من فضلك اسأل عم كامل في البندر إذا كان.. أصل... لو...».

يدقُّ الناظر عينيه في عينيه فيختنق صوته ويشل لسانه، عبثًا يحاول الحديث فقد حاصرته النظرات من كل ناحية، وانتصب الناظر أمامه وسط المكتب بوجهه وشاربه والمنشة في يده لا تكف عن شق الهواء بشعيراتها... عن يساره بسمة عم إسكندر وقامته الطويلة هما الملاذ،

من خلفه «السويتش» بطول الحائط، في الوسط مقعد أبيه خاليًا، والسكون يطبق فلا حس إلا نقرات التلغراف التي تلتطم وتسرع بين الأشياء جميعًا، ويتنفس ملء صدره عندما يحتويه صوت عم إسكندر:

«ولا يهمك يا جن... والعدرة انت اللي فالح في ولاد البلد كلهم!».

«ده أحسن تلميذ عندي في المدرسة يا اسكندر افندي... ده ولد ذكي تمام... بس عفريت، شقي جدًّا... لا يطاق!».

وتتحرك ملامح عم مينا في ابتسامة واسعة ويزداد انصهار وجهه، ثم يتمتم بصوت خافت:

«حامد أبو فرخة نجح!».

«عرفت الخبر من عشر دقائق بس، لكن بصراحة......».

يلهب الهواء بمنشته فليس هناك ذباب، يعم الصمت ويرتجف لنظرته فيهرب بعينيه إلى ضوء الرصيف الباهر:

«لكن بصراحة أنا حاطط همي على الولد ده... ده أشطر تلميذ في المدرسة كلها، مفيش في المديرية كلها تلميذ أصغر منه... حداشر سنة وخمس شهور ممكن يكون أصغر تلميذ في القطر كله!».

وتمتد يد عم مينا إلى ذراع آلة التلغراف وهو يقول:

«مبارك إن شاء الله... مبارك صدقني يا حضرة الناظر!».

يسيل عرقه ويبرد جسده برعشة تسري في ركبتيه... حلت الساعة فساد السكون وارتكن الناظر إلى حافة السويتش وراح يرقب أصابع الرجل المرتعشة بالذراع الصفراء... يجمد عم إسكندر وتغيض في

وجهه تلك الابتسامة الأليفة ويشعل سيجارة ثم تتعلق عيناه بالفضاء... تيك تاك... ولا أحد يفهم شيئًا سوى الوجه المنصهر والعينين المائلتين إلى الآلة... المصير المحتوم، وفي البندر يعرفون الحقيقة وليت عم مينا يبتسم أو يعبس أو يفعل شيئًا لكن الوجه جامد...

ترى... ماذا يحدث لو كان راسبًا؟!

وكيف سيصبح شكله لو نجح وأصبح حاملًا للشهادة؟!

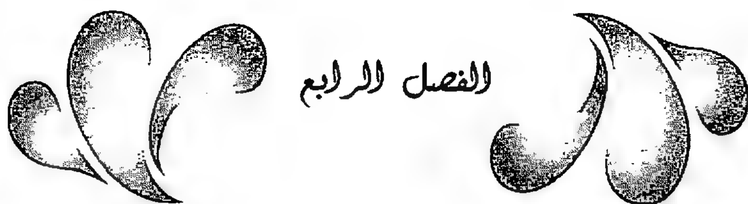
الدقائق بطول ساعات المغرب في رمضان... الوجه الجامد يتحرك أخيرًا وترتفع العينان نحو الناظر فيسعل هذا ويسحق عم إسكندر سيجارته... لكن النقرات لا تكف، وتنسحب الأرض من تحت قدميه فإذا هو معلق في فضاء كالحلم، ولو كان راسبًا فالموت أهون... ويتذكر «أوظه» في المياه فتتوقف يد عم مينا وتكف النقرات وينفجر قلبه بالدقات...

«جوز عمتك مشغول مع مصر، نص ساعة كمان».

لا يفهم شيئًا غير أن سعلة الناظر ترده إلى الحائط... ويتمتم عم مينا:

«بعد نص ساعة حاتعرف الخبر يا سيدي... ولا تزعل».

رغم أن شيئًا لم يشف غليله، إلا أنه تنهد ملء صدره كانت أمامه فسحة من الوقت على أي حال...



الفصل الرابع

يـدور الحديث مثلما يدور في كل مـرة، يتحدث الناظر عن الأولاد والنتيجة والمدرسة الأميرية التي لا ينجح منها في كل عام سوى بضعة تلاميذ يأتي ترتيبهم بعد ترتيب مدرسته:

«وده رغم إن مصاريفها اتناشـر جنيه في السـنة يا مينا افندي، شـوف انـت دفعـت لابنك أنيـس كام عنـدي السـنة دي، وتفتكر إيـه؟! نصف تلامذتها خدوا دروس خصوصية عند المدرسـين بتوعي... المدرسين بتوعي أنا!».

وتشـق شـعيرات المنشـة هواء المكتب في صفير حاد وكأنها تؤكد كلام الناظر بالقوة:

«والمسـيح الطاهـر يـا إسـكندر افنـدي إن مصاريـف الولد ده لسـه ماندفعتـش كلها، ثابـت أفندي راجل طيـب، والمهم مـش الجنيه اللي فاضـل كقسـط أخيـر، المهـم النتيجة يا مينـا افنـدي... المهـم النتيجة وسمعة المدرسة... سمعة المدرسة».

يغرقـه الخجل بالعـرق فيداري وجهـه ويهرب بعينيـه نحو رصيف البضائـع خلف المكتب بعرباته الحمراء ورائحته النفاذة... طالما تمنى لـو أدخله أبوه المدرسـة الأميري ليتنـاول الغداء هناك ويتسـلم الكتب الأميـري والكراسـات الثمينـة... يـوم طالبـه الناظـر أمـام الفصل كله

بالقسط الأخير سال العرق تحت إبطيه وبكى... نتيجة مدرسة بولس الابتدائية دائمًا في المقدمة، هكذا يقول أبوه والناس جميعًا في البلدة، وحديث الجميع عن المدرسة مقرون بالناظر فلماذا لا يذكرون فكري أفندي والشيخ بسيوني وندا أفندي مدرس الجغرافيا؟ الناظر لا يعطيهم دروسًا وندا أفندي كان يمتحنهم بين الحين والحين في الإنجليزية... حديثه في المكتب لا يتوقف وصوته يجلجل ولابد للجميع أن يسمعوا فهل يستطيع هو أن يقول - الآن - شيئًا؟! السكون يرين على الدنيا وصوت الناظر يدوي بجلال حقًّا، لكن ساقيه تؤلمانه... يحكي الناظر حكاية المفتش الذي جاء وسأله سؤالًا في غير المقرر...

«السؤال ده مقرر على أولى ثانوي، صدقني يا إسكندر افندي... على أولى ثانوي... لكن العفريت ده جاوب عليه بسهولة... وكنت انا قبلها بيوم واحد باديهم الدرس!!».

سمع الحديث من قبل عشر مرات وهو يذكر المفتش والسؤال لكنه لا يعرف كيف أجاب عليه... يخرج عم إسكندر إلى الرصيف ويصيح على البوفيه أن يرسلوا قهوة لحضرة الناظر، لكن الناظر يقسم أنه لا يريد قهوة، يطلب شايًا دون سكر... ينثني في حديثه إلى الصحة لكنه لا يترك الحديث عن المدرسة... هل ينجح ولا يعود إليها أبدًا؟!

«ما هو لو نجح الولد العفريت ده حايبقى أصغر تلميذ في المنطقة كلها... ويمكن في القطر كله وينشروا صورته في الجرايد!».

ثم يلتفت إليه ويدقق نظراته في عينيه...

«أنا مش كنت باديك دروس خصوصية ببلاش يا ولد؟!».

الإجابة عن السؤال بالنفي فهل يستطيع أن يقول لا؟! لو فعلها لقامت الدنيا وقعدت وقالوا عنه: «**قليل الأدب، بيكذب الناظر بتاعه!**». يهز رأسه موافقًا ويقول: نعم...

وينتابه الغثيان... يجلس الناظر ويمدد ساقيه ويستريح عم مينا في جلسته وتنقر آلات التلغراف نقرات متقطعة ثم يعود الصمت وتهب من النافذة الخلفية نسمة ساخنة، ويصبح للجو طعم مهيب... يسري الألم في ساقيه فيحرك قدميه ولا يلحظه أحد، يخطو خطوة ويتحدث عم إسكندر، ويأتي الشاي فيتسلل من المكتب دون أن يعترض طريقه مخلوق، يعبر الكابينة الصغيرة ذات التليفون المعلق ويستقبل باب المكتب وضوء الشمس الباهر بعينين مفتوحتين وقلب ينبض بالراحة، يتنفس ملء صدره وهو يرى الرصيف خاليًا والمحطة ساكنة... ينظر إلى الساعة المعلقة عند مكتب المعاون وكانت الثالثة والنصف، يخطو خطوة أخيره بعيدًا عن باب المكتب ثم يطلق لساقيه العنان...

إلى أين يذهب؟!

يتوقف عن العدو في منتصف الرصيف ويجول ببصره في المكان... تقع عيناه على عربة القطار الخالية فيتمنى لو جاءت «أوظه»، ليس أحب إلى قلبه الآن من التدخين ونفث الدخان من فمه بصوت مسموع مثلما يفعل أبوه... العربة الخالية والديوان المغلق والشباك المكسور وما زالت هناك بقية من أعقاب سجاير اقتصدها لوقت الحاجة، ولو رأته أمه وهو يجمع أعقاب سجاير أبيه لقتلته ضربًا... ولكن، هل يدخن بدون «أوظه»؟!

لا يبهره شيء في الدنيا قدر منظر الدخان المنبعث من الفم أثناء الكلام، سجائر أبيه تحرق حلقه لكن سجائر الإنجليز ترطب فمه، يوم أخرج الدخان من أنفه لأول مرة راح يسعل حتى شعر بصدره يتمزق وجرح حلقه وبصق دمًا وسخسخت «أوظه» من الضحك عليه... الأرض تهتز تحت قدميه هزات ألفها واعتادها، والقطار السريع يبدو في الأفق كالوحش مع اقتراب شبحه الأسود ودخانه الكثيف الذي انتشر في الأفق والحقول، ينحني ليلتقط قطعة حجر ليقذف القطار بها، لكنه يتذكر ما حدث فتسقط قطعة الحجر من يده، يداهم القطار المحطة فيرتج كل شيء ويهتز، تتابع عيناه عربة الطعام الصفراء التي من أجلها حدث ما حدث... يومها لم يره أحد في الدنيا لكن أباه جاء كالمجنون يرتعد بالغضب وهو يسأل:

«إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

فكيف عرف أبوه أنه الفاعل؟!

وإذا أراد شيئًا من أمه وأبيه فلابد أن يدوخ الدوخات السبع، وإذا أرادت «أوظه» قرشًا أو شيئًا صاحت من الشارع فيجاب طلبها دون سؤال أو أخذ أو رد... فلماذا هو؟! ولولا حامد لما حدث يومها ما حدث، ولو لم تستجب أم حامد لصراخ ابنها لما ذهب إلى المحطة... فهل يجرؤ على أن ينادي أمه مثلما فعل حامد؟!

«ماما... إنتي يا ست ماما!».

أطلت أم حامد من النافذة بجسدها السمين ووجهها المكتنز وكانت تبتسم...

«عاوز إيه يا ضنايا؟».

«احدفي لي قرش».

«حاتعمل بيه إيه؟!».

«وانتي مالك انتي! حاركب بسكليت... ياالله احدفي القرش باقول لك».

ولو فعل هو هذا لحانت ساعته دون شك، لكن حامدًا أخذ القرش وتركه ليستأجر دراجة يعزف بأجراسها من حوله ولا يعطيه لفة ويصيح فيه أمام العيال:

«ما تروح لامك وتقول لها تديك قرش..».

ذات مرة قالت له أمه إن حامدًا وحيد أبوه فلماذا لم يخلقه الله وحيدًا هو الآخر؟ يومها ذهب لأمه مؤدبًا وقال لها: **«من فضلك يا ماما»** وقبّلها لكنها رفضت أن تعطيه قرشًا رغم أن كيس نقودها كان مليئًا بالقروش والشلنات والبرايز!

«والنبي يا ماما».

«روح لابوك».

«الله يخليكي يا ماما، نفسي أركب بسكليت».

ودقت يومها على صدرها وصاحت في وجهه وهي تقزقز اللب:

«بسكليت إيه يا ولد؟ اقعد ذاكر تنفع نفسك... بالك انت حا تفلح؟!».

أعطته ظهرها فانتابه الغيظ... تلفت حوله فرأى كيس النقود فوق السرير ففكر أن يسرق منه قرشًا.. سرت في جسده رعدة وفكر أن

يسرق جنيهًا كاملًا، الدولاب المغلق والرف العلوي والورق الأخضر وهو يستطيع أن يأخذ ما يريد دون أن يراه أحد، ولو قطعوه فلن يعترف... وسيغفر له الله في الآخرة، تقدم من الكيس فدق قلبه وغزاه الرعب، فاستغفر الله وغادر البيت... عند الباب كان حامد يدور بالدراجة ويعزف بأجراسها ويلاحقه بصوته:

«أمك مارضيتش تديك قرش يا وله؟!».

وإذا كان قد خزى الشيطان ولم يسرق فلابد أن الله سيساعده، أطلق لساقيه العنان نحو المحطة ودخل المكتب مندفعًا يتساقط العرق من وجهه... عبر الكابينة إلى الداخل فالتفت إليه أبوه متسائلًا... عم مينا وعم إسكندر وعم أبو فرخة أيضًا وفي المكتب زوار وعلى الباب عم سعداوي..

«إيه اللي جابك يا سيدنا الافندي؟».

تلكأ لسانه قليلًا فلاحقه صوت أبيه متسائلًا: **«نعم؟!».**

«من فضل حضرتك يا بابا... أصل أنا وحامد... يعني حامد أصل...».

وابتسم الجميع إلا أبوه فتوقف عن الكلام...

«ما لك يا سيدنا الافندي... ما تنطق ما له سي حامد كمان؟!».

ضحك أبو حامد ضحكة قصيرة وقال بصوت عال:

«لازم عاوز يركب بسكليت».

التفت أبوه إلى عم أبو فرخة فامتدت ضحكة الرجل وازداد وجه أبيه غضبًا...

«مـا لك يا ثابت زعلان كده؟ الولد فضل يعيط أول امبارح ساعتين علشان عاوز يركب بسكليت... أنا مش فاهم إيه حكاية البسكليت دي معاهم؟».

البسمة الساحرة والعينان الحمراوان... ثم:

«واديته القرش اياك؟!».

هل يخاف أبو حامد من أبيه هو الآخر؟!

«أمه هيه اللي اديتهوله يا عم... حاكم النسوان عقلهم صغير!».

«أمـه ده إيـه يا بو فرخة... بقـى أمه هيه اللي عقلهـا صغير واللا انت اللي مش عارف تربي ابنك؟!».

«يا راجل دول عيال».

«عيال؟!».

«أمـال رجاله يـا ثابت... انـت اتجننـت... إذا ماتمتعـوش النهارده حايتمتعوا إمتى؟».

«والله يابو فرخة ما انت جايبها لبر!».

«يا ثابت دول عيال!».

وانفجر الغضب عاصفًا بالمكتب، وحملق الجميع:

«ابنك انت اللي عيل... أنا معنديش عيال، مافيش كلمة ولد تمشـي علي!».

إنه لم يسرق، فلماذا لا يساعده الله!

«امشي غور يا سيدنا الافندي».

ولم يخطئ، وقال من فضلك...

«امشي غور من هنا بلاش كلام فارغ.... من هنا للبيت وتستناني لما اجيلك واشوف حكاية البسكليت دي إيه!».

انتفض بالخوف وتراجع إلى الخلف فاصطدمت قدمه بأرض الكابينة العالية، فوقع...

ليست الوقعة هي التي أبكته وإنما الضحكات، وعندما نهض كان الجميع يضحكون وكانوا يلومون أباه... لكن الغضب لم ينته...

«قال أمه قال... والنبي ابنك ما هو فالح يابو فرخة!».

«يا راجل!».

«ولما يسقط زي السنة اللي فاتت حاتنفعه البسكليت؟!».

وصاح عم مينا:

«والمسيح عندك حق يا ثابت!».

«حاينفعه الدلع؟!».

«واقف كده ليه يا سيدنا الافندي؟!».

«ما هو يا بابا... ...».

عم الصمت وزمجر الصوت الباتر:

«قلت لك غور من هنا».

«والنبي يا بابا...».

«قلت لك اتفضل غور...».

حامد يسرق القروش من أمه ويشتري بها ما يشاء...

«أصل يا بابا...».

حامد يبكي فينال حقه أما هو... لابد أن...

«إنت لسه واقف يا ابن الكلب!».

قفزة واحدة وهوى الكف على صدغه وطار جسده في الهواء وارتطم بالحائط، الأصوات والصياح والعتاب والتهديد والكلام والدمع المنهمر في غزارة... هواء الرصيف وصدى الأمر الباتر ولو مر الآن قطار لألقى بنفسه تحت عجلاته، لحقه عم إسكندر وأعطاه قرشًا فرفض فلم يكن يريد قرشًا ولا يرغب في ركوب الدراجة...

زال ألم الصفعة وبقيت سخونتها تلهب خده... لكن الدمع لا يكف... لماذا لا تقوم القيامة ولماذا لا يموت الآن، ولماذا لا يقف الله بجواره؟!

إلى أين يذهب؟!

إذا مر القطار السريع سيلقي بنفسه تحت عجلاته وسيرفض دخول الجنة والحديث مع الله والأنبياء، تهتز الأرض تحت قدميه فلماذا يحقق الله هذا الخاطر بالذات دون غيره؟! يبدو القطار في الأفق كالغول بدخانه الأسود وصفيره الحاد... هل يقرأ الفاتحة ويقول لا إله الله... أم يموت غاضبًا؟ هدير القطار يدخل رأسه وصوت عم فرج الشيال يرتل فوق الرصيف:

«إوعى رجلك... إوعى رجلك... الإكسبريس!».

بعيدًا خلف لافتة المحطة، سيغمض عينيه ويفعلها، سيموت الآن إذا أراد... يزداد اهتزاز الرصيف وتلمح عيناه قطعة حجر ويكف الدمع ويصبح القطار جسدًا مهولًا يصيبه بالرعب، فلماذا يموت ويذهب إلى الآخرة عند الله الذي لا يسمع دعاءه؟! لا يغيظه في القطار السريع سوى عربة الأكل الصفراء، دخلها مرة ليشرب وكان آتيًا من البندر فطرده خادم أسمر رغم أنه كان مؤدبًا... أخبر أباه بالأمر فنهره وسبه وقال له إنه سيفضحه حتى في القطارات... ماذا لو مات أبوه؟ ماذا لو صرخ بأعلى صوته:

«يا رب يموت... يا رب يموت..».

ومرت أمامه العربة الصفراء فقذفها بالحجر وسمع صوت الزجاج يتهشم، واختفى القطار فاستدار نحو رصيف البضائع وسلك إلى البيت طريق السوق الطويل حتى لا يراه حامد... وعندما أمطرت الدنيا ترك رأسه للمطر يغسله، الطين وبرك المياه والطرقات الزلقة وسيسقط حامد من فوق الدراجة... تذكر القطار بعربته الصفراء فدهمه الخوف لثوان، وماذا لو اكتشفوا أنه الفاعل؟! عندما اقترب من البيت نسي كل شيء، كانت «أوظه» تقف تحت المطر وقد ابتل كل جسدها، وعند الناصية كان «بعضشي» يقف وسط العيال وهو يغني: «يا مطرة رخي رخي»... وإذا كان أبوه غائبًا عن البيت فهو حر يفعل ما يشاء، وإذا نادته أمه من الشباك أن يدخل يعصي أمرها دون خوف، وإذا كان قد حُرِمَ من ركوب الدراجة فلماذا لا يلعب، ويخوض في الطين والمياه، ولماذا لا يغني مع العيال، ويصيح بأعلى صوته ويستقبل المطر بوجهه، ويضحك، وتبتل ملابسه، وتصل المياه إلى لحمه؟ وإذا هددته أمه

فالعقاب واحد، وإذا مضت ساعة فلتمض ساعة أخرى، لكنه إذا رأى أباه آتيًا من ناحية السوق وعلى غير موعد فلا بد أن يخاف ويتوجس شرًّا... يستطيع أن يرى العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين فيسرع إلى البيت، ويسرع إلى الدولاب، ويسرع بتغيير ملابسه، ويسرع إلى كتاب، غير أن الصوت الهائج كان أسرع إليه:

«**إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!**».

الرعب والخوف والنظرة المهولة فلا مفر حتى ولو لم يكن هو...

وإذا لم يكن الله هو الذي أخبر أباه فمن الفاعل وقد كان الرصيف خاليًا؟

«**إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!**».

ولا تجدي هرولة أمه وتوسلاتها، ولن يجدي دفاعه مهما قال...

فلماذا ينطق؟!

العصا السميكة والحبال والزمجرة الهادرة وبكاء إخوته وعيونهم وصوت أمه لا يكف عن السؤال:

«**بس حصل إيه ياأفندي؟ يا خويا الشر بره وبعيد... مش تقول حصل إيه؟... ده في الشارع قدام عيني من الصبح... يوه ياأفندي صلي على النبي ياخويا... ثفندي!!**».

لا يهمه الضرب أو الذبح... ولكن كيف علم أبوه أنه الفاعل؟!

يسأله ويسأله ولو قطعه إربًا فلن يعترف...

يجذبه من شعره فيستسلم تمامًا دون مقاومة... اشتد البرد في الدنيا وسرى إلى أطرافه وأنفه فراح يرتجف ثم لم يعد يشعر بشيء، جذبه أبوه من شعره إلى غرفة النوم وألقى به إلى الأرض وانحنى يقيد قدميه في السرير فلم يفتح فمه ولم يقاوم... ما الفائدة؟

«إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

كان يرتعد وعندما رفع قدميه إلى أعلى أوجعت الأرض رأسه فزم شفتيه وأطبق فمه فرأى حذاء أبيه الملطخ بالطين أمام وجهه... وعندما زمجر الصوت الغاضب أطل عليه الوجه من أعلى شديد الاحمرار...

«إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

ارتفعت العصا في الهواء... ثم هوت فوق قدميه فأحس نارًا تندلع من ساقيه إلى يافوخه فمنع نفسه من الصراخ حتى لا يسمعه العيال في الشارع، أدار وجهه إلى الناحية الأخرى فطالعته عيون إخوته المطلة عليه من خلف الباب في ذعر... ضربة وراء ضربة وصوت أمه يلاحق الضربات دون توقف...

«ثفندي... كفايه كده ياخويا... ثفندي... خلاص حرَّم والنبي، ثفندي... هو بس عمل إيه؟ ثفندي... الولاد بيعيطوا على أخوهم».

«إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

راح يمرغ رأسه في الأرض يمنة ويسرة مع كل ضربة... لم يصرخ لكن دموعه بدأت تنسال من عينيه، ولذا أصبح الضرب لا يوجع قدميه، ولكن... كيف علم أبوه أنه الفاعل؟!.

«رد يا ابن الكلب ياوش المصايب... إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

علا نشيج سامية، وازدادت عينا سهام اتساعًا، وعبر صوت الضربات شارعهم إلى بيت النواجي، وبكت أمه عندما جاء الصوت من المنزل المقابل...

«ده باين عليه ثابت افندي ياختي بيضرب ابنه... ياسي ثابت يا ثابت افندي».

وتنوح أمه:

«وحياة النبي على قلبك كفايه كده ياثفندي... الولد حايسورق منك!».

«إنت اللي حدفت القطر بالطوب؟!».

ولو استطاع أن يوقف انهمار الدمع لأصبح رجلًا لا يهاب شيئًا... ولو ذبحه أبوه فلن يفتح فمه بآهة أو صرخة... توقفت الضربات ففتح عينيه وكانتا ممتلئتين بالدمع، نظر إلى أبيه فوجده يلهث وأنفاسه تتردد وصدره يعلو ويهبط، وكلماته متقطعة:

«أنا، أنا حاعر...ف... أو.... ريك...».

تقدمت أمه لتفك وثاقه فجاءتها الصرخة المزمجرة:

«سيبيه زي ما هو».

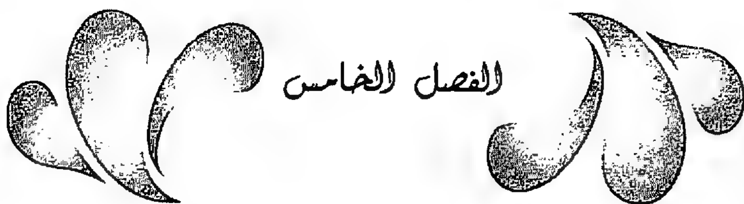
وتعالت الأصوات من الشارع ترجو وتلح وتستعطف... لكنه لا يريد عفوًا... وعندما بدأ يزحف على يديه وركبتيه نحو الغرفة، كان الأنين قد بدأ يصدر عنه بالرغم منه، اخترق سيقان إخوته وتسلق السرير وبدأ الألم يقطع قدميه فدفن وجهه في الوسادة وترك لدمعه العنان... عبر الباب المفتوح بين الغرفتين وكانت الأصوات تصل إليه واضحة كل الوضوح...

«إيه اللي حصل ياثفندي؟!».

لـم يكن فـي حاجة إلى معرفة ما حدث، الطوبـة المقذوفة والزجاج المهشـم فـي عربـة الطعـام ويـد الباشـا المجروحـة... والإشـارات التليفونيـة... والبوليـس... والتحقيـق... وسـمع أبوه الخبـر وانقلبت المحطة رأسًـا على عقب... سـاد الصمت لثوان وتسـاءلت أمه وجاءه حديثهما مطموس المعالم خافتًا، لم يكن يعنيه ما كانت تقول، ولـم يعد يعنيه انتشار الألـم وازدياده... كيف علم أبوه أنه الفاعل؟!

ثم علا الصوت المزمجر في الغرفة المجاورة:

«يـا وليـه حظي عقلك في دماغك... هو فيه حـد غيره في البلد كلها يعمل كده؟!».



الفصل الخامس

يبتعد القطار السريع ويعبر الكوبري ثم يذوب في الأفق البعيد منثنيًا مع شريط السكة الحديد اللامع تحت وهج الشمس... يعود السكون من جديد فيشل المحطة بأسرها، تحوم حوله ذبابة تطن طنينًا متصلًا... نجح أم لم ينجح فقد تقرر مصيره في اللوح المحفوظ فما فائدة العذاب والانتظار؟! متى يركب القطار ويذهب إلى حيث يشاء دون أن يمنعه أحد؟ يحس بلهب الشمس يكوي رأسه فيقرر الذهاب إلى حيث بيته في العربة الخالية: هناك... في وسط العربة المقعدان المخلوعان والسرير الذي صنعه مع «أوظه».

على الرف العالي كل لوازم البيت؛ وفي أحد الأركان صندوق السجائر المصنوعة من أعقاب أبيه؛ ولو علمت «أوظه» أنه ذهب وحده لخاصمته وتزوجت شخصًا آخر... يقفز الرصيف ويعبر القضبان ثم يعتلي الرصيف الآخر... لكنه يتمهل قبل أن ينطلق... فماذا لو تحدث عم كامل من البندر ونادى عليه عم سعداوي ولم يجده؟

لماذا لا يستطيع أن يفعل ما يشاء دون خوف من شيء؟ لماذا لم يخلقه الله ابن ملك... أو ابن باشا... أو ابن عم علي سراج حتى لا يحاسبه أحد؟ يوم وقف القطار السريع على المحطة تحدثت البلدة بما وقع، ومحجوب بك صديق والده، الأكف المصفقة...

والخناجر المدوية.. والفيلا الفاخرة.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها البك الكبير الذي ينتخبه الناس ويحملونه على الأعناق ويهتفون باسمه في الشوارع والحواري... طالما سمع من أبيه قصة لقائه مع الوزير وحديثه معه... كم يعشق السماع لحكايات أبيه الباهرة!

ولو أصبح وزيرًا ذات يوم مثلما حدث لمحجوب بك... فلسوف يأتي في القطار السريع ويركب في العربة الصفراء... ويقف على المحطة أمام الجميع... سيصافح حامدًا حتى ولو قال له: حقك عليَّ، وقبل رأسه!

تثقل خطواته في منتصف الرصيف الآخر وكان في مواجهة سلم المحطة، يرفع رأسه إلى السماء ولم تكن زرقاء كما تعلم في المدرسة... يراها شديدة البياض فيداخله العجب ويوقن أن القيامة لابد قائمة... في وسطها قرص الشمس شديد اللهب، يتذكر جهنم فترتعد مفاصله، وينتفض على صوت عم سعداوي الذي يصعد سلم المحطة حاملًا دراجته والعرق يتصبب من جبهته...

«إيه اللي موقفك في الشمس كده يا ابني؟!».

يركل الهواء بقدمه ويستدير نحو الكوبري... فماذا يقول؟

«هو كلكم معجونين بمية عفاريت؟ يا ابني شوف لك حتة ضل واقعد فيها!».

سيمضي عم سعداوي مزمجرًا إن لم يرد عليه، يضع يديه في جيبي بنطلونه ويلعن الحكومة في سره لأنها لا تجبر السماء على احترام أبناء

الموظفين مثلما يحترمون آباءهم.. يتحرك عم سعداوي ثم يقفز فوق الدراجة وهو يتمتم:

«إيه العبارة؟ هو انت نجحت... واللا الحكاية مش نافعة؟».

يبصق خلفه ويدعو عليه بالموت ويظل يرقبه حتى يقترب من المكتب ويختفي فيه، حرارة الشمس تزداد... والجو من حوله يختنق بصمت آسن فيتمنى لو جاءت «أوظه» لتأخذه إلى البر الثاني... بالأمس شاهدته أخته سهام وهو يلعب معها فصاحت في وجهه منذرة:

«حاقول لبابا».

وصرخ أبوه في المساء مزمجرًا:

«بتلعب مع البنات يا سيدنا الافندي؟ ياريتك طلعت بنت».

لماذا يحب الأشياء التي يمنعونه عنها؟ ولماذا يكره ما يحضونه عليه؟!

صداقته لحامد دونها رقبته، هو لا يطيقه ولا يحب صوته الخشن ورأسه الكبير ووجهه الذي يشبه المربع الأزرق فوق سبورة الفصل... وعندما خلعت «أوظه» ملابسها أمامه لأول مرة أحس بالذعر غير أن السعاد طغت عليه وملأته باللذة، ولو كان يملك وقتها سيجارة إنجليزي لدخنها كلها أمام كل الناس... بجوار سلم المحطة شجرة تساقطت كل أوراقها... تحتها زير فوقه كوز، بجوار الزير قطعة حجر ناعمة الملمس... يعود فيقفز من رصيف إلى رصيف ويعبر القضبان ويملأ الكوز بالمياه ويشرب، ثم يجلس على حافة الحجر تحت الشجرة

ويرقب الطريق الممتد من المحطة بحذاء النيل وقصره، وصالون فاروق إلى حيث البلد كلها...

يوم وقف القطار السريع وهبط منه محجوب بك كانت المحطة تشغي بالناس، رجال من البلدة وفلاحون يرتدون ملابس ممزقة ويمسكون في أيديهم الشماريخ ويهتفون ملء حناجرهم بحياة محجوب بك... وكانت لهم رائحة عطنة أصابته بالغثيان، ظل يزاحم الرجال وينفلت من بين الأجساد ويسب آباءهم بصوت عال حتى وصل إلى المكتب وشاهد أباه وسط زملائه وهو يقول مشيرًا إلى الزحام فوق الرصيف:

«كل ده علشان غدوة.. اسفخص على ده شعب!».

وصرخ بجواره رجل نحيل بدت رقبته نحيفة كفرع يابس:

«يحيا العدل!».

وهبط محجوب بك من القطار بوجهه الأبيض وبسمته الرائعة ورآه يتجه إلى المكتب ثم يصافح الرجال وأباه الذي ابتسم...

وذات يوم صحا أبوه من النوم ساعة العصر وكان يتمتم وهو يرتدي ملابسه... ثم صاح في أمه ببسمة ساخرة:

«يعني حايعوزني ليه يا ست هانم؟ عاشقني في الضلمة؟ صاحبي؟ كل الحكاية إن الانتخابات قربت... فهمتي؟».

وعندما عاد أبوه في المساء راحَ يحكي لأمه عن أصناف الطعام التي مدت أمام الرجال في الڤيلا... أقسم بعزة الله وجلاله أن المائدة كانت تحوي خروفين وعددًا لا يحصى من الدجاج والحمام، لم يبق

منها شيء، وعندما أعدت أمه طعام العشاء والتفوا حول المائدة في الصالة أغلق البلكونة حتى لا يسمع الجيران حديثه، وكان أبوه أول الجالسين إلى الطعام... في تلك الليلة صفت العينان وانفرجت ثنية اللحم فيما بين الحاجبين واستراحت ملامح الوجه الصارم فوق ابتسامته راضية، ورقّ الصوت وحكى أبوه عن الڤيلا... والرجال... والباشا... والوزارة... وجلالة الملك... وبين الحين والحين كان الصوت يحتد وتخبط الأصبع فوق المائدة منذرة:

«إنتي بتقولي إيه؟ هو حايشترينا بعشوة؟ راجل مجنون... كلهم كده!».

وعندما غسل أبوه يديه بعد العشاء تجشأ بصوت عال وابتسم وهو يقول لأمه:

«وحياة عزة الله الواحد ياكلها بملح ولا يبعش نفسه!».

ليلتها كان يحملق في وجه أبيه غير فاهم لشيء، وأحبه ليلتها أكثر من حبه لله نفسه، أحبه حتى توقفت أنفاسه وظل ساكنًا ينظر إلى الفم المدخن والعينين الباسمتين... فأصابته الدهشة لأن الله لم يخلق أباه نبيًّا... وظل أبوه يحكي ويحكي... والليل يوغل فلا يأمره بالنوم، وفي بعض الأحيان كان يحدثه:

«قلت له: يا سعادة البيه أنا ما اتعشاش برة بيتي وبعيد عن ولادي أبدًا!».

لكن عم «أبو فرخة» كان يأكل بنهم، لهف فخذ خروف كاملًا... وحمل الرجال الدجاج في جيوبهم ولفوه في أوراق الجرائد دون

خجل... النجف والسجاد والأبهة والفيلا الساحرة والمقاعد والحديقة التي كالجنة...

«قلت له أبدًا... أنا حانتخبك وطول عمري باعمل كده... هي المسألة مسألة أكل يا وليه؟!».

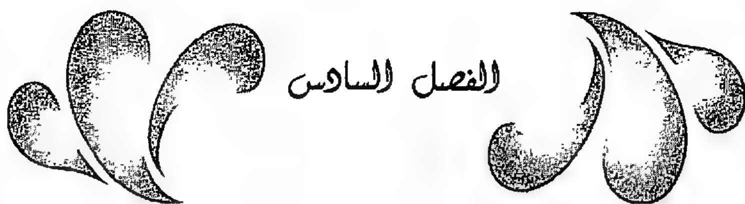
أحلام النوم تختلط بكلام أبيه وقد شبع دون أن يأكل كفايته وعندما يكبر سوف ينتخب محجوب بك... لكنه لن يتعشى عنده أبدًا... رأسه يثقل وصوت أبيه يسري من أذنيه إلى عينيه حنونًا، تسقط جفونه فيحدثه الصوت في هدوء:

«ما تقوم يا ابني تنام، هوه ذنب عليك!».

هل كان حلمًا أم علمًا؟ الخطوات السابحة ورائحة الدخان الحبيبة واليد الممدودة وشفتاه تلتصقان بها في وجد أفعم نفسه بالسعادة... يخطو خطوة ثم يستيقظ على صوت أبيه الهادئ وهو يحدثه:

«اسمع يا سيدنا الافندي... أنا حاكلها بملح وأربيكم أحسن تربية، اسمعني كويس وحط الكلام ده في دماغك... اوع تبيع نفسك في يوم لمخلوق مهما كان... فاهم... كُلْها بملح ونام من غير عشا كمان ولا تبيعشي نفسك أبدًا».

رغم أنه نام ليلتها ملء جفونه، إلا أنه كلما تذكر تلك الليلة تساءل: كيف يبيع الإنسان نفسه؟ وهل من الممكن أن يبيع الإنسان نفسه؟!» وإذا فعل هذا فمن يقبض الثمن؟ وما معنى ما قاله أبوه؟



الفصل السادس

يطل الرأس المغطى بالمنديل والطربوش، ينادي عم سعداوي عليه فيتغاضى عنه ولا يرد... يعيد الرجل نداءه بصوت أعلى فلابد أن شيئًا قد حدث وأن زوج عمته قد اتصل، ولابد أنهم جميعًا قد عرفوا الآن نتيجته... فماذا يفعل لو لم يكن ناجحًا؟!

«يا ابني قوم من الشمس وتعالى هنا في المكتب... هو انت إيه؟!».

يصعد عم فرج الشيال سلم المحطة وهو يتمايل في مشيته إلى اليمين مرة... وإلى اليسار مرة ويتمايل معه ظهره المقوس الذي قال عنه «بعضشي» إنه خِلْقة ربنا؛ وقال أبوه إنه سنم نبت على ظهر الرجل لكثرة ما حمل فوقه من أحمال وحقائب... عين عمياء وأنف متورم وساقان مقوستان وخطوات ثقيلة يملأ صوت دبيبها على الرصيف سكون المحطة، وهو يحب عم فرج لكنه لا يطيق رائحته ولا منظر عينه، ومازال عم سعداوي يتحدث، يسمع منه كلمة ولا يسمع الأخرى:

«... ... طب وافرض يعني إن جوز عمتك ما اتكلمش إلا بعد ساعة، حاتفضل قاعد في الشمس لإمتى؟ أعوذ بالله منكم... يا ابني رد عليَّ، هوه كلكم عجينة واحده؟!».

ويمر به عم فرج الشيال ويرفع له يده بالتحية دون أن ينظر إليه ويتمتم: «سلام عليكم».

وأكثـر ما يحبه في عم فرج أنه يلقي عليه السـلام كلما رآه كما يفعل مـع الرجـال ذوي الشـوارب... يرد عليه السـلام بصوت لا يسـمع... ويختفـي عم سـعداوي داخـل المكتب فيوقن هـو أن شـيئًا لم يحدث فيطمئـن قلبـه، تداخله السـكينة فيتنفس ملء صدره وينهـض إلى الزير ويملأ كوزًا بالمياه ثم يشرب ويترك القطرات تتساقط على عنقه وتتسلل إلى صدره... ولو ظهرت النتيجة وكان ناجحًا فلسوف يستحم في النيل ويغطس في المياه، ولسـوف يعطيه أبوه قرشًـا ويسـتأجر دراجة ويأخذ «أوظه» إلى البر الثاني...

يعود إلى جلسـته ويسند رأسه إلى جذع الشجرة ويمدد ساقيه ويغلق عينيه، سـيأخذ «أوظه» معه، سـيعبران الكوبري ويلتصق ظهرها بصدره طـوال الطريق، لـن يغادر الدراجة إلا في آخر ثانية، سـيخترقان الحقول ويذهبان إلى الكوبري الجديد حيث معسكرات الإنجليز والهنود السيخ والأفريكان السـود... وقد يراه تشـارلي وينادي عليه كما اعتاد أن يفعل كلما رآه وهو جالس في البار أمام بيت طنط جانيت، لكنه لن يرد عليه...

يبـدو الشـاطئ الآخـر من خـلال الكوبـري بنخيله وحقولـه وخيام الإنجليـز وسـياراتهم، وفـي وقـت القيالـة يسـمع النـاس صيحاتهـم وضحكاتهـم آتيـة وهم يسـتحمون في مياه النهـر... يوم جـاءوا كانت الدنيـا تلتهب بحرارة الشـمس... وقـال أبوه: «**ده من غضـب ربنا على العالم!**».

كان ناجحًـا في العام الماضـي وكان يلعب في المنتزه عندما سـمع الصيحة المرتعبة خارج السور:

«**الإنجليز... الإنجليز نزلوا البلد... الإنجليز في البر التاني!**».

أصابـه الفـزع كما أصـاب العيال والرجـال واختفت النسـوة داخل البيـوت... وحرم البنات من مغادرة المنازل، ترك المنتزه مهرولًا وكان يرتعد... وراح يقرأ آية الكرسي مرات، في السوق كان الناس يتحدثون عما يفعله الإنجليز في القاهرة وما فعلوه ببنات الإسكندرية ونسائها... وكان عم ياقوت صديق أبيه يضحك في الشارع صائحًا بعلو صوته:

«مش قلـت لكم، حايفضلوا يضربوا فيهم لما يطفحوهم الدم! كلها كام يوم والحاج محمد يوصل ويخلصنا».

وهو يعلم أن هتلر أسلم... وسمى نفسه الحاج محمد، لكنه لا يحبه فشـاربه يشـبه شـارب فكري أفندي مدرس الحسـاب... انقلبت البلدة رأسًـا على عقب... وازدحمت الشوارع بالرجال وأغلقت كل الأبواب وحرم على النسـاء النظر من النوافذ... ثم هدأ كل شيء بعد ساعة وبدأ الناس يزحفون إلى الكوبري ومنه إلى البر الثاني... وهمس «بعضشي» في أذنه:

«تيجي نتفرج يا ويكا؟».

طول الكوبري كان طابور الرجال والعيال والصبيان الذين يحملون البيض والبطاطس والطماطم يمتد من الشـاطئ إلى الشـاطئ، السيقان العاريـة... والحجـور الممتلئـة... والأقـدام الحافيـة... والزحـام... والحـر... والجلاليـب الممزقة، وهـو الوحيد بين النـاس الذي يرتدي البنطلـون والقميـص ولا يحمل شـيئًا... أغرقه الخجـل بالعرق عندما صرخ في وجهه صبي ملأ حجره بالبطاطس:

«حتى الافندية جايين؟! إيه البلاوي دي؟!».

بجواره كان «بعضشي» سعيدًا يتصدى للصبي صائحًا:

«وانت مالك انت... هو الكوبري بتاعكم؟!».

وعندما جرى الصبي بحمله تقافز «بعضشي» في سعادة والتفت نحوه صائحًا:

«جيت ون سيجاريت يا جوني!».

وابتسم له وقال إن الإنجليز لن يفهموا هذا الكلام، حاول أن يعلمها له صحيحة... لكن «بعضشي» ضحك منه وصوب له سبابته صائحًا:

«ويلمان!!».

رفع يديه مستسلمًا... لكنه انقض بسرعة ليهوي على وجه «بعضشي» بلكمة طاشت في الهواء، وضحك «بعضشي» وسقط على الأرض وتمرغ فوقها ثم نهض ولحق به.

وعندما وصلا إلى البر الثاني انحرفا إلى اليسار وعبرا المزارع وسط سحابة التراب التي أثارتها أقدام الناس الملهوفة... طالعته على البعد عشرات السيارات وهي تزأر وتخوض في الطين والحقول ووسط الزرع... صعد فوق كومة سباخ فارتجف وشهق وهو يرى الحقول وقد انتشرت فيها الخيام والسيارات ورأى على البعد دبابة... وكان الرجال الآتون من البلدة يملئون الطريق بصياحهم وقد امتلأت أقفاصهم بالبيض والطماطم... وكان الفلاحون يجرون هنا وهناك وهم يصرخون، ورأى رجلًا منهم يلطم خديه صائحًا:

«الزرع يا ولاد... يا حكومة... يا غفير... الزرع يا ولاد!».

ضحك «بعضشي»... فضحك معه وأخذا يقلدان الرجل ويصرخان معًا... عن يمين الطريق رأى رجلًا يصحب جاموسته وهو يهرول، وكانت زوجته تتعثر من خلفه وهي تصرخ من حلق مبحوح:

«جاي... يا غفير ياهووووه!!».

تذكر ساعتها أم زغلول التي تندب في المآتم فانقبض قلبه، وعند حافة الطريق تجمع الفلاحون وفي أيديهم شماريخ طويلة... ثم دوت في الهواء طلقات رصاص فر لها الناس، وازداد ذعره... جلس فوق كوم السباخ... وراح يرقب كل شيء بعين مفتوحة... مرت بجواره امرأة تلطم خديها... ثم تنحني إلى الأرض لتغرف من الطين إلى وجهها وعنقها وصدرها، وكانت عيناها حمراوين لكنها لم تدمع، انتابه الحزن وخنقته الدموع رغمًا عنه، هبط كوم السباخ... واقترب من المرأة مواسيًا:

«ما لك يا خالة... حد مات لك؟!».

فهوت المرأة على الأرض لتقبل قدميه... فانتفض مبتعدًا، تطلعت إليه بوجهها المغطى بالطين... وكانت تبكي بلا دموع:

«الزرع يا اخويا... الزرع يا ضنايا... والحمار!».

حاول الكلام فلم يستطع، وجذبه «بعضشي» من ذراعه وهو يهمس في أذنه:

«احنا ما لنا يا ويكا... دول فلاحين!».

راح يعدو مع صديقه نحو المعسكرات، وهدرت على الطريق قافلة من السيارات العالية كانت تزمجر بأصوات أصمت أذنيه وامتلأ الهواء

بغبـار كثيف منعه مـن التنفس، وتذكـر أباه وعم ياقوت... فتسـاءل في حيرة:

كيف يهزم هتلر كل هذه الأشياء؟!

يومها ظل يلعب ويتفرج حتى مالت الشمس نحو الحقول، وإذا كان هـذا هو الغرب فأمامه الشـرق... وهنا الشـمال... وهنا الجنوب حيث ترقد البلدة وسـط لحاف الظلام الذي راح يغطيها على الشـاطئ الآخر للنهر... بدت الحقول على اليمين واليسار بالخيام والمدافع والدبابات والسـيارات، وكان الجنـود يحملـون علـى أكتافهـم بنـادق. قـال لـه «بعضشـي» إنهـا محشـوة، وراح البعـض منهـم يفتح زجاجـات البيرة ويشرب منها... ثم يطوح بها إلى العيال الواقفين على الطريق، وقد أتاه «بعضشي» بواحدة منها بعد أن تمزق جلبابه وهو يزاحم العيال ويتعارك معهم، وعندما أعطاه الزجاجة هز كتفيه وقال:

«لا يا خويا... إحنا عندنا كبايات زجاج».

أحـس فجـأة وكأن القيامـة لابـد أن تقـوم، وبـدا له كل شـيء غريبًا ولذيـذًا، جذبـه الزحام فأخذ يـروح ويجيء ويرقـب الجنود وعجلات السـيارات... وجنازير الدبابات، رآه هندي فرفع له يده بالتحية باسـمًا، كان يضع على رأسـه عمامة... وقد أطلق لحيته ومشطها وشدها بخيط حول وجهه، طالما رآهم في القطارات وتحدث إليهم... لكنه لـم يرهـم علـى الأرض أبـدًا... وصاح به جندي أحمر الوجه أصفر الشـعر وكان يركب سيارة:

«شوفتي بنت ولد... شوفتي بنت؟!».

لوى شفته وبصق على الأرض.. فابتسم الهندي وضم قبضته ولوح له في الهواء مشجعًا. عند حافة حقل مجاور كان الأفريكان السود ينصبون خيامهم، وبعضهم كان يصنع شايًا، وعندما نظر إليه أحدهم أرعبته العيون البراقة والأسنان اللامعة والفم الواسع، وابتسم له الرجل... فابتسم له خوفًا... وهمس «بعضشي» في أذنه:

«دول بيسنوا سنانهم كل يوم الصبح يا ويكا... دول بياكلوا بني آدم».

وعندما مد له الجندي يده بقطعة بسكويت... هز رأسه رافضًا، وعندما تقدم منه الجندي تقهقر إلى الخف وسمعه يتكلم:

«أفريكان سوا سوا.. سوا سوا أفريكان».

استجمع كل ما تعلمه في المدرسة... وقال بالإنجليزية:

«أشكرك، لكني لا أريد أن آكل الآن!».

وقبل أن يرد الإفريكي.. جاءته من الخلف ضحكة مرحة:

«هاي.. إنك تتكلم الإنجليزية.. هل إنت مصري؟!».

استدار نحو الرجل الضاحك.. وكان إنجليزيًّا عاري الصدر باسم الوجه، وبجواره كان «بعضشي» مع صبي امتلأ حجره بالبطاطس وهو يلح عليه:

«بوتاتوس جوني... شفتي بوتاتوس فري جود!».

وأعاد الجندي سؤاله:

«هل إنت مصري؟!».

«نعم... أنا مصري».

وأشار الجندي إلى شعره:

«ولكن شعرك أصفر، لا بد أنك يوناني!».

طالما تمنى أن يكون يونانيًّا أو ألمانيًّا أو حتى إيطاليًّا، لكنه في تلك اللحظة بالذات أحب أن يكون مصريًّا... فقال بحماس:

«أنا مصري، ولا أحب أن أكون يونانيًّا ولا حتى إنجليزيًّا!».

«شفتي بوتاتوس جوني؟».

«وأين تعلمت الإنجليزية؟!».

«في المدرسة».

«بوتاتوس فري جود... شوفتي بوتاتوس؟!».

الطريق العالي... والسهل المنبسط بجوار النيل... والجندي يشتري البطاطس من الصبي... «وبعضشي» قد اختفى لا يدري أين... يسرع الجندي بالهبوط إلى المعسكر وخلفه الصبي الذي تسقط منه حبة بطاطس... يلتقط الحبة... ويصيح في الصبي... لكن هذا لا يرد... لا يدري كيف نطق... ولا يدري كيف حدث ما حدث! السؤال بجواب... والجواب بعده سؤال... وحبة البطاطس في يده، ضحكات الجنود تترى كلما قال شيئًا وعرف أن اسم الجندي الذي حدثه في البداية هو تشارلي... هبط المنحدر نحو شاطئ النيل... وتقدم من المعسكر وقد زايله الخوف وراح يحدثهم وهم يتحدثون إليه فشعر بلذة لا تفوقها لذة، واكتشف أنه شاطر في الإنجليزية، وقف بجوار سيارة محملة بالصناديق والأطعمة والخبز الأبيض... فسال لعابه عندما رآه... تذكر بطاقة التموين وزحام الناس عند دكان الدقيق الأسمر

والخبز الجاف الذي كسر إحدى أسنان أبيه ذات يوم... شراء الدقيق أثقل واجباته على الإطلاق، ومنذ قامت الحرب لم ير خبزًا أبيض إلا في ڤيلا محجوب بك، وكلما مر قطار مليء بالقمح سأل أباه:

«**القمح ده بيروح لمين يا بابا؟!**».

وقال له أبوه إنه يذهب إلى السلطة... فلم يفهم... وسأله تشارلي إن كان جائعًا... فأنكر رغم لعابه السائل... والجوع الذي يعتصر معدته، قدموا له كوبًا من الشاي فشربه... وأقسم بينه وبين نفسه إنه لم يذق في حياته شايًا ألذ من هذا... وعندما غادر المعسكر في المساء... كان على موعد مع تشارلي في صباح اليوم التالي... وكان هذا يصيح فيه وهو يبتعد:

«**إذا كنت صديقي حقًّا فأحضر لي بيضًا طازجًا في الصباح**».

أكثر ما يميز الإنجليز هو حرصهم الشديد على الإخلاص والصدق، ولقد كان تشارلي من إنجلترا... لم يكن استراليًّا بغلًا ولا نيوزيلانديًّا جلفًا كما يقول أبوه، تذكر الفلاحة الباكية والطين الذي يغطي وجهها... فردد بصوت واضح:

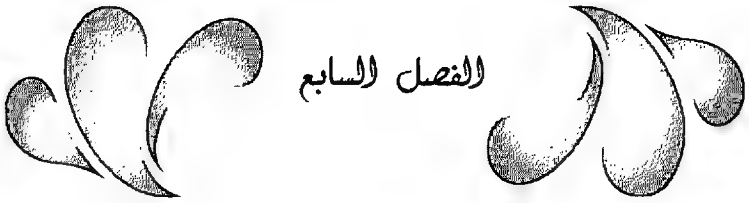
«**دول فلاحين... فلاحين!**»... وعندما كان يتحدث مع تشارلي قدم له حبة البطاطس... فشكره تشارلي وأعطاه علبة بولبيف يزيد ثمنها على خمسة قروش... وعندما تمنع أصر تشارلي فأخذها منه حائرًا، وظل يفكر طوال الطريق في مكان يخفيها فيه، وكان قلبه مفعمًا بالسرور... ولو علم أبوه بالأمر لذاق علقة لم يذقها من قبل، ولن ينسى يوم أن قذف له الجنود بصندوق سجائر من قطار عبر المحطة... وكاد أبوه ليلتها يقتله:

«حاتشتغل لي شحات على آخر الزمن وتفضحني في البلد؟!».

عبثًا حاول أن يقنع أباه أن الذنب ليس ذنبه... فقد كان يصيح فيه بغضب رهيب:

«وخدتها ليه؟ مديت إيدك عليها ليه؟!».

فماذا يفعل به أبوه لو علم أنه أخذ علبة بولبيف من عسكري إنجليزي في البر الثاني؟!



الفصل السابع

نفذت الشمس من بين فروع الشجرة... ودارت نحو الكوبري فأحرقت ساقيه فضمهما إليه وهو يتنهد... يلتفت نحو المكتب وكان الرصيف لا يزال خاليًا، يرقب سحابات الصهد وهي تتموج فوق الأرض والقضبان، ولو نجح لاستطاع أن يلعب في الصباح ويخرج في المساء دون حساب... سيركب الدراجة كل يوم... فلسوف يزيد أبوه مصروفه دون شك، وعندما يكبر ويعمل ويصبح غنيًّا سيشتري دراجة، ويوم قال له «بعضشي» إنه سيشتري سيارة كاميون قال له إن الدراجات ألذ... كم يعشق أسلاك عجلاتها وهي تعزف، تعزف، وهي تعلو في أذنيه وتثقب رأسه، وهي تقترب ليستدير برأسه، نحو الشارع فيلمح حامدًا وهو في الطريق فوق دراجة لا تكف أجراسها عن الرنين... يدق قلبه بانفعال وغضب، وتتهدج أنفاسه وتضطرب، يقترب «حامد» مسرعًا... لكن «بعضشي» يأتي من بعده وهو يعدو بطوقه كالسيارة... مصفرًا كالقطار، يتنفس الصعداء ويملأ صدره بالهواء، ويعود فيمدد ساقيه من جديد عندما يأتيه صوت «بعضشي» المتهدج آتيًا من بعيد وكأنه نجدة من السماء:

«ويكا... ويكا... يا ويكا».

ويترك «بعضشي» طوقه ليصطدم بسلم المحطة... ثم يرتد بعيدًا في الميـدان الصغير، ويندفـع صاعدًا درجات السـلم ويرتمي تحت قدميه فوق الأرض المتربة لاهثًا في اضطراب:

«إنت سقطت صحيح يا ويكا؟!».

ينتفض في مكانه وينتشر الذعر في أرجاء نفسه:

«مين الكذاب اللي قال لك كده؟!».

هو يعرف الجواب مقدمًا... وليس هناك من يقول هذا سوى حامد؛ ومن خلال أنفاسه اللاهثة كان «بعضشي» يردد:

«الولد حامد هو اللي بيقول!».

«كداب».

«وتربة النبي هوه اللي قال لي دلوقت!».

«كداب».

يقولهـا هذه المـرة منتفضًا بغضب تراكم في صـدره فينهض صائحًا في حامد بكل صوته:

«يا كداا اب».

ويسبه حامد وهو يدور في الميدان فوق الدراجة عازفًا بالأجراس:

«يلعن أبوك».

«أهو إنت».

«يا ساقط».

وتنتفخ رقبته:

«النتيجة لسه ما ظهرتش... وعم كامل مشغول مع مصر نص ساعة كمان!».

«أمال قاعد هنا ليه لوحدك؟ ما تروح تقول لأمك!».

«أنا ناجح وحاغيظك يا بليد... وحضرة الناظر قال لي كده كمان!».

«بليد... بليد... إنما ناجح يا ابني... وطظ في الناظر بتاعكم، أنا بقيت في ثانوي!».

«وقال إن أنا حاجيب مجموع.. وأدخل المدرسة الأميري مجانًا!».

«مجانًا زي الفقرا والشحاتين... أنا ما يهمنيش... احنا عندنا بيت ملك!».

لماذا أنجب أبوه أربعة وأمه حامل... ولماذا لم يفعل مثل أبو حامد فلم ينجب غيره؟... يرتج عليه ولا يستطيع الرد... فمصروف «حامد» تعريفة... ومصروفه مليمان... تتعثر الكلمات على شفتيه... ثم تتجمع على لسانه ككرة من نار:

«إنت أبوك أقرع... وأنا أبويا له شعر».

لا يغيظه شيء في الدنيا سوى ضياع صوته في الفضاء الساكن، إنه يصرخ بكل بدنه... لكن كلماته تضيع وتتبدد، صوته رفيع نحيل... وصوت حامد غليظ يملأ السمع... ينهض «بعضشي» واقفًا ويلتصق به ثم يهمس في أذنه متحمسًا:

«تيجي نضربه يا ويكا؟».

يتمنى من أعماقه لو يفعلها... لولا خوفه على قميصه أن يتسخ أو يتمزق... وسيتحول الأمر بعدها إلى كارثة محققة... وماذا لو لم يكن ناجحًا؟!... يصمت ولا يرد... فيعود «بعضشي» إلى الهمس بصوت مسموع:

«مش انت شاطر في المدرسة يا ويكا؟».

ولا يكف «حامد» عن الدوران في الميدان... والعزف بأجراس الدراجة، يدور... ويدور... ثم يصيح بين الحين والحين:

«يا ساقط!».

... ينهض فوق البدال كمن يركب حصانًا، يخرج له لسانه ويسبه ولن يستطيع «بعضشي» أن يلحق به، هل سينجح... أم سيكون الرسوب من نصيبه... أصبح لا يدري من الأمر شيئًا سوى أن... أن... أ... أنه... أن الحبل الغليظ يعود إلى الالتفاف حول عنقه... فلا مفر ولا مخرج... ولا بد أن تسيل الدموع من عينيه رغمًا عنه، ولا بد له أن يقاوم بكل قواه حتى لا يفضح... كان تشارلي صديقه... فلماذا فعل ما فعل؟! قال له يومها:

«أنا آسف... لكنها أوامر يا كابتن!».

ثم صوب عليه مسدسه... وكاد يطلق عليه النار... فلماذا لم يقتله ليستريح؟ أجراس الدراجة... وصيحات حامد... ونظرات بعضشي... وصرخة الكابتن الغاضبة دون سبب: «اخرج»، فلماذا؟ يومها ارتجف من الخوف والغضب معًا فانسحب من المعسكر يجرجر قدميه... علبة البولبيف... والليل وزحام السوق... وحديث الناس على كل فم، وصوت بعضشي يباغته من الخلف:

«إيه اللي معاك دي يا ويكا!».

وكاد أمره ينفضح... لولا أنه وعد «بعضشي» بإعطائه قرشًا من ثمن العلبة... سارا معًا إلى دكان مرزوق الخردواتي وباع «بعضشي» العلبة ولم يره مرزوق فحمد الله وطغى عليه الفرح، أخذ «بعضشي» من الرجل أربعة قروش... أعطاه منها ثلاثة: «آخد القرش ليه يا ويكا؟!»... وعاد إلى البيت يحتضن ثروته في يده... ثم أخذها بعيدًا عن الأعين في بئر السلم... ليلتها لم ينم، فماذا لو اكتشف أبوه الأمر وسأله من أين جاء بالمال؟... إن لم يخبره فستقع الطامة... وإن أخبره فالمصيبة أكبر!...

تشارلي يريد منه بيضًا طازجًا وأقدام إخوته تستلقي فوق جسده والدنيا صمت وأنفاسه تتردد في الظلام، وماذا لو جاء لص فسرق قروشه من بئر السلم وفر بها هاربًا؟!

حسب الحسبة مرات ومرات... القروش الثلاثة تأتيه باثنتي عشرة بيضة، وسيعطيه تشارلي اثني عشر قرشًا، وفي اليوم التالي يستطيع أن يبيع له ثماني وأربعين بيضة بثمانية وأربعين قرشًا، وفي ثالث يوم يستطيع أن... ...

غادر الفراش في الظلام ووقف حائرًا، ثم عاد إلى مكانه وراح يفكر في اضطراب... ولو استمر الأمر على هذا الحال فسيصبح معه ذات يوم جنيه كامل، وربما جنيهان وثلاثة، وعشرة ومائة جنيه وربما أصبح غنيًا يملك مالًا يشتري به بيتًا ودراجة، وليس هذا حرامًا... لكن أباه سيقطعه إربًا لو علم بأمره... أذان الفجر يسري في سماء البلدة فيقشعر بدنه، ورغم قبح صوت عم فرج إلا أنه يبعث دائمًا بالدمع إلى عينيه

كلمـا سـمع أذان الفجر منه، جـاء الفجر وعيناه مفتوحتـان وذهنه صاح ولا رغبـة له في النوم، ويتنابه حنين إلى الله، فلماذا لا يصلي، كم تمنى لو استطاع صلاة الفجر في الجامع، وكم تمنى لو استطاع الوقوف فوق المئذنة والصياح بكل صوته مناديًا:

«يا رب»، فهل يلبي الله نداءه؟!

تسـلل من الفـراش ووقف في منتصف الغرفة وحيدًا يشـغي رأسـه باللـه وأرقام البيض والخوف من أبيه، خطـوة واحدة... ثم يصبح عليه أن يعبـر جسـد الخادمة الراقدة على الأرض في منتصـف الغرفة تمامًا، الباب المفتوح... والحمام عن اليمين والمياه باردة ترطب وجهه ويديه وقدميـه... وعندما انتهى من الوضوء أحس بالراحة تغمره، وفي طريقه إلى غرفة الجلوس تذكر تشارلي باضطراب، دلف إلى الغرفة وهو يقرأ الفاتحـة ويسـتقبل القبلـة ويرفع يديـه إلى أعلـى، وما كاد يبـدأ صلاته مكبـرًا: اللـه أكبر، حتى فتـح الباب من خلفه وغمر النـور الأزرق عينيه ودهشت أمه متسائلة في قلق:

«ما لك يا ولد... إيه اللي صحاك دلوقت؟!».

لـم يدر بمـاذا يجيب، كانت الطاقية على رأسـه، ويداه بجوار وجهه وإبهاماه تحت أذنيه، أليست الصلاة واجبة؟!

«ما ترد يا ولد... ما لك؟!».

كانت تصيح فهمس متوسلًا حتى لا يستيقظ أبوه...

لكن الصوت الباتر أتاه عبر الصالة:

«اتفضل نام يا سيدنا الافندي».

دهمه الإحساس بالاختناق، الظلال في الغرفة والضوء الأزرق والمقاعد والستائر السميكة... وجسد أمه يقف بينه وبين الهرب!

لماذا لا يهرب وهو يستطيع أن يعيش من بيع البيض طوال عمره؟ ...وإذا كان العمر مكتوبًا في اللوح المحفوظ... فمتى يأتي يوم أبيه؟!

«التقوى خدت بعضها قوي يا سيدنا الافندي؟».

كان لا بد من الطاعة... فأين المفر؟!

«امشي اتخمد!».

الدقائق البطيئة والأحلام والخيالات وأشباح الفجر الرطبة نام ولم ينم... لكنه انطلق يعدو بعد خروج أبيه في الصباح وعندما أراد أن يشتري بيضًا قيل له إن ثمن البيضة أصبح تعريفة، انتابه الغضب، وصاحت امرأة في وجه البائع:

«تعريفة ليه؟ إلهي تيجي لهم شوطة بحق جاه النبي... دول خلوا البلد مولعة نار... وقة البطاطس من امبارح للنهاردة بقت بالشيء الفلاني، رطل الطماطم يا اخواتي بقى بشلن... حانجيب منين... نسرق؟!».

كره البائع كما كره المرأة... لكنه عندما سأل بعد ذلك كان ثمن البيضة تعريفة... لم يترك بائع بيض إلا وسأله... غير أن الجواب كان واحدًا... فلماذا؟! اشترى البيض وراح يحسب حسبته فوجد أن قروشه الثلاثة ستصبح ستة فقط، وفي الطريق وعلى الكوبري وبين الحقول كان يتساءل: هل يعطيه تشارلي علبة أخرى من البولبيف؟

«ويكا... ويكا... تاخد لفة بالطوق؟».

لماذا تأتيه الأشياء عندما لا يريدها؟!

«حامد» يدور بالدراجة أمامه والرصيف خال... والميدان مفروش بلهب الشمس... الشجرة والزير ووجه «بعضشي» يطل عليه من أسفل متسائلًا:

«مش تقوم تسأل يا ويكا؟!».

لكن شيئًا يلجم لسانه ويمده إلى الأرض... ترى ما الذي يشعر به من يسبحون في النهر؟! وكيف تستطيع «أوظه» أن تنام فوق سطح المياه كما تفعل؟ متى يكبر ويفعل ما يشاء دون خوف؟ ومتى يصبح رجلًا له شارب ويدخن أمام الناس وينفث الدخان في الهواء بكل عزمه؟ ولو أن أباه ذبحه يوم علم أنه يذهب إلى المعسكرات ليبيع البيض للإنجليز لارتاحت نفسه، لكنه لم يفعل... يقفز واقفًا فيتبعه «بعضشي»، يملأ صدره بالهواء وقد ذهبت دموعه فيتذكر وجه أمه يوم ضبطته بالنقود تملأ جيبه... سبعون قرشًا نبه رنينها أمه... فصاحت فيه:

«إيه ده يا ولد؟!».

الفم الفاغر والعينان الواسعتان والصياح المرتعب:

«إيه ده يا ولد... وريني اللي معاك ده؟ يا ندامة... فلوس؟!».

عبثًا حاول الفرار... فقد سدت عليه الطريق وأغلقت باب الغرفة بجسدها... ثم أمسكت به - كالعادة - من شعر رأسه ولم تتركه...

«جبت الفلوس دي منين يا ولد؟!».

الريالات والقروش تملأ كفها... وعيناها جاحظتان ونظراتها زائغة... وكلماتها تردد دون انتظار لجواب منه:

«سبعين قرش يا ابني... جبتهم منين؟ منين جبتهم يا ولد؟ ما تنطق يا ابني... حرام عليك... ما تقول... سبعين قرش يا ضنايا... ما تخافش يا ابني... قول لي دا انا أمك... قول مش حاقول لأبوك لو قلت لي الحق... أنا أمك... حد يخبي على أمه حاجة؟!».

وقال.

كان يعلم أنه لا بد قائل، ويعلم أنها لا بد ستخبر أباه بالأمر كله... وعندما علمت كل شيء شهقت، وضربت صدرها بكفها وصاحت فيه مصفرة الوجه:

«الإنجليز؟!».

الويل والثبور... والمفاصل السائبة... وانتظار اللحظة الحاسمة بالقلب المرتجف... ولو أن أباه ذبحه يومها لارتاحت نفسه، لكنه لم يفعل!

«ساقط... يا ساقط».

صوت «حامد»... وأجراس الدراجة... وحرارة الشمس... ويهمس «بعضشي» في أذنه:

«ما تروح تسأل يا ويكا... ويكا... تيجي نروح البر التاني؟».

يهز كتفيه ويرقب باب المكتب بعين زائغة وذهن غائب... يومها تجمع إخوته من حوله وراحوا ينظرون إليه بعيونهم المتسعة بالدهشة... والترقب والانتظار وأعمدة السرير مشرعة حتى السقف ولن يفلت من

العقـاب، وعندما جـاء أبوه لم يزعق ولـم يصرخ ولم ينـاده... الهمس الغليـظ وصوت أمـه لا يبين والغـداء لا يُعَـدُّ... ثم يأتيه النـداء... فإما الحياة أو الموت...

«يا سيدنا الافندي».

الصـوت غاضب هـادر... فليقم إلى مصيره سـاعيًا... بـاب الغرفة والصالـة وبـاب الشـقة مفتوح وليـس عليـه إلا أن يطلق لسـاقيه العنان ويهرب... فلماذا لا يفعل؟!

جذبته الصيحة جذبًا... فإذا العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبيـن أمامـه... وإذا الأمر كله حلم غريب يطالعه في منام، جلسـة أبيه فوق الكنبة... وبجواره أمه، بينهما النقود مبعثرة تلمع فوق المسند، ونفثات الدخان تسبح في جو الغرفة والسؤال يأتيه:

«جبت الفلوس دي منين؟!».

لمـاذا يسـأل وهو يعـرف الجواب؟ لمـاذا يعيد مـا قاله لأمـه خائفًا ومتصنعًـا الخـوف أيضًـا؟ حلـم هـو أم وهـم... فأمـه تبتسـم... حكى الحكايـة... فصمت أبوه ولـم يقل كلمة... فأيقن أن الأمر حلم لا شـك فيـه... صمـت الغضـب هـذا ونذيـر الحكم أم هـو صمت شـيء آخر لا يدريه؟ أغرقه العرق وأحس بصدره يعلو ورأسـه يدور... وكاد يبول على نفسه، وما يحدث من حوله هو حلم فأين اليقين إذن؟

«خلاص بقى يا ثابت أفندي... ما هو بيديني الفلوس يا خويا».

«مين كان معاك يا سيدنا الافندي؟».

«ما فيش حد يا بابا... والله العظيم والله العظيم ما فيش حد».

«بعضشي طبعًا».

«أبدًا يا بابا».

«أوظه؟».

«والله يا بابا أبدًا».

«خلاص يا خويا... محدش عرف حاجة».

«اسكتي انتي يا ست هانم... ابنك حايفضحني في البلد!».

«أصل العسكري ده صاحبي يا بابا».

«صاحبك؟».

«أيوه والله العظيم!».

«صاحبك ازاي؟! صاحبك يعني إيه؟».

لماذا لا تنشق الأرض وتبتلعه؟

«ما ترد يا ولد على أبوك... ما لك؟!».

«صاحبك يعني إيه يا سيدنا الافندي... انطق!».

«صاحبي يا بابا... صاحبي!».

«قصده يا خويا إنه بيديله البيض في السر».

«في السر يعني إيه؟ تعالى هنا قرب... فهمني!».

يختفي الغضب أم أن هناك ما هو أسوأ؟ يقول ويعيد لكن السؤال ملحوق بسؤال وليس لديه ما يقوله فليذبحه إذن... الكف يضرب الكف... والزفرات متتاليات... والكلمات تخبط رأسه:

«حا يفضحني في البلد... حا يفضحني على آخر الزمن!».

لماذا لا ينهض ويضربه؟ لماذا لا يصرخ ويثور ويأتي بالحبال والعصا؟

«خلاص بقى يا ثابت أفندي... مدام محدش عرف يا خويا... سماح بقى».

«والنبي... والنبي يا بابا دانا باحط البيض في جيوبي ولا حدش بيشوفه أبدًا».

«آهو كل يوم بييجي يديني الفلوس كلها».

ويتحرك لسانه مكبلًا بخوف غريب الطعم:

«أصله بياخد مني كل يوم عشرين بيضة يا بابا».

«آهو بيديني الفلوس يا خويا... وفيها إيه يعني... ما الناس كلها بتعمل كده يا ثابت أفندي؟!».

«امبارح قال لي آخد علبة بولوبيف ما رضيتش».

«يا ندامتي... ده لحم خنزير يا ولد... إوعى تاكل منه!».

وجاء صوت أبيه هادرًا فأصابته رغبة في التقيؤ...

«مين اللي قال الكلام الفارغ ده يا ست هانم... البولوبيف لحم بقري!».

«بقري؟!... طب ما تجيب لنا منه يا ابني... ده رطل اللحمة بقى بالشيء الفلاني!».

«وعندهم عيش فينو أبيض كمان... وشاي!».

«خلاص بقى يا ثابت أفندي... إديله مصروف النهارده علشـان ينزل يلعب مع أصحابه».

«مع أوظه وبعضشي؟! مش كده يا سيدنا الافندي؟!».

«وبكره حاشتري البيض منين؟!».

أخذ قرشًـا وغـادر البيت، لكنه لم يلعب ولم يسـتأجر دراجة، وظل القـرش في جيبه ... أحس مع الحرية بمذلـة فغص حلقه... لو ثار أبوه وقتله قتلًا لارتاحت نفسه... الحيرة والقلق وعافت نفسه حتى عن لقاء «أوظه»... ولم يعد يذهب إلى تشـارلي عدوًا، وتبعته «أوظه» ذات مرة فحاول الهرب منها... ولكنه لم يستطع...

«إيه اللي في جيبك ده يا اسمك إيه؟!».

وكلما خطا خطوة خاف على البيض أن ينكسر...

«حاتقول لي... والا اقول لامك...؟».

عند المعسـكر تركته «أوظه» وانحدرت إلى الشـاطئ وراحت تبني مـن الرمـال بيتًا، ثم نـادت عليه فلم يـرد، لعنت الإنجليـز بصوت عال وشـتمته دون خوف... وعندما ذهـب إليها التصقت به وهي تهمس في أذنه متوددة:

«مخاصمني؟!».

لـم يقل شـيئًا ولـم يعترض عندمـا طلبت منـه أن يبني معهـا بيتًا من الرمال يسكنان فيه... استدارت نحوه فجأة... ثم سألته:

«أبوك مش بيضربك ليه اليومين دول؟!».

انتفض لسؤالها ولم يرد... فماذا يقول... صمت طويلًا فألحت بالسؤال... ثم قالت:

«أمي بتقول إنك بتبيع بيض للانجليز وتجيب الفلوس لأمك!».

لو أن عقربًا لدغته لما أحس بمثل هذا الألم، ارتجف بالغضب وهو يحملق في وجه «أوظه» المتسخ وشعرها الهائش وكانت تبتسم، غص حلقه وامتلأت مآقيه بالدمع فصرخ فيها بصوت ممزق:

«كدابة... أمك كدابة».

شهقت وهي تضع يديها في خصرها:

«اسم الله... أمك هي كدابة، وابوك».

«يلعن أبوكي بنت كلب».

«آهو أنت اللي يلعن ستين أبوك ابن ستين كلب».

«يا قليلة الأدب!».

«اسم الله... ما انا شفتك وانت بتدي للعسكري البيض في الخيمة!!».

وعندما نادى عليه تشارلي تبعته «أوظه» فلم ينطق حرفًا... عادت تتحدث معه وهما يصعدان المنحدر دون خصام... وعندما أعطاه تشارلي علبة بولبيف أشار نحوها وقال:

«لكما معًا».

خطفت العلبة ثم أطلقت لساقيها العنان عائدة... تركته وحده فمضى بصدر مختنق... وعندما سألته أمه عما به لم يرد عليها...

أعطاهـا النقود وقبع فوق السـرير سـاكنًا... وعادت إليـه أمه وهي تلح بالسؤال حائرة:

«ما لك يا ابني؟!».

لم يرد... فماذا يقول؟

«إنت عيان؟ وريني راسك... ولد... ما ترد يا ولد!».

وجاءت سـاعة القيالة بعد الغـداء... فالتفت من حولـه فرأى عيون إخوته، تركهم وغادر الغرفة إلى الصالة... فسمع أباه وهو يقول:

«عارفه... لو الولد فضل على كده لمدة آخر الشهر... ممكن الحال يتعدل!».

«حايفضل يا خويا... ده شاطر».

«ولا نستلفش الشهر ده ولا مليم».

وانهمرت دموعه في صمت فأحس للبكاء بلذة غريبة... بكى بحرقة حتى شاهدته سهام فحاصرته النظرات وارتفعت الهمهمات... وجاءت أمه ملهوفة...

«ما لك يا ابني... ما لك؟!».

وعندما جاء أبوه ازداد بكاؤه... وازداد انهمار الدمع من عينيه...

«ده بقـى له كام يوم بالشـكل ده يـا ثابت أفندي... وكل ما اسـأله... مايقولش ما له!».

وصاحت سهام كاذبة:

«ده كان بيعيط امبارح!».

«ما لك يا سيدنا الافندي... انطق!».

لحظة الصمت... ثم شهقة الفزع... صوت أمه يدوي في أذنيه:

«ثفندي... ما تشوف ابنك أحسن يكونوا عملوا فيه حاجة».

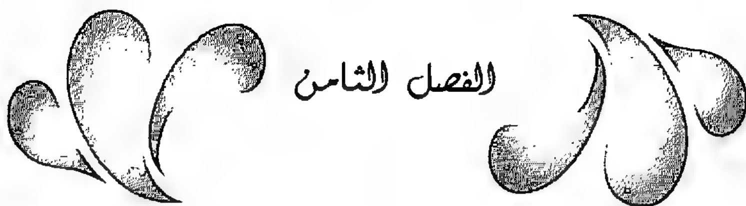
وانطلقت الصرخة من حلقه وكأنها تقطع لحم صدره:

«ماما... ماما...».

ونظر إليها أبوه بعين ساخنة كاللهب:

«إيه الكلام الفارغ اللي بتقوليه ده يا ست هانم...؟ اخرسي انتي ولمي لسانك الأعمى ده...!».

يومها... اقتلعه الحنين والحب من فوق الأرض وحلقا به حتى السماء السابعة... وكاد يرى الله!



الفصل الثامن

... ... وإذا دوت صفارة الإنذار في عز النهار فالطائرات الآتية لا بد ألمانية وليست إيطالية ولسوف تدوي المدافع عند الكوبري وفي البر الثاني وفوق بيت الغزاوي وستمتلئ الشوارع بالعيال وسيرى الإنجليز الطائرات قبل أن يراها كل الناس... ينتفض لصوت الصفارة المدوي في سماء البلدة كلها متقطعًا، ويكف «بعضشي» عن اللعب في الميدان ويتطلع إلى السماء بحثًا عن الطائرة المغيرة... ولو أراد لذهب الآن إلى المكتب وتفرج على عم مينا وهو يضغط زر الصفارة بإصبعه ومن حوله الناظر وعم إسكندر، ولن يعرف النتيجة حتمًا إلا بعد انتهاء الغارة، السماء صافية ولا صوت لطائرة... ولا طلقة لمدفع... وقد تمضي الغارة دون أن يطلق الإنجليز مدافعهم ودون أن تظهر في السماء طائرة... وعندما يظهر أول العيال في الميدان يندفع نحوه «بعضشي» صائحًا في مرح:

«تيجي نروح البر التاني يا ويكا؟!».

يهز كتفه ويقول: «لا»... ويعود «حامد» بدراجته إلى البلدة مسرعًا خوفًا من الغارات والقنابل...

«ما تيجي نتفرج على الانجليز وهم بيضربوا المدافع في البر التاني».

تكف الصفارة ويخرج عم مينا وعم إسكندر وحضرة الناظر من

خلفهم عم سعداوي إلى الرصيف، يتطلعون جميعًا نحو السماء ويصنعون من أكفهم مظلات تحمي عيونهم من وهج الشمس... يراه عم سعداوي فيزعق فيه أمام الجميع وبأعلى صوته... ولن يستطيع الرد:

«ما تتهدي بالله وتيجي هنا أحسن الحكاية تبقى جد المرة دي!».

وقبل أن يفتح فمه أو يتحرك تدوي أصوات المدافع في البر الثاني وهي ترعد فيزداد انفعال «بعضشي» ويزعق الناظر وهو يشير نحو السماء:

«أهيه... أهيه يا اسكندر افندي».

يرفع عينيه نحو السماء فلا يرى شيئًا... يهلل «بعضشي» في حماس وهو يصيح:

«يا عزيز... يا عزيز... كبة تاخد الانجليز».

ويمتلئ ميدان المحطة بالعيال، يتطلعون جميعًا نحو السماء ويزعقون ويتصايحون ويتزاحمون... ويصرخ بعضهم لبعض:

«أهيه... أهيه...!».

ويزداد دوي المدافع... ويندفع العيال نحو الكوبري عدوًا ويجذبه «بعضشي» جذبًا:

«ماتيالله يا ويكا، الغارة حاتخلص واحنا عاوزين نتفرج».

يترك نفسه لـ «بعضشي» فيهبط السلم... وينغمس وسط العيال فوق الكوبري، يمر بالطابية... لكن مدفعها صامت وعساكرها واقفون... وضابطها ينظر نحو السماء دون حركة، وسيشغي البر الثاني بالسيارات والدبابات والصيحات والأوامر وأكياس الرمال وكرات اللهب...

والعساكر هنا وهناك...

يقطع الكوبري عدوًا... وهو يسابق «بعضشي» ولا يسبقه...، يتوقف عن الجريان ويتسلق السياج وينظر إلى النيل... فيعود إليه «بعضشي» هامسًا في أذنه:

«تيجي نروح عند تشارلي صاحبك يا ويكا؟!».

يهز كتفيه... ويقول: **«لا».**

«مش هو صاحبك؟!».

«ما انا مخاصمه من زمان».

«علشان نجيب سجاير...».

«مش عاوز».

«طب حاروح له أنا...».

«ده ابن كلب، ويلعن أبوه على أبو اللي يروح له كمان».

يقولها بحدة وغيظ... ويسأله «بعضشي»:

«يعني يلعن أبويا يا ويكا؟!».

«إنت معايا... والا معاه؟».

يتسلق «بعضشي» سياج الكوبري بجواره ويتدلى نصفه الأعلى نحو المياه ويسمع صوت الطائرة فترتفع عيناه إلى أعلى... عند الحقول تبدو في السماء نقطة شديدة اللمعان كأنها نجم يسير بالنهار... تتعالى صيحات العيال ويغني «بعضشي» معهم:

«يا عزيز... يا عزيز... كبه تاخد الانجليز».

ولو انتهت الغارة وهو في البر الثاني... فلسوف يتلقى عم مينا الخبر من البندر... ولن يجدوه إذا ما بحث عنه عم سعداوي... يتسلق سياج الكوبري مرة أخرى... ويسأل «بعضشي»:

«تبقى ابن ملك... لو نطيت من هنا لتحت».

يسيل العرق تحت إبطيه ويخلو الكوبري من العيال... ويستجيب لجذب «بعضشي» وهو يعدو خلفه ليلحقا الضرب قبل انتهاء الغارة، ولسوف يجلس بعيدًا عن المعسكرات... حتى لا تصيبه رصاصة... أو قنبلة تلقيها إحدى الطائرات، سيرقب كل شيء ولن يسد أذنيه فصوت المدافع والقنابل لا يخيفه... وعند نهاية الكوبري ينعطف يوميًّا خلف أبيه ويهبطان المنحدر إلى الشاطئ صامتين... صرخة أبيه الحازمة في وجه أمه وملامح الوجه في غير غضب:

«البس هدومك وتعالى معايا يا سيدنا الافندي».

يومها بدا له الأمر لغزًا لا سبيل إلى حله، وقالت أمه وهي تخرج بذلة أبيه من الدولاب:

«حاتروح فين بالولد يا ثابت أفندي؟!».

ولم يرد عليها أبوه...

«حا تاخده معاك يا خويا؟!».

عيون إخوته المحملقة في وجهه... ثم الصوت الآمر:

«يا ولد!».

سار بجوار أبيه عبر الشارع والسوق... وبجوار المنتزه... ثم انعطف خلفه إلى الكوبري وبدأ الاضطراب يأكله... يومها دخن أبوه بلا انقطاع، وعلى رمال البر الثاني جلس أمامه مطيعًا دون أمر، أخذ يحملق في الوجه الكبير والشارب الصغير وسحابات الدخان المتطايرة في الهواء...

«اسمع يا ابني... إنت ما بقيتش صغير ولازم تعرف كل حاجة».

غاص قلبه بين ضلوعه... وابتلع لعابه... وتهدجت أنفاسه وران السكون من حولهما فشمل الدنيا كلها...

«أنا عارف إيه اللي مضايقك... عارف إيه اللي مزعلك».

ولم يستطع حبس الدمع فتركه ينهمر من عينيه، جرفه الحنين إلى بحر من السعادة بلا نهاية...

«يمكن أنا لو كنت ضربتك ما كنتش انت زعلت كده... ما كنتش حزنت!».

«أصل يا بابا... ....».

نطق نصف النداء وحبست الشهقة نصفه الآخر... كان قلبه الذي يهتف هذه المرة والحيرة تثقل رأسه... فهل يمكن أن يعرف أبوه ما يجول برأسه؟!

الوجه الهادئ والأنف العظيم... والعينان الرائقتان... والجبهة المنبسطة كشاطئ الرمال الناعمة، ويأتي الصوت هادئًا حنونًا فيلفه في عالم غريب... الماضي البعيد قبل أن يولد... وهل كان أبوه طفلًا ذات يوم مثل كل الأطفال؟!

«أبويا... ... الله يرحمه ويحسن إليه بقى...».

وسرحت عينا أبيه... وساد الصمت لثوان...

«أبويا مات وانا عندي سبع سنين...».

وتسافر به الحكاية إلى القاهرة والبيت العتيق في القلعة... الخال الباشا والأخ الأكبر... والأخت... والصبي المطرود من المدرسة ذات مساء!

«كنت دايمًا اطلع الأول... عمري يابني ما قصرت في حاجة وعمري ما سقطت... جاني المدرس الانجليزي، وكان اسمه سميث وقال لي: يا ثابت، انت تعرف حد اسمه عواد باشا؟!».

الحلم الرهيب قبلها بليلة، السور العالي والذراعان المتشبثتان به والوصول إلى القمة...

«كان قبلها بليلة، أنا فاكر الحلم زي ما يكون حلمته امبارح، لما طلعت السور لقيت إيد كبيرة طالعة من الناحية التانية، راحت زقاني قمت وقعت من فوق السور... وصحيت من النوم وانا باقول: اللهم اجعله خير!».

مع الابتسامة الحانية أشياء لم يدركها... لكنه لم يسأل حتى لا يكف أبوه عن الكلام... كيف يطرد الخال ابن أخته من المدرسة حتى لا يصبح مهندسًا مثل ابنه؟!

«رحت لاخويا... قال روح لخالك، افتكرت كلام المدرس الانجليزي... قلت له مش رايح لخالي وحكيت له الحكاية، قال لي برضه روح لخالك... وكانت دي أول مرة في حياتي أعصي فيها كلام لعمك... وعزة الله أول مرة!».

الرحلة الطويلة من العاصمة إلى الريف بحثًا عن لقمة العيش... ومن الريف إلى المدن، ومن المدن إلى المدن...

«وكل شيء مقدر ومكتوب... ويوم ما اتجوزت أمك كنت مخلص جمايل الناس عليَّ، وما كنش حيلتي حاجة، لكن أمك شالت الحمل معايا من غير ما تشتكي».

رغم السعادة والحنين... ففي الرأس سؤال بلا جواب، فهل يستطيع أن يسأل؟! ولماذا الزواج إذن؟ لماذا يتزوج كل الرجال إذا كان الزواج سبب شقائهم؟!

«كانت الأشيا معدن... والحال كويس لحد الحرب ما قامت...».

وهذا هو الذي لايفهمه بحال.. لماذا ترتفع أسعار البيض والطعام إذا قامت الحرب؟ ولماذا يعم الغلاء ويشكو الناس منه؟ وفي كتاب الجغرافيا: مصر هبة النيل، وأرضها أخصب الأراضي... فلماذا لا يجد الناس القمح؟!

«إنتو بقيتوا أربعة... والخامس جاي في السكة... والحمل عليَّ بقى تقيل... إنت فاكر إني ما زعلتش يوم ما لقيت الفلوس معاك؟ فاكر إنها هينة عليَّ لما انت تبيع بيض؟ أبدًا، أنا زعلت، وحزنت، لكن الحاجة غالية يا ابني، وبدل ما امد إيدي كل شهر للسلف والدين، قلت آهي نواية تسند الزير... فاهمني؟».

لماذا يشعر بقربه إلى الله في الغروب بالذات؟ ولو صعدت جنية من جوف المياه ساعتها لتخطفه لما أصابه خوف أو فزع، وهل تستطيع الجنية أن تخطفه وهو مع أبيه؟ يبدو الأمر كله كحلم لا يأتي إلا في

العمـر مرة، وكما زاره النبـي في المنام فملامح الوجه العظيم تصفو في تلـك اللحظات حتى يضطـرب قلبه بحنين يدفعـه لأن ينحني على اليد الممدودة فيقبلها!

«وساعة أمك ما قالت اللي قالته... الكلام جرحني قبل ما يجرحك... أنـا فاهمك كويس وعارفك كويس، إنت مـا بقيتش صغير والأعمار بيد اللـه... وإذا جرى لي حاجة النهارده الحمل عليـك حايبقى تقيل، وراك أربعة وأمك الخامسة... لازم تحطهم في عينيك الاتنين... فاهم؟!».

ينبسـط العمـر فجأة فـإذا هو فـي الثلاثيـن أو الأربعين، لـن تكتمل السـعادة إلا إذا دخن سـيجارة... يعود الدمع إلـى عينيه فيترقرق الوجه العظيـم على صفحته وهو يحجب الشـمس الغاربة مـن خلفه، ويصنع القـرص خلـف الـرأس هالـة مـن الضياء... فـإذا هـو يشـهق بالخاطر المفزع... فربما... ربما... ربما... ربما كان أبوه هو الله نفسه!!



يصل مع «بعضشـي» إلى المعسكرات عندما تكف المدافع وتدوي صفـارة الإنذار لتنهـي الغارة، ويلمح على البعد تشـارلي وعلى رأسـه خوذة فيصيح «بعضشي»:

«صاحبك اهو يا ويكا... صاحبك اهو!».

يصيبـه الاضطـراب والغضب والحنيـن ويتمنى فقط لـو علم لماذا فعل معه تشـارلي ما فعل... وكيف يطرده من أرضه وبيته الرملي الذي بناه مـع «أوظه» عند الشـاطئ... ويرتجف عندما يصيح به «بعضشـي» مرة أخرى:

«تشارلي يا ويكا... تشااارلي».

ويلتفت تشارلي نحوهما فيتذكر عم مينا المنتظر للنتيجة أمام آلات التلغراف... ينطلق عائدًا عبر الحقول إلى الكوبري... ويلحقه «بعضشي» وهو يلهث بجواره:

«ده تشارلي نادى عليك يا ويكا!...».

تتعالى سحابات الغبار تحت قدميه ولا يرد، فماذا يفعل لو لم يكن ناجحًا؟!

«وشاور لك وهو بيقلع الطاسة».

ولو كان راسبًا فلسوف يضربه أبوه حتى الموت، وربما بعد الموت أيضًا!

الطريق المزدحم بالعيال اللاعبين والصائحين، وعلى البعد، عند أول الكوبري تدق أجراس الدراجة... فكيف استطاع أن يأتي إلى الكوبري بها وهو الذي يخاف من خياله في المياه؟!

«وله... حامد اهو يا ويكا... تيجي نضربه وناخد منه البسكليت؟!».

«أنا مش عاوز اضرب حد».

«ده بيخاف يا ويكا، وبيخاف من الغارات».

«ما هي أوظه بتخاف من الغارات هيه كمان!».

وتأتي صيحة «حامد» كضربة عصا فوق رأسه:

«ساقط... يا ساقط».

ولا يرد... لا يريد أن يرد... حتى وإن رد عليه «بعضشي»...

«خواف يا خواف... ياللي بتخاف من الغارات!».

كلمة بكلمة، وسبة بسبة... وعند منتصف الكوبري تتقطع أنفاسه فيبطئ في السير... ويجذب شهيقًا عميقًا، ويتمنى لو استطاع أن ينام الليلة كما نام ليلتها، أن يعود إلى البيت ليتوضأ ويصلي خلف أبيه... ثم يتعشى ويدس نفسه بين إخوته وذراعه تحوطهم... في الصباح التالي ملأ جيوبه بالبيض وغادر البيت... واخترق الشوارع... وعبر الكوبري... وانثنى إلى اليسار نحو المعسكرات وفي قلبه حرارة تدفع قدميه لتسرعا، تركه أبوه عند الكوبري بعد الحديث ومضى وحده وكان طربوشه في يده ورغم القروش العديدة في جيبه إلا أنه لم يلعب ولم يستأجر دراجة، وعند منعطف بين الحقول كان يخبئ صندوق سجائر أشعل منه سيجارة... وراح يرقب المياه في الليل، وعندما شهق بالدخان إلى رئتيه لم يسعل فأيقن أنه أصبح رجلًا، نفث شريط الدخان من فمه فامتلأ قلبه بالرضا... يومها تساءل بينه وبين نفسه: هل يستطيع أن يصنع شيئًا من أجل أبيه؟! كان الجواب في رأسه وهو يسرع بعد الكوبري في الطريق المترب نحو المعسكرات ويداه تحميان البيض في جيبه، شاهد على البعد البعيد العيال وهم متجمعون عند المعسكر وتشارلي يطردهم بعيدًا كالعادة، فابتسم، وفي كل يوم يحاول العيال والشحاذون الاقتراب من المعسكر... لكن أحدًا لا يدخله من غير الإنجليز غيره... اقترب مبتسمًا وصاح في صديقه بمرح:

«صباح الخير تشارلي».

لكن هذا وقف في طريقه...

«آسف... أمرني الكابتن ألا يدخل هنا أحد من المصريين!».

«تشارلي!!».

قالها في دهشة واضطراب وكان قلبه يدق، ثم أصابه الهلع عندما صرخ الساجن ذو الشعر الأحمر وكان يقف ويداه في جنبيه:

«ابتعد من هنا يا ولد!».

قد يكون الأمر نكتة.. أو يكون لعبة يريد الساجن مع تشارلي أن يلعباها معه... فابتسم وصاح:

«ساجن... سينكسر البيض في جيوبي... خذوه... أو ثم...».

وازدادت ضحكات العيال من خلفه عندما انحنى هذا إلى الأرض والتقط طوبة قذفه بها، وكادت تصيبه الطوبة... لولا أن تقهقر بسرعة ومال إلى اليمين وقد شله الخوف والرعب ووقف جامدًا لا يدري ماذا يقول... وصاح صبي من خلفه:

«عامل لي أفندي ولابس لي بدلة... وجاي تبيع البيض إيه المصايب دي؟!».

«تشارلي!».

«بالك هوه بيبيع لهم البيض بس يا وله؟ تلاقيهم بيعملوا له حاجة!».

التفت نحو العيال واختنق صوته...

«يابن الكلب».

«إنت اللي ابن كلب».

ودوت صرخة الساجن من جديد:

«ابتعد من هنا».

ويغلي الغضب في رأسه وصدره وتتدافع الدموع إلى عينيه وهو ينسحب بعيدًا عن المعسكر ليقف على حافة الطريق...

«ابتعد!».

«ماذا تريد مني؟ إنني لست داخل المعسكر!».

أطل الكابتن من الخيمة بشاربه الكثيف فتقهقر العيال إلى الخلف عندما صرخ هذا بكلام لم يفهمه... وصاح به الساجن بعدها:

«ابتعد وإلا أطلقت عليك النار».

أحس بالفزع وسابت مفاصله وصاح بصوت متقطع:

«تشاا... ر... لي!...».

ثم استدار مبتعدًا وأمعاؤه تتلوى بالألم، والرغبة في التبول تفوق عنده كل رغبة، والسماء تهوي أمام عينيه لتغطي الأرض بسحاباتها، وضحكات العيال تختلط في أذنه بنهيق حمار وأزيز سيارة تمضي من جواره مسرعة... ثم تغطيه بسحابات التراب، ومع الدموع التي صعدت إلى عينيه كانت قذائف الطوب تلاحقه...

«يا بتاع الانجليز!!».

ويصيح خلفه ولد آخر بصوت فاجر:

«تشارلي... والنبي يا تشارلي!».

ولا شيء حوله، لا شيء في رأسه، لا سماء ولا أرض ولا الله ولا الأنبياء... إنت ما بقتش صغير، إنت كبرت ولازم تعرف كل

حاجة... تشارلي، البيض يا تشارلي... الحمل بقى تقيل عليَّ، لو جرى لـي حاجـة وراك أربعة وأمـك الخامسـة... ابتعد من هنـا وإلا أطلقت عليك النار... حاسـب يا تشـارلي، والنبي يا كابتن... وعند حافة النهر بيتـه الذي بناه مـع «أوظه» فوق الرمال وكان لا يـزال قائمًا... إنت ابني وانـا عارفك كويـس... بالأمس بنى هذا البيت معهـا، عندما جذبته من يـده إلى ما خلف خيمة الكابتن وقبلته في فمه وطلبت منه أن يقول لها: «يـا حبيبتي» فلم يسـتطع... وإذا كان قـد ابتعد عن المعسـكر والعيـال وأوغـل فيمـا بين الحقـول وأصبـح النهار سـاكنًا صامتًا فلــم لا يطلق للدمــع الحبيـس العنـان؟ ألم يكن تشـارلي صديقـه؟ فلمــاذا أراد أن يقتلــه؟ ولمـاذا يتوهج كل شـيء من حولـه... ولماذا تحرق الشــمس الأرض فـي كل صيـف؟ ولماذا يعـود الصيف دائمًا؟ ولمـاذا ينتظر فيه النتيجـــة؟ ولمـاذا يدخل فيـه الامتحان؟ ولماذا يصبـح عليه أن يتحرك كل ساعة بحساب؟!

«ويكا... ما لك يا ويكا.. إيه اللي مسكتك كده؟!».

الرصيف الخالي والهدوء المخيم على الميدان وشـيء يعتصر قلبه اعتصارًا، ليت الصيف لا يعود أبدًا، يتمنى ألا ينجح «حامد» وأن يكون الخبر كاذبًا... لكن «حامدًا» قد نجح وحدث ما حدث...

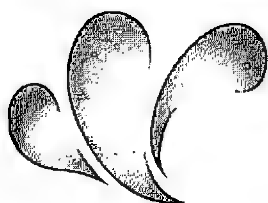
«ويكا... إنت مخاصمني؟!».

أبـدًا... وليـس الناظر في الخارج ولا عم مينـا وإن كانت أصواتهما تصل إليه، يجلس تحت شجرة ويمدد ساقيه ويتمنى لو استطاع الآن أن يدخن سـيجارة... ليس سوى «بعضشي» و«أوظه» ولو رسب فسيعايره الجميع إلا هما وسيخيب أمل طنط جانيت، وقد تحرمه من قبلتها التي

تعـودت أن تعطيهـا له في كل مرة تلقاه.. ويعـود «حامد» من البر الثاني بدراجتـه ليمـلأ الميـدان بالرنين، ولماذا نـادى عليه تشـارلي اليوم كما يناديـه فـي كل مرة يـراه فيها ولمـاذا طـرده يومها دون سـبب أو ذنب؟ وكيف يسـتطيع الإنجليز أن يطردوه وهو صاحب البيت عند الشـاطئ؟ وهل يسـتطيع العودة إليه أو الحديث معه بعدما سمع ما سمعه في ذلك اليوم عندما عاد إلى البيت بالبيض:

«لو سـمعت إنك هوّبـت ناحية هناك حاقطع رجلـك... كفاية علينا كده».

تتـردد أنفاس «بعضشـي» بجوار أذنـه وأبوه في البيـت ينتظر، وهل يسـتطيع العـودة إلى البيت لو جاء الخبر بأنه لـم ينجح؟ لماذا لا يهرب ولماذا لا يكسب هتلر الحرب؟ ولماذا لا تلقي طائراته بكل قنابلها فوق المدينة، ولماذا لا يميت الله كل الإنجليز؟!



الفصل التاسع



لماذا يخاف؟

دائمًا يخاف!

إذا لعب خاف العقاب...

وإذا تشاجر خاف أن يُهزَم...

وإذا ذهب إلى المدرسة خاف عقاب الناظر...

وإذا دخل الامتحان خاف من الرسوب...

وإذا قابل الناظر خاف...

وإذا رأى أباه خاف...

وإذا تذكر الله خاف...

وإذا أحب «أوظه» وأراد الزواج منها خاف...

حتى «بعضشي»... يخاف من اللعب معه...

لماذا يخاف؟!

ولماذا كتب الله عليه أن يخاف دائمًا؟!

ولماذا لا تخاف مثله «أوظه»... ولا يخاف مثله «حامد» أو «بعضشي»؟!

متى يموت أبوه؟!

هـذا هـو الشـيء الوحيـد الذي لا يخـاف منـه... مـع أن كل الناس - حتى «بعضشي» و«أوظه» - يخافون موت آبائهم!

ولو مات أبوه فلسـوف يصبح رجل البيت... سـيحكم ويأمر وينهي ويخـرج ويدخـل كيفمـا شـاء... سـيأمر إخوتـه بالصمـت فيصمتـون وبالحديـث فيتحدثـون، ومـن يعصيـه منهم فلسـوف يضربـه بالعصا، وسـيربطهم جميعًـا في السـرير بالحبـال، ويدخن أمام أمـه... ويتزوج «أوظه» إن أراد!

يأتيـه نداؤها من بعيـد فينتفض ويتنفس ملء صـــدره، كـان موقنًا أنهـا لا بد آتية، ولطالمـا تمنى أن يراها مثل ناديـــة، نظيفـة مثل أولاد النـاس... وكانـت كذلك في أول أيـام العيد، كانـت أجمــل من كــل بنـات الدنيا... يومهـا كانت تصرخ فيه كلما اقترب منها حتى لا يتسـخ فسـتانها أو تتكسـر آثـار المكـواة عليـه... فـي الصبـاح لـم تركب معه المراجيـح، ولـم تلعب معـه في الوسـعاية، وعندمـا دعاهـــا لركوب القـارب والذهاب إلى البر الثاني رفضت: «فسـتاني يا اخويا»... هزت كتفيها وأعطته ظهرها ومضت تعرج في الحذاء الجديد... ثم جاء وقت الضحـى فاتسـخ الفسـتان وركبـت المراجيـــح، وتهـوش شـعرهــا وخلعت حذاءها، وظلت تعرج... ثم ركبا القارب وعبرا النهر واستحما فـي الميـاه وعــادا معًـا آخـر النهــار بعــد أن تزوجـا تحـت قوائـم الكوبري الهائلة!!

«يا اسمك إيه... يا اسمك إيه... إنت نجحت واللا سقطت؟!».

يملأ صوتها السكون فيهبط «بعضشي» السلم إلى الميدان ليلتقط طوقه ويستقبل «أوظه» وهي تعدو نحوهما بكل عزمها... حذاؤها في يدها وقدماها حافيتان وشعرها مهوش وفستانها قد ازداد اتساخًا... تغمره الراحة فيستسلم للنسمة الآتية من البر الثاني... ويتلاعب «حامد» بأجراس الدراجة ويدور بها في الميدان دورة وهو يصيح:

«البر التاني... يا بتوع البر التاني».

لا يهتم، ولا يتحرك ولا يشعر بالغيظ، وعندما تتوقف «أوظه» عن الجري وتلتقط من الأرض حجرًا تقذفه به يبتسم، ثم يضحك عندما يميل «حامد» مبتعدًا وهو يردد الجملة بصوته الغليظ...

ترتمي «أوظه» عن يساره و«بعضشي» عن يمينه وتجرف أقدامهما تراب الرصيف... ثم تهتف «أوظه» به:

«ما تقول يا اسمك إيه... إنت نجحت والا سقطت؟!».

يوم رآهما «حامد» وهما عائدان من البر الثاني كان شعرها ما زال مبتلًا، وقطرات المياه جفت غير أنها تركت آثارها على وجهيهما، هب الهواء من كل ناحية فشعر بجسده الملتهب وكأنه يسبح في بحر من الحنان... عند منتصف الكوبري كانت «أوظه» تضع يدها حول كتفه، وكان خده غارقًا في شعرها الرطب... ثم طالعها وجه «حامد» فجأة فاغرًا فاه بارز العينين...

«كنتم فين يا وله؟ كنتم في البر التاني؟!».

زجرته «أوظه» فدار حولها مبتعدًا، لكنه أتاه من الناحية الأخرى والتصقت شفتاه بأذنه وجاءه الصوت الغليظ:

«لعبتوا عروسه وعريس يا وله؟».

سبته «أوظه» وسبَّت أمه وأباه وقالت له: يا ابن الأقرع... فلم يهتم، وراح يلاحقه بالتهديد والوعيد:

«حاقول لابوك... استحميتوا؟ تاخدني معاك المرة الجاية؟ طب ودين النبي لانا قايل لامك».

كبَّله العجز يومها ولاحت له العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين وكأنه خلق ليرتعد بذكرها، ولو تشاجر مع «حامد» لوصل الأمر حتمًا إلى أبيه... والشارع المليء بالناس.. والكوبري المزدحم بالخلق... لكن «أوظه» أنشبت أظافرها في عنق «حامد» وعضته... ثم ألقته على الأرض وأرغمته على البكاء... وضحكت عليه مع عيال البلدة جميعًا...

«أمك بتقول إنك جيت تسأل جوز عمتك».

يختفي «حامد» بالدراجة في منعطف الطريق... وتختفي أجراسها ويصبح السكون لذيذ الطعم... ولو شتمه «حامد» أمام العيال ذات يوم، ولو ضربه وتحداه، فهل يخاف؟!

يقترب خدها الساخن المبتل بالعرق من خده وتستند إليه بكليتها قائلة:

«أمك بتقول إنك جيت المحطة تسأل على النتيجة».

ولا بد أن أباه يجلس الآن فوق الكنبة خلف شيش الشباك وهو يدخن في انتظاره... ولا بد أن أمه تروح وتجيء ما بين غرفة النوم والبلكونة وهي تتمتم بالآيات والدعوات ويدها تحت ثديها الأيسر تمسك بها قلبها...

«خالة أم سيد كانت عند أم حامد وبتقول إنهم بيفرقوا شربات».

ولو رسب بعد هذا لكانت الطامة... في بيت «حامد» زغاريد والدنيا كلها عرفت بالخبر، ولا بد أن كل التفاصيل قد وصلت شارعهم، ولا بد أن كل بيت يريد أن يعرف... ولا بد أن تتساءل الأمهات ويستفسر الآباء، ولا بد أن تطل الرءوس من النوافذ وتتحدث عبر الشارع... العيال أمام البيوت وهذا موعد بائع الدندرمة... إخوته يهبطون السلم صائحين.. وفي يد كل منهم مليمه... لا يريد المزيد، وصوت أمه يلاحقهم فوق السلم وتحذيراتها تصاحبهم حتى باب الشارع ألا يتعدوا، وهي لا بد ستدخل وتغلق الباب وتستند إليه بظهرها وترفع يديها نحو الله داعية بصوت ذليل:

«يا رب... يا رب، انت عالم وغيرك ما يعلم... تخليك معاه وتنجحه ابن قلبي وحشايا!!».

الصفارة المشروخة عند النصابة... ونداء عم عطية المنغم:

«دندرمه... دندرمه يا وله.. دندرمه يا بت!».

وسيخرج عم «علي سراج» والد «بعضشي» بكرسيه أمام باب بيتهم ليدخن الشيشة ويلعب في أصابع قدميه ويحدث الرائح والغادي ويرد تحية عابري الطريق... لماذا يعرف عم علي كل الناس؟! وسيأتي حتمًا عم ياقوت ويصيح على أبيه من الشارع في مرح:

«يا ثابت... وله يا ثابت».

هكذا يفعل دائمًا، وهكذا فعل في العام الماضي عندما نجح فجاءهم بالخبر وأذاعه على الشارع بكل صوته، لكنه اليوم سوف

يسأل، وسيخرج أبوه إلى البلكونة، وتتوارى أمه خلف الستارة لتسمع، وسيعرف كل الناس بالحكاية، وستسأل أم النواجي كل دقيقة إن كان قد وصل من المحطة، وستدعو له أم «أوظه» بالنجاح والفلاح، ويتردد اسمه في الشارع... ويتردد اسمه في سكون المحطة، وتمسك «أوظه» بذراعه... ثم تجذبه:

«ما تقوم يا خايب... النتيجة ظهرت!».

يضطرب قلبه وهو يرى عم سعداوي أمام باب المكتب... ها هي اللحظة قد حانت، إنهم الآن يعرفون، وعم سعداوي يشير إليه ويصيح:

«جرى إيه يابني... انت انطرشت؟!».

لم يقل له مبروك... فلا بد أنه رسب، ويسأله «بعضشي» بقلق:

«هيه النتيجة ظهرت يا ويكا؟».

يبدأ في قراءة الفاتحة وتسري البرودة في جسده، يعاود عم سعداوي النداء فيرد بصوت مرتجف:

«حاضر يا عم سعداوي».

يبتسم الرجل فيداخله الأمل!

«عمي كامل اتكلم من البندر؟!».

ويخبط الرجل كفًّا بكف:

«أيوه يا سيدي اتكلم».

يقولها الرجل ثم يختفي داخل المكتب.. وتصر في أذنيه عشرات الأصوات، ويلتصق «بعضشي» بجنبه ويهمس:

«ظهرت!».

وتدق «أوظه» الأرض بقدمها في غضب:

«ما تروح تشوف النتيجة بتاعتك يا خايب!».

ويتقدم من المكتب وهما بجواره، «بعضشي» يسأل و«أوظه» تزجر، وما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قد انكشف... فلماذا كان العذاب من البداية؟ يتذكر الناظر قبل باب المكتب بخطوات... فيرتجف ويتوقف ويلتفت نحوهما متوسلًا:

«خليكوا انتو هنا أحسن الناظر جوه».

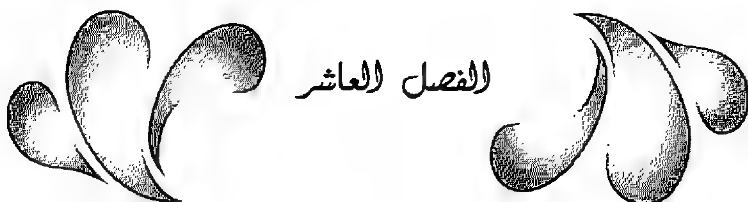
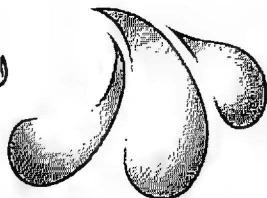
يجمد «بعضشي» في مكانه ويحملق فيه برهة ويردد متراجعًا:

«الناظر؟!».

وتنتفض «أوظه» ويداها في خصرها، وتلمع عيناها بالشر:

«وإيه يعني الناظر... أنا رايحه هناك... حد شريكي؟ إوعى ياالله...».

ثم تنطلق أمامه نحو باب المكتب لا تلوي على شيء؟!

الفصل العاشر

يأكلـه الخوف أكلًا... ويلفه هواء المكتب البارد فيرتجف، ويطالعه وجه الناظر وابتسـامة عم إسـكندر ونظرات عم مينا الفارغة... تمضي الثواني ولا ينطق منهم أحد فلا بد أنه رسب بالفعل...

«جوز عمتك اتكلم».

يقولها الناظر وهو يطارد ذبابة بمنشـته... يخفق قلبه بعنف وتسـوخ روحه ويسمع صوت نفسه آتيًا من بعيد:

«أنا سقطت؟».

يقهقـه عم مينا بضحكة سـرعان ما تتسـاقط بين ركبتيـه، ويقول عم إسكندر في مرح:

«إنـت خفت يا جن؟ أبـدًا... جوز عمتك بعت يسـأل على النتيجة، ولما يعرف حايطلبنا».

يغرقـه العرق البارد وتخرج من صـدره زفرة طويلة، وعندما تحدث وجد صوته عاليًا بالرغم من إرادته:

«يعني أروح البيت واللا استنى هنا لحد ما يقول لحضرتك؟!».

ويصيح الناظر في وجهه كإنذار:

«إنت بتتكلم بصوت عالي ليه يا ولد، هو ده اللي أنا علمتهولك؟!».

يبتلع لعابه ولا يدري ماذا يقول... ثم يلاحقه صوت الناظر:

«لا ما تروحش البيت، محدش عارف يمكن كامل أفندي يطلبنا دلوقت... والا إيه يا مينا افندي؟ كلها نص ساعة بالكتير، والا إيه يا إسكندر افندي؟ أنا حاطط همي على العفريت ده... والمسيح الطاهر... إوعى يا ولد تبعد عن المكتب وإلا... ...».

تتجمد حركات الناظر مع توقف حديثه وحملقة عينيه خلف ظهره عند الباب... يتجمد كل وجهه ويبدو عليه القرف وهو يشير بالمنشة:

«إيه ده يا ولد؟!».

هو لا يرى «أوظه» وإن كان يحس بها خلف ظهره... تلعثم وتراكمت الكلمات على لسانه:

«دي.. دي أصلها... دي أوظه يا حضرة الناظر... أوظه».

يضحك عم إسكندر وتزداد ملامح الناظر تداخلًا حتى يصبح كالأنف الكبير، ثم تنفرد الملامح ويستبين الوجه ويسأله في قرف شديد:

«مين؟ أوظه دي إيه؟ حضرتك بقيت بتاع شوارع... دي أشكال يا أفندي تمشي معاها؟!».

يسود الصمت فترتد رأسه إلى الخلف ليرى «أوظه» ووجهها ينذر بالشر، يتلو في سره ما حفظ من آيات، ويدعو الله أن يمنعها من الرد على الناظر... ثم ينقذه صوت عم إسكندر:

«يا الله يا بني روح العب ولا يهمك... والعدرا انت ناجح».

يستدير مستجيبًا ليرى وجه «أوظه» وقد استولت عليه الدهشة فغيرته، يسير مقتربًا منها حتى يصطدم بها عن عمد، ولا يلتفت وراءه إلا عندما يغادر المكتب ويبتعد عن بابه... وكانت «أوظه» خلفه تمامًا... تلتقي عيناها بعينيه فتصيح في وجهه:

«إن شالله ينطس في نني عينه الناظر بتاعك... يا رب أبوه يموت».

بالرغم من يقينه أن أبا الناظر قد مات منذ زمن، فإن الخوف يعتريه... يجذبها من ذراعها ويعدو بها نحو «بعضشي» الذي يأتي إليهما عدوًا وهو يصيح:

«ويكا... ويكا... نجحت يا ويكا؟».

يلتقي بهما في منتصف الطريق وكانت «أوظه» تصرخ فيه أن يترك ذراعها، لكنه لا يتوقف، فظل يعدو مبتعدًا وهي تقاومه وتسبه وتسب الناظر... لم تتحول إلى أبيه وأمه وتسبهما رغم أنهما أقارب، يصلان إلى سلم المحطة ليلحق بهما «بعضشي» وتجذب «أوظه» ذراعها من يده صارخة فيه:

«إن شالله إيدك تنقطع».

«أهو إنتي».

«إن شالله يطسك وابور».

«أهو إنتي واللي خلفوكي كمان».

«يا رب تسقط».

لا يرد... ولا يقول لها شيئًا، يحس بالحيرة... لكنه لا يحس بالغيظ، كان صوتـه عاليًـا وكان غاضبًـا منها أشـد الغضـب، ولكـن... هل من الممكن أن تتمنى له «أوظه» أن يرسب؟!

«الله يسامحك».

يقولها حزينًا متجهًا نحو قطعة الحجر الملسـاء بجوار الزير، يجلس ويمدد ساقيه ويتساءل عن سر هدوئه الشديد، ولو قالوا له الآن إنه رسب بالفعل فلن تهتز في رأسـه شـعرة... لن يحزن، سيحبس نفسه في البيت ويذاكر ليل ونهار... ولن يخرج أبدًا... سـيقتل نفسـه كي ينجح وينتقل إلى المدرسة الثانوية في البندر ويغادر البلدة بما فيها... يختفي «حامد» بدراجتـه ويخلـو ميدان المحطـة من الناس فيحس بشـيء مـن الراحة، سيسـافر حامـد كل يوم فـي قطار الصباح وسـيعود في قطار المسـاء... فمـاذا يكـون مصيره هـو؟! ويلوم «بعضشـي» «أوظه» ويطلـب منها أن تصالحه فهو زوجها، وتخرق أذنيه كلماتها الغاضبة وهي ترفض.

قالت له بالأمس وهما غارقان في تلال الرمال إنها تدعو له كل فجر بالنجـاح... فلمـاذا دعـت عليـه بالرسـوب إذن؟! ولمـاذا تجعـدت ملامـح الناظـر بالقـرف عندما رآهـا؟! ولمـاذا تتحدث أمه عـن أهلها بكبريـاء؟! هي ترفـض الصلح وتضـرب الأرض بقدميها وتسـبه أيضًا وتسـب الناظر رغم أنهما تزوجا بالأمس وأول أمس... لكنه لن ينسـى المرة الأولى أبدًا...

مـاذا لو مات زوج عمتـه قبل أن يعرف النتيجة وقبل أن يخبر بها عم مينا؟! يشـمئز من نفسه ويستغفر الله مرات ومرات... ثم يسمع صوت «أوظه» فوق رأسه حادًّا قاطعًا:

«اشمعنى هو يشتمني؟!».

يقترب منها «بعضشي» ويقف قبالتها ويكاد يلتصق بها، فيشعر بالضيق:

«مش الناظر بتاعه؟!».

«وانا ما لي!».

«هوه كمان مش بيحب الناظر...».

«وانا ما لي!».

«هوه الدم يبقى ميه؟!».

«اسم الله... أنا ما ليش دعوة، شتمني، واللي يشتمني أشتمه».

«مش انتو قرايب؟».

«فيه واحدة تعمل في جوزها كده؟!».

«مش جوزي... هوه بالعافية؟ أنا حاتجوز واحد تاني».

كلما نظر إليها أحس بالفرح يغمره، كلما ازدادت غضبًا ازداد بريق عينيها الخضراوين... هو لم يطلب منها الزواج، هي التي طلبت منه في أول مرة وقفت فيها أمامه عارية في البر الثاني... الشمس المائلة خلف الكوبري... والظلال المنتشرة فوق الرمال من حولهما... هبت نسمة هواء أنعشته فخلع حذاءه وألقاه بجوار حذاء «أوظه» عند سفح كثبان الرمال... أدلى قدميه في المياه... اقشعر بدنه بلذة عنيفة... فصرخ... كان قد طاوعها فعبرا الكوبري ثم استدارا هابطين نحو الشاطئ الرملي بعيدًا عن معسكرات الإنجليز. قطعا الساحل الرملي عدوًا نحو المياه،

مرات قليلة تلك التي استحم فيها في النهر، ولا يستحم في النيل والترع إلا أمثال «عبورة»... و«النواجي»... و«زيد» ابن خالة زليخة الغسالة... يبولون دمًا ويذهبون إلى المستشفى ليُحقنوا... ويحكي عنهم عم رزق كثيرًا في سهراته مع أبيه...

«البلهارسيا بتاكل عمر الولاد يا ثابت، إوعى ابنك ينزل الميه والا يروح ناحية الترع».

هو أول من يعلم مصيره لو أصيب بالبلهارسيا أو علم أبوه أنه استحم في النيل، حتى ولو جاءت سليمة ولم يَبُلْ دمًا، فلن يكون العقاب يومئذ الركل.. والضرب... والشتم... والإهانة... وسماع الجيران لصراخه... سيكون العقاب ويلًا لا سبيل لعقله أن يتخيله، وليس عليه إلا أن يخاف دائمًا... وأن يظل خائفًا...

ابتسمت له «أوظه» وهي تقبض على يده تجذبه معها نحو المياه فأطاع، كان يستطيع أن يرفض لو أراد حقًّا، لكنه أراد حتى ولو كانت العلقة بسيخ محمي في النار، لا سبيل لتجنب العقاب يومًا أو آخر... أقل هفوة تضعه تحت ضغط عذاب متصل، ومنذ ذلك اليوم الذي حدثه فيه أبوه فوق الرمال لم يسمع منه كلمة حلوة، وفي اليوم التالي عادت ريمة إلى عادتها القديمة، فليقع العقاب إذن وليحدث ما يحدث... ترى... هل ينجح؟

«تيجي نعوم؟».

قالتها «أوظه» في ذلك اليوم وهي تبتسم له مقتربة منه، وتلاعب هواء الغروب الدافئ بشعرها فتطاير وداعب خده، وتنهد... وتمنى

لو استطاع أن يقبلها، تمنى ذلك حتى كاد يفعلها ويصبح مثل «بعضشي» ويدخل النار... ودهمته نظراتها الخضراء فتراجع، كانت عيناها واسعتين جسورتين وكان يخافهما ويحبهما بكل قواه... بحث عن صوته عندما لاحقته بالسؤال مرة أخرى:

«ما تيجي نعوم يا اسمك إيه».

قال لها وهو يهز كتفيه ويغمره الخجل:

«أنا ما اعرفش اعوم».

«آني نعلمك...».

«أصل... أصل الميه غويطة..».

«دنا بنعدي للشط التاني...».

«من غير ما تغرقي؟!».

«ده العوم كدهُه يا عبيط... ده أسهل حاجة في الدنيا».

«صحيح؟!».

«وحياة المرسي أبو العباس وإن شالله انطس في عنيه...».

ماذا بعد الموافقة؟

«يالله يا اسمك إيه... يالله».

كانت أسبق منه للإجابة عن السؤال الذي دار بخلده، راحت تخلع ملابسها جميعها فاضطرب... ثم غمرته السعادة والدهشة وهو يرى ساقيها تتعريان أمامه حتى نهايتهما... كانت «أوظه» بيضاء رغم أن وجهها أسمر، ارتجف بالفرحة فراح يخلع ملابسه على عجل، وعندما

أصبح عاريًا أحس بالخجل فدارى نفسه وغسل الهواء صدره وظهره وبطنه فأغمض عينيه بنشوة طاغية، واندفعت «أوظه» نحو المياه عارية كما ولدتها أمها، ولم تكن خجلانة... اندفع هو الآخر خلفها حتى غطت المياه ركبتيه فتوقف... راحت تضرب المياه بذراعيها وقدميها وتبتعد موغلة نحو الداخل وهي تنادي عليه:

«تعالى يا اسمك إيه...».

وارتعد...

توقفت «أوظه» في المياه وأخذت تضحك عليه، فضحك معها بأعلى صوته، ضرب المياه بذراعيه وارتجف عندما غمرته قطراتها المتناثرة من حوله... اندفعت تسبح نحوه حتى اقتربت منه وسارت خطوتين والمياه تتساقط من وجهها وشعرها، ثم وضعت يدها على كتفه وكانت تبتسم، ارتجفت وبرقت عيناها ثم همست:

«إنت اسمك إيه؟!».

وقبل أن ينطق اسمه، وقبل أن يفتح فمه دفعته بيدها فسقط على ظهره في المياه، تعالت ضحكاتها وتقلب جسده في المياه وحاولت «أوظه» أن تركب على ظهره... انتابه الخوف قهرًا... لكن ملمس الأرض تحت يديه وقدميه بعث إلى نفسه الاطمئنان... كانت «أوظه» تضحك وكان هو يضحك معها، أحس فجأة أنه سعيد لدرجة لا تحتمل... تذكر أباه فلم يهتم وراح يضرب المياه بيديه وذراعيه وتعالت في الجو صيحاته... ثم سمع صوت «حامد» ونداء «بعضشي»... لكنهما لم يظهرا فوق الكوبري ولم يهبطا إلى الشاطئ...

دق قلبـه وهو يلعـب معها ويدفعها ويترك نفسـه لدفعاتها وأحس وكأن في صدره فرقة موسـيقى المركز، تعزف له وحده... تذكر الله والأنبياء والجنـة والنـار فابتسـم... اقتربت منـه «أوظـه» وأخذت تعلمـه العوم فلـم يخف ولـم يتراجع... مالت الشـمس أكثر واقتربت من حافة الأفق فأحـس بالبرد، وكانـت المياه دافئـة... ارتعد فكه الأسـفل واصطكت أسنانه فصاح بصوت مرتجف:

«أنا خارج».

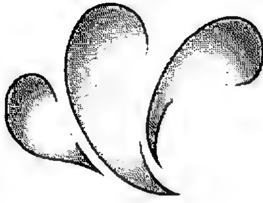
وراح كل منهمـا يرتـدي ملابسـه... وكانـت «أوظه» هـي الأخرى ترتعد... ثم جريا معًا نحو الكثبان وألقيا بنفسـيهما فوق الرمال وتمرغا فـي الرمال الدافئة... ثم التفتت نحوه «أوظه» فجأة، وصوبت إلى عينيه نظراتها الخضراء... وصاحت:

«تتجوزني يا اسمك إيه؟».

هز رأسه موافقًا وقلبه يضطرب بالسعادة، فعاجلته قائلة:

«يالله نقرا الفاتحة».

وكانت كفها ممدودة في انتظار كفه!



الفصل الحادي عشر



يدفعها «بعضشـي» نحوه فتمد إليه كفها وقد فردت أصبعيها السبابة والوسطى قائلة:

«صالحني».

يرفع إليها عينيه وتنتابه الرغبة في البكاء... فكيف تستطيع أن تخاصمه؟!

«بنقول لك صالحني يا اسمك إيه... أنا مصالحاك».

يمـد إليهـا أصبعيـه ويلامس بهمـا أصبعيها ثـم يرفعهما إلى شـفتيه ويلصقهما بهما دون صوت...

«مش حاتبوس؟ مش حاتصالح؟!».

وتظـل كفها معلقة في الهواء دون أن تقبل أصبعيها في انتظار علامة صلحـه... ويُقبـل أصبعيـه فتقبـل أصبعيهـا ويصيـح بهما «بعضشـي» في مرح:

«يالله نستحمى بقى يا ويكا».

ولا يـرد على «بعضشـي» فقد جلسـت «أوظه» علـى الأرض تحت قدميـه وحذاؤها مدلى بين أصابعها وكأن شـيئًا لـم يحدث... ترفع إليه عينيها ثم تسأله في شك:

«حا تنجح والا حاتسقط؟».

ويلاحقها «بعضشي»:

«إن شالله ناجح بإذن الله... مش كده يا ويكا؟».

وتقول «أوظه»:

«أنا ما يهمنيش».

«ما هو انتِ بنت... لكن هو ولد».

«مانا سقطت السنة اللي فاتت، وكنت في سنة تانية».

تتنبه كل حواسه فيسألها:

«باباكي ضربك؟!».

وتنفجر عيناها بالغضب وتضع يدها في خصرها وتصيح به:

«إن شالله اللي يضربني تنقطع إيده».

«حد يقول كده على باباه؟!».

«هوه انا ابويا زي أبوك... دانا لما سقطت اداني قرش صاغ... وجاب لي لب وحمص وكراملة وجيلاتي كمان!».

يصدقها على الفور... فهو لم يسمع مرة أن «أوظه» قد ضُربت. يبدو له أن الأمر غريب ومحير فيهرب من عينيها إلى الرصيف الخالي، وتسقط نظراته فوق قضبان القطار اللامعة، وتنزلق فوقها بسرعة، بسرعة حتى تلتقي جميعًا عند الأفق... كم يحب السفر!

ولا يزال الرصيف خاليًا من الناس، ولا تزال موائد البوفيه كما هي، كل شيء هامد ساكن فلا صوت سوى طنين الذباب الطائر من حولهم، وحفيف لهب الشمس الحارق... ويسيل العرق خلف أذنيه وتنزلق

قطراته على عنقه... فلماذا لا يذهب إلى عربة القطار الخالية ليتمدد في بيتـه مع «أوظـه»... العربـة مقفلة الأبـواب... لكنه يعـرف الطريق إلى داخلهـا خـلال الشـباك المكسـور، يريـد أن يأخـذ «أوظه» إلـى بيتهما هناك... لكنه يخشى أن يعرف «بعضشي» سرهما... تمرق قطة من باب المكتـب إلـى الرصيف فيبدو لـه الباب كفوهة بئر تسـكنه العفاريت... قالـت لـه «أوظه» مؤكدة ومقسـمة إنها رأت جنية ذات يوم تسـتحم في النهر، فدهش... وسألها كيف لم تخطفها الجنية؟ وسخرت منه «أوظه» ضاحكة:

«هـوه انا صبـي يابني؟! الجنيَّـة بتخطف الصبيان علشـان تتجوزهم وتسـكنهم معاهـا تحـت الميـه... وبعديـن تسـمنهم وتاكلهـم هـي وأولادها».

القصور الذهبية... وريش النعام... والزمرد والياقوت... مع النعيم فـي حيـاة الجنيات، ولـو كانـت النهايـة أن يتحول إلـى طعـام، فلماذا لا تخطفه جنية؟! البيت المهجور في شارعهم مسكون بالعفاريت وقد سـمعتهم أمـه ذات ليلـة كان أبوه فيهـا مسـافرًا... وفي الصبـاح كانت تحكي لأم «أوظه» من البلكونة:

«صوتهـم ياختـي زي صـوت المعيـز، ورجليهم عمالـة تخبط فوق سـطح البيـت رايحـه جايـه... وفضلـوا علـى كـده لمَّـا الفجر مـا قاله الله أكبر!».

صدق أمه كما صدق «أوظه»، وكان يسهر في الفراش حتى منتصف الليل ويصبح للسـكون تلك الرائحة التي تخنقه، وكان يزحف متسـللًا إلى الصالة على أطراف أصابعه حتى لا يسمع خطواته أحد، ويدق قلبه

ويغص حلقه بالرعب... لكنه يريد أن يرى... يخرج إلى البلكونة في عز الليل المظلم وحده، ويقبع في عز البرد ويرتجف بالخوف والهلع والمصير المجهول في انتظار رؤيته للعفاريت ورؤية العفاريت له، لكنه أبدًا لم يرها ولم يسمعها... ورأت «أوظه» الجنية «في لفحة الضهرية!»، فذهب إلى الحقول البعيدة عند أطراف البلدة، وجلس وحده على الشاطئ والشمس في منتصف السماء تمامًا، وانتظر الجنية أيامًا بعد أيام... لكنها لم تظهر!

«ما لك ساكت كده يا اسمك إيه؟».

تقولها «أوظه» فيبتسم لها ويتنهد ويفتح فمه ليحدثها عن العفاريت فيلمح رأس عم سعداوي تطل عليهم من باب المكتب لثوان ثم تختفي... يعود قلبه إلى الخفقان وتقف الكلمات في حلقه، فلا بد أن عم كامل يحدث الآن عم مينا بنقرات الآلة الصفراء، ولا بد أن عم سعداوي كان يتأكد من وجوده... وينتفض «بعضشي» من رقدته على أرض الرصيف بجواره وقد انتابه القلق والضيق:

«حاتستحمى بقى يا ويكا... الدنيا حر قوي؟».

وتهتف به «أوظه» وهي تهب واقفة:

«ياالله نروح البر التاني».

ترى... كيف سيصبح شكله عندما ينجح؟ وإذا سار في الطريق الممتد فيما بعد ميدان المحطة سيصل إلى صالون فاروق ومن بعده قهوة خريستو، فإذا انعطف إلى اليمين سيجد عم ياقوت جالسًا في ظل دكانه مع عم رزق في انتظار أبيه، ولا بد أنهما الآن يتحدثان عن

النتيجة... الشـارع بمقاهيه ودكاكينه حتـى الناصية... ودكان محجوب الفكهانـي... ولقـد نجح ابن محجـوب في العام الماضـي وذهب إلى مدرسـة الصنائـع وخط شـاربه تحـت أنفه وأصبـح يسـافر كل يوم إلى البندر ويدخن السجائر في الشارع دون خوف، فمتى يأتي دوره؟!

«ما تقول بقى يا اسمك إيه... ما لك ساكت كده؟!».

يبـدو «بعضشـي» حولهمـا بطوقه وهو يقلـد صوت القطـار مرة... والسيارة مرة أخرى...

«إنت لازم خايف تسقط!».

ولا بد أن الجميع داخل المكتب يسـتمعون لنقرات آلة التلغراف في صمت وانتظار، وعما قليل سـيناديه عم سـعداوي وينبئـه بالخبر، فماذا يفعـل لو كان راسـبًا؟! تعـود «أوظه» إلـى الجلـوس بجـواره وتضـع خدهـا المبتـل بالعرق فوق ركبتـه وتضحك على «بعضشـي» وهو يقلد بائـع الدندرمـه... وبعد دكان محجـوب الفكهاني يمتد السـوق بغلقانه وعرباته، ورائحة الخضار واللحم وبخار الخبز الساخن، وما زال الوقت مبكـرًا فالإنجليـز لا يظهرون في البلد إلا مع نسـمات العصر... شـاهد تشارلي مرة في البار المواجه لبيت طنط جانيت، وعندما ابتسم له وناداه لوى عنقه ومضى في طريقه دون أن يرد ابتسامته وسمعه ينادي عليه مرة أخرى، وثانية، وثالثة، ورابعة، فأطلق لساقيه العنان ودخل البيت.

«ويكا... ويكا... البكيت جه... البكيت اهه...».

وينتفض ملتفتًا وتدير «أوظه» رأسـها نحـو بداية الرصيف من ناحية المزلقان...

«وإيه يعني البكيت، يلعن أبوه ابن كلب... ده أبويا بيقول تلاقيه بيشتغل خدام في بلدهم!».

عند أول الرصيف كان البكيت يسير بقبعته الحمراء والشريط الأحمر حول ذراعه وقدماه تدقان الأرض... وعيناه تنفثان الشر، وكل الناس يعلمون أنه يحب ابنة خريستو صاحب البار، ولقد رآه معها عدة مرات في الظلام خلف الطابية، وقال أبوه ذات مرة إنه سيتزوجها ويأخذها معه إلى بلاد الإنجليز بعد انتهاء الحرب، وإذا كان البكيت يعمل خادمًا في بلاد الإنجليز... فكيف يفعل كل ما يريد دون أن يعترض طريقه أحد؟! وجهه الشديد الاحمرار... وأنفه الكبير... وعيناه الزرقاوان... وحتى عساكر الإنجليز يخافون منه ويعملون له ألف حساب، يقف «بعضشي» في مكانه جامدًا محملقًا وتعتدل «أوظه» في جلستها وتتشبث بساقه فقد وقف البكيت عند البوفيه... وراح ينظر نحوهم، ويهمس «بعضشي» بصوت مرتجف:

«ده كان في البلد من شويه يا ويكا... بيقولوا فيه حاجات اتسرقت وحايفتشوا البيوت».

وتظهر ماريكا صاحبة البوفيه من الداخل... فيبتسم «البكيت» ويختفي خلفها ويعود كل شيء إلى حاله، وإذا فتش «البكيت» كل بيوت البلدة... فهل يستطيع أن يفتش بيتهم؟ لماذا يخاف الناس من الإنجليز؟ ولماذا يفعل الإنجليز كل ما يريدون؟ ولماذا يخطفون الفتيات في الإسكندرية كما تقول «أوظه»؟! ولماذا لا يأمرهم الملك بأن يتركوا البلدة؟! ولماذا يستطيع البكيت أن يفعل كل شيء؟ ولماذا يخافه الكبار والصغار... ويقدم له خريستو الخمر بلا ثمن، كما يقول

أبوه؟ زحام السوق والهرولة والصرخات... ولكمات البكيت المنهالة فوق وجه جابر ابن الجزار، الضربات الموجعة والمدى الحادة وصنج الميزان والعصى... والجسد الملقى فوق الأرض مذبوح الوجه، والدم السائل بغزارة، والناس تهمس وتتراجع: «**بيقولوا إن جابر سرق صندوق شاي!!**».

الخوذات والسيارات والصفارات والصرخات... طلقات الرصاص تدوي في عز النهار، الذعر والخوف والدكاكين المغلقة وأقدام الناس تلهف الأرض والشوارع الخالية... وهو يعدو بين السيقان إلى بيتهم، يدفعه رجل يجري ويدوس فوقه آخر، لكنه ينهض... وعند نهاية السوق وقف العجلاتي والحداد وفي أيديهم قطع الحديد ودماؤهم تسيح وملابسهم ممزقة، يدلف إلى شارعهم مرتعبًا ويعدو صارخًا فيسأله الحلاق... وتطل زوجة الكناري... تصرخ أم النواجي... ويغلق بيت عم علي سراج... وفي النهاية بيت الفرازي صامتًا... وكل النوافذ مغلقة، ومن عند ميدان الكنيسة هبت الأحذية الغليظة ورأى النار في فوهات البنادق ودوت في أذنيه طلقات الرصاص وصرخات النسوة... ونحيب العيال، ثم ماتت الدنيا من حوله في الصمت فبال على نفسه... وتعالت صيحات الجنود في الشارع... وقال أبوه من خلف النافذة المغلقة:

«**سكرانين في عز الضهر... سكرانين!!**».

في تلك الليلة عم البلدة ظلام دامس، ولم يخرج أبوه من البيت، ولم تفتح أمه النافذة... وفي الصباح التالي لم يذهب إلى المدرسة... فامتلأ بالسرور، ثم بكى عندما انطلقت أم بعضشي بالصوت مولولة،

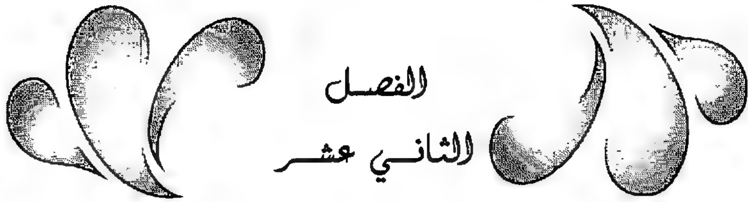
ورأى جثمان «عبورة» شقيق «بعضشي» محمولًا في النعش وكل الناس تبكي... وسمع أمه تهمس:

«بيقولوا لقوا في جتته عشر رصاصات يا ثابت أفندي!».

وبدا له أن أباه لم يسمع حديث أمه، بدا يومها شاردًا... ودخن كثيرًا... وكان يتمتم محدثًا نفسه طوال اليوم، ولم يذهب إلى عمله، ولم ينم بعد الغداء، ولم يعد إلى البيت إلا عندما خرجت الجنازة... وعاد من المقابر ليجده جالسًا مع «بعضشي» عند باب البيت، فلم يغضب ولم ينهره، بل أخرج من جيبه قرشين وأعطى لكل منهما قرشًا، ثم ربت على رأسه وهو يقول:

«روحوا العبوا يا ولاد... روحوا العبوا».

وكان الذي أدهشه وأقلقه، أن عيني أبيه كانتا منتفختين، وبدا له أن أباه كان يبكي! ترى... هل ينجح؟ ترى... هل ينجح؟



ماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!

يتكئ بجوار باب المنتزه... ثم يتوقف عن السير... ويفكر في الدخول...

تمطره «أوظه» بالأسئلة، ويلح عليه «بعضشي» أن يجيب وقد بدت عليهما الحيرة...

«مش كنت بتقول إنك ناجح يا ويكا؟!».

يهز رأسه بالإيجاب، ولكن... ماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!

«مش حا تروح تقول لأمك يا اسمك إيه؟ إنت لازم سقطت وبتكدب علينا!».

يستدير نحوها وينظر في عينيها وتتراكم الكلمات على لسانه، ولكن ماذا تقول؟!

«وقفت ليه يا ويكا، مش النتيجة ظهرت، مش حا تروح البيت؟!».

يغلق فمه دون إجابة... وتصيح «أوظه» في انفعال وحدة:

«إنت لازم ساقط».

ويقترب منه «بعضشي»:

«ما لك يا ويكا... مش احنا اخوات؟!».

«ولا يعرف ماذا يقول... فماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!».

وعندما ناداه عم سعداوي، وعندما دلف من باب المكتب... ترك وراءه «أوظه» و«بعضشي» معًا على الرصيف... في الداخل كانت الوجوه الأربعة تفتر شفاهها عن ابتسامات بلا معنى، ينظرون إليه جميعًا ثم ينظر كل منهم إلى الآخر، ويشرئب الناظر بعنقه نحو الخارج ولا بد أنه رأى «أوظه» و«بعضشي» في انتظاره، فصاح بصوت كلسع خيرزانته:

«دي أشكال تمشي معاها يا ولد؟!».

ارتج عليه ورفع عينيه إلى عم إسكندر مستنجدًا، وازدادت ابتسامة هذا اتساعًا، لكنه لم يقل شيئًا... فما الذي حدث؟! وعاد صوت الناظر يشق هواء المكتب:

«تلميذ في ثانوي يمشي مع عيال صياع بالشكل ده؟ وحافيين وهدومهم مقطعة؟!».

ارتجف قلبه بعنف حتى ضربت دقاته سقف حلقه... جف لعابه وسرت في بدنه رعدة... يقول الناظر: **«تلميذ في ثانوي...»**.

فلا بد أنه نجح!

ماذا يفعل؟ هل يضحك؟ هل يبكي؟ هل يصرخ فرحًا؟ ها هي اللحظة قد جاءت... فماذا عليه أن يصنع؟ ارتجف وتدفقت الدماء إلى وجهه فالتهب خداه، وفشلت كل جهوده في السيطرة على ركبتيه المرتعدتين، ثم حجبت دموعه وجوه الأربعة... وأتاه صوت عم مينا من بعيد:

«جوز عمتك اتكلم دلوقت».

ظهـرت النتيجة إذن... وانكشـف الغيب... فلمـاذا يصمت الرجل ولمـاذا تنصهـر ملامحه ثم تسـيل على بعضها البعض، ولمـاذا لا يبتلع دمعه... ولماذا لا يبتسم؟!

«وبيقول إن واحد صاحبه كلمه في التليفون وقال له إنك نجحت».

«والنبي يا عم مينا؟ والنبي؟!».

قالها بفرح... واحتقن رأسه بالدماء أكثر، ولاحقه صوت الناظر:

«اسمع الكلام للآخر يا ولد...».

لم يفهم شيئًا وإن أذعن للأمر عن رضا... وعاد مينا إلى الحديث:

«ده صاحبـه اللي بيقول... إنما هوه نفسـه مش متأكد لسـه، وبيقول إنه بعت يشـتري الجرنان علشـان يعرف بنفسـه ويتأكد... ولما يعرف، حايكلمني...».

ما معنى هذا كله؟ هل هو ناجح أم راسب؟!

تـرددت عيناه فيما بين الوجوه متسـائلًا في حيرة... والتفت إلى عم إسكندر متلهفًا عندما صاح به:

«مبروك يا جن... والعدرا أنا قلبي كان حاسس...».

وشق الناظر هواء المكتب بمنشته، ثم نهض من مقعده صائحًا:

«بـس المهـم المجمـوع... عايزيـن مجمـوع عالـي علشـان اسـم المدرسة...».

وازدادت به الحيرة... فسأل وروحه تهرب منه:

«يعني أروح أقول لبابا إني نجحت؟».

«تقول له إن جوز عمتك مش متأكد».

«يعني أقول لبابا إن... ...».

وقاطعه عم إسكندر:

«يا ابني روح قول له عايزين الشربات... بلا وجع دماغ!».

ورد الناظر بحزم:

«لا يا إسكندر افندي... الدقة مهمة جدًّا في نقل الرسائل... أنا دايمًا أعلم تلاميذي الدقة... زي الإنجليز تمام... والراجل بيقول إنه مش متأكد... إنما يظهر إنه نجح... صحيح دي أنباء طيبة، إنما مش دقيقة... زي البلاغات الحربية بتاعة الأيام دي!!».

وضحك الناظر فجأة، فضحك معه الجميع..

وهذه المرة الأولى التي يرى فيها وجه الناظر ضاحكًا أو مبتسمًا، واستمرت ضحكاتهم تجلجل من حوله، وقال له عم سعداوي: «مبروك يا ابني... ربنا أكرمك علشان خاطر أبوك»... ووجد نفسه يضحك مع عم سعداوي بالرغم منه، حاول أن يوقف الضحك فلم يستطع، ظل يضحك ويضحك حتى دمعت عينا الناظر لكثرة الضحك فارتجف قلبه بالسعادة، واختلطت الضحكات في أذنيه بدقات قلبه التي كانت تهدأ لحظة بعد أخرى لأن أحدًا لم يعترض على ضحكه، ولم يقل عنه إنه قليل الأدب، فلا بد أنه نجح بالفعل... وبدا وجه الناظر جميلًا وهو يضحك، وازداد جمال الوجه ألوف المرات وهو يميل نحوه قائلًا بمرح:

«يالله يا ولد... اجري بشر والدك... مستني إيه؟!».

لسعته شعيرات المنشة على ساقيه... لكنه لم يتألم... قفز من مكانه مستديرًا وعبر الكابينة وواجه عند الباب أوظه وبعضشي... ثم أمسكت به صيحات الناظر:

«قـول لوالـدك إني أنـا واسـكندر أفنـدي جايين نشـرب الشـربات يا ولد...».

راح يعـدو فـوق الرصيـف بـكل قـواه فلـم تلحـق بـه «أوظـه» ولا «بعضشي»، أخذ يصرخ في الفضاء بكل صوته:

«أنا نجحت... أنا نجحت!» وسمع صياح أوظه من خلفه:

«صحيح نجحت يا اسمك إيه؟ طب احلف...».

ورد عليها «بعضشي» وكلماته تتمزق:

«أنا كنت عارف... ودين النبي أنا كنت عارف».

ويجري... ويجري... ويجري... ويصرخ... ويصيح:

«أنا نجحت... أنا نجحت... يا رب!».

يقطـع الرصيف ويهبط السـلم إلـى الميدان الصغيـر ولا يجد هناك أحدًا فيصرخ إلى السماء:

«أنا نجحت... أنا نجحت!».

وعند بداية سـور المنتزه لمح عم فرج الشـيال جالسًا في ظل شجرة وقـد أخلد إلى النوم... واسـتند بسـنمه إلى السـور، فصـرخ به دون أن يتوقف:

«أنا نجحت يا عم فرج!».

فتح الرجل عينيه وابتسم وقال كلامًا لم يسمعه، فبالقرب من باب المنتزه كان حامد يدور بالدراجة وهو يعزف بالأجراس... ولا يستطيع الصبر، لا يستطيع...

«أنا نجحت يا حامد... نجحت يا ابني وطلعت الأول كمان!».

تعثر صوته وضاع وتبددت أنفاسه وهو يقترب من حامد... كان يصيح ويصيح ويعدو ويعدو ولم يتوقف عند الاقتراب من حامد... اندفع بكل قواه نحوه... لكنه اصطدم أمام باب المنتزه بمحجوب بك، فتوقف... وارتد إلى الخلف.

«إيه ده يا ولد... مش تمشي على مهلك يا ابن الكلاب؟!».

تراجع والسعادة تملؤه رغم السبة... فلا بد أن الرجل لم يعرفه... ابتسم وقال بصوت لاهث:

«ازيك يا سعادة البيه... أنا نجحـ... ...».

«إنت مين يا ولد... ابن مين انت؟!».

محجوب بك نصير العدل... الفيلا... والأرض... والخدم... والحشم... والوزير... والقطار السريع الواقف على المحطة، صديق والده الذي يجلس في المنتزه ويشرب الخمر مع الإنجليز في عز النهار دون أن يهمه أحد... فتح فمه لكن صوته انحبس أمام وجه الرجل الغاضب الذي كان يطل عليه من أعلى، وتقهقر مدحورًا عندما أتته الصرخة:

«إنت اسمك إيه يا ولد؟ أبوك مين؟!».

«أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات يا سعادة البيه».

قالهـا مبتسـمًا موقنًـا أن غضـب الرجل سـينجلي عندمـا يعرف من هو...

«إنت أعمى... طالع تجري كده ليه وتتلقح على الناس؟!».

«أصل نجحت يا عمي... أخذت الابتدائية!».

نبـأ سـوف يبدد الغضـب في الحال.. سـوف يـرى الابتسـامة، وقد يُحَمِّله التحية إلى أبيه فهو ليس وفديًّا...

«نجحت والا سقطت... هوه اللي زيكم لهم التعليم؟!».

حلم هذا أم حقيقة؟!

«امشـي غور من قدامي وابقى فتح، هـم البهايم اللي زيكو حاينفعوا أبدًا... امشي غور!».

خطا إلى الخلف ليتلقفه «بعضشـي» و«أوطه» معًا، وصاح به الرجل مرة أخرى:

«ما تمشي من هنا يا بجم... امشي من هنا».

ولا بد أن هناك خطأ... ولا بد أن يستغيث:

«أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات!».

«ثابـت افنـدي... ثابـت زفت. أنـا ما لي؟ تبقـى تفتَّح وانت ماشـي في السكة يا حمار!».

ترك الرجل وهو يسب ويلعن، مضى مبتعدًا والغضب يتناثر من بين شـفتيه بلا توقف... فماذا فعل؟! وعندما أخرج البيه منديله ليمسح عن نفسـه آثـار ارتطامـه بـه، شـعر فجـأة أنه شـيء قـذر... تسـمرت قدماه

فـي الأرض... انطفأت نار الفرحة... وتذكر مـا قاله الناظر... فدار في رأسه السؤال: ماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!

يتلاعب «حامد» بأجراس الدراجة ويعايره بشتائم البيه ويصيح:

«يحيا النحاس باشا...».

يحاول السـير أو الجري أو البكاء، فلا يستطيع... يحس فجأة برغبة شـديدة فـي المـوت، لمـاذا لا تنشـق الأرض وتبتلعه؟ تمطـره «أوظه» بالسـؤال بعد السـؤال وتسـب البيه وتشـتمه وتدعو عليه وتقول إنه ابن كلب... ثم تسأل عن سر صمته فلا يعرف بماذا يجيب...

تصرخ فيه:

«إنـت لازم سـاقط» فلا يهتـم ولا يتأثر، ولا يغضـب، ولا يحزن... يحيطه «بعضشي» بذراعه ويسأله حائرًا:

«مش ده صاحب أبوك يا ويكا؟!».

ويصيح «حامد» وهو يبتعد بالدراجة:

«ساقط... يا ساقط».

يحـس أنه يتمزق، فماذا لو كان الخبر غير صحيح؟! ولماذا لم يكن أبوه وفديًّا؟! هو لن يسـير في مظاهرات محجوب بك بعد الآن... ولن يهتـف لـه أو يصفق مـن أجله وسـيدعو اللـه ألا ينجح هـذا الرجل في الانتخابـات طوال عمـره... كره الوفـد رغم أن «بعضشـي» كان وفديًّا يحب النحاس باشـا مثل أبيه عم علي ولطالما تشاجرا وتخاصما، لكنه أخـذ «بعضشـي» إلى الڤيلا ذات مـرة وجعله يهتف مع الناس بسـقوط الوفد...

هل هو ناجح... أم راسب؟!

هل يعرف محجوب بك والده أم لا يعرفه؟!

«مش انت ناجح يا ويكا؟ ما لك بقى، ما لك؟!».

لماذا فعل معه الرجل ما فعل وكيف و... و...؟ ولا بد أن أباه سوف يخذله لو قص عليه ما حدث، ولا بد أن يلقي عليه اللوم:

«انت لازم سقطت... كنت بتضحك علينا...».

تقول «أوظه» ما تقول، فلم يعد يهتم... يوم المظاهرة الكبيرة التي شقت البلد من أولها حتى آخرها والناس يحملون محجوب بك فوق أكتافهم، يوم الهتاف المدوي في الشوارع، يوم سار مع «بعضشي» وهتف مع الناس باسم محجوب بك... يوم ابتسم له وصافحه وداعب شعره... ثم قبله في الشارع الواسع أمام كل الناس... يوم جرفته المظاهرة فوجد نفسه في حديقة الڤيلا ذات السور الأخضر في أطراف البلدة... يوم دخل الناس إلى الحديقة وملئوها... فدخل معهم وبجواره «بعضشي»... يوم هجموا على الطعام والأواني والخدم والحشم واللحم والفتة، وزغاريد وصياح وهتاف... و«بعضشي» يلكزه هامسًا:

«تيجي ناكل يا ويكا؟!».

السيدة الجميلة تهبط السلم الرخامي بوجهها المستدير الباهر الجمال، بملابسها الفاخرة والأوامر تصدر منها فتُلَبَّى على الفور... ثم «نادية» وهي تهبط السلم الرخامي وتقترب منه تطلب منه أن يلعب معها، كانت سمراء ولم تكن بيضاء كأمها، فستانها وشعرها وصوتها

الهادئ، ولم يكن شعرها في مثل اصفرار شعر «أوظه» حقًّا لكنه كان أجمل بكثير... صاح فيه «بعضشي» أمامها:

«مش حاتيجي ناكل يا ويكا؟!».

أحس بالخجل ولم يرد وتعثرت عيناه فوق وجهها النظيف، وكرر «بعضشي» نداءه لكنه لم يرد عليه، صاح فيه منذرًا:

«ده فيه لحمة يا ويكا... لحمة!».

فابتسم لنادية وهو يقول ردًّا على سؤالها:

«أنا في سنة ثالثة... وانتي اسمك إيه؟!».

كف «بعضشي» عن ملاحقته، وأمسكت نادية يديه وراحت تصعد معه السلم.

«أنا عندي بسكليت... تعرف تركب بسكليت؟!».

كان يعرف، لكنه لم يجب بكلمة، وكانت يده تحتوي يدها الصغيرة وفي أطرافه كل لذة الدنيا، راح يصعد معها الدرج الرخامي حتى وصلا إلى قمته... خلف الباب الزجاجي الشامخ عالم الڤيلا السحري بكل ما فيه... تهب عليه من الداخل رائحة المرايا الضخمة والنجف والسجاد... أمام الباب مقعدان ومرآة لم ير مثلهما إلا في منزل خال أبيه في القاهرة، الخال العجوز الغني وزوجته بنت الباشا الكبير....

«أنا خال بابايَ باشا».

نظرت إليه بلا دهشة وتركت يده وراحت ترقب الناس في الحديقة الواسعة المزدحمة بالخلق... ألقى بصره نحوهم فرآهم كالنمل، الذين

هتفوا... والذين حملوا محجوب بك... والذين ألقوا الخطب بين يديه، سرت في جسده رعدة... فقد كان الجميع يأكلون، بأطباق وبلا أطباق وأيديهم تنغرس في الطعام وأسنانهم تنهش اللحم... وأجسادهم تتلاطم... وما زالت السيدة الشامخة تقف عند أول السلم تلقي بأوامرها لتنفذ في الحال... كان الناس جياعًا، فحمد الله أنه لم يكن واحدًا منهم، أحس بالرضا عندما وقعت عيناه على «بعضشي» وكان هذا يقف وسط الحديقة فاغر الفم والدهشة تقطر من عينيه... سمع صوت نادية تناديه:

«من هنا يا شاطر... تعالى».

استدار هاربًا من عيني «بعضشي» واندفع خلفها نحو الباب... لكنه اصطدم بمحجوب بك نفسه... رفع إلى الرجل عينيه ذاهلًا وسقط قلبه بين ضلوعه عندما تردد بصر الرجل فيما بينه وبين نادية، وكان يبدو غاضبًا، فانقبض قلبه...

«إيه ده يا نادية؟!».

كيف يسأل عنه وقد قبله في الطريق منذ ساعة... وداعب شعره وابتسم له؟!

«ده صاحبي يا بابا...».

وازداد الضيق على وجه البك... ثم نظر إليه وسأله:

«انت مين يا شاطر؟!».

«أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات!».

وابتسم الرجل وهو يربت على كتفه:

«آه... ثابت أفندي ده بتاعنا... ما تروح تاكل يا شاطر مع الناس!».

أحس بالألم فقال: «مِرسي»، حتى يتأكد للرجل عدم انتمائه إلى هؤلاء... صاحت فيه نادية أن يلحق بها... لكنه تردد، وصرخ رجل في الحديقة وفمه مليء بالطعام:

«عاش محجوب بك نصير العدل».

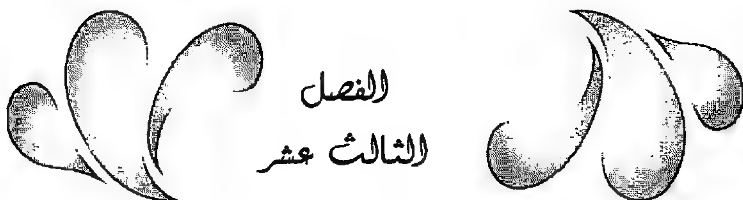
ردد الناس الهتاف... وكان هو يقف بجوار البك الذي أخذ يلوح للناس شاكرًا، ثم هبط عدة درجات فهبط معه، عند منتصف السلم توقف الرجل بجواره، ازداد حماس الناس وهتافهم، بدا له منظرهم رائعًا وخيل إليه أنهم يهتفون لأبيه... لماذا لم يكن أبوه هو محجوب بك نفسه؟ لوحت الأيدي بقطع اللحم وبحت الأصوات بالهتاف ودوى التصفيق... ثم هدأ الناس وتباعدت صيحاتهم وتشاغلوا بالطعام... وبح صوت رجل كان يقودهم فتوقف عن الهتاف، بحث عن «بعضشي» وسط الجميع لكنه لم يجده ولم يعثر له على أثر، استدار نحو «نادية» لكنه بهت، كانت قمة السلم خالية، وكانت نادية قد اختفت!!

وعندما رفع عينيه نحو محجوب بك أحس وكأنه يراه لأول مرة... خيل إليه أن جفون الرجل بلا رموش... كان وجهه أبيض شديد البياض، وهو طويل مسحوب إلى أسفل، وذراعاه طويلتان وأصابعهما كالعصى الرفيعة... وعندما التفت نحوه الرجل ارتسمت على شفتيه ابتسامة ثم سمعه يقول:

«ابقى سلم لي على والدك يا شاطر... إوعى تنسى...».

ثم استدار وراح يصعد الدرج حتى قمته، ودلف من الباب الزجاجي وأغلقه خلفه... ووجد نفسه يقف وحيدًا في مكانه، نظر إلى الباب المغلق ولم يستطع الحراك، نظر نحو الناس فأحس بخجل شديد، بحث بعينيه عن «بعضشي» عبثًا، فراح يهبط السلم في خطى بطيئة، ثم تسلل من وسط الناس إلى الخارج!

ولكن... ماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!




الفصل الثالث عشر

«مش هوه صاحب أبوك يا ويكا!».

«هوه إيه اللي صاحب أبوه يا ابني... ده بيه!».

«طب ودين النبي صاحب أبوه».

«يا ابني ده بيه... بييه... مصايب إيه دي؟!».

وينتفض «بعضشي» صائحًا فيها بكل عزمه:

«وتربة أمي أنا شفته... كان بيقول له سلم لي على أبوك... مش كده يا ويكا؟!».

«ده شتمه دلوقت!».

«وإيه يعني؟».

«ويشتمه ليه؟».

«مش هوه صاحب أبوه يا «أوظه»؟».

«لو أنا، كنت شتمته ودعيت عليه كمان».

«تشتمي واحد بيه!».

«وإيه يعني... يلعن أبوه كمان، أهه!».

«سامع يا ويكا... دي بتشتم البيه؟!».

«يلعن أبو أبوه واللي خلفوه... ويلعن أبو الملك كمان».

يصمت «بعضشي»، وينتفض هو بخوف، تلتقي عيناه بعينيها فتنشب في وجهه نظراتها:

«لو كنت أنا منك كنت شتمت ابن الملك كمان... اسم الله... مش هوه اللي شتمك الأول؟!».

لماذا يحب «بعضشي» النحاس باشا... وكيف تشتم «أوظه» جلالة الملك؟! يتذكر نادية... يتذكر وجهها، يتمنى في لحظة أن يراها ليقص عليها ما فعله أبوها، فهل تكره أباها من أجله؟!

«ما تقول بقى يا اسمك إيه... ما لك؟!».

«مش هوه زعلان لسه؟».

«إنت نجحت والا سقطت... ما تقول بقى؟!».

يتذكر أباه المنتظر فينتفض مضطربًا، كيف يغيب أبوه عن ذهنه وكيف ينسى أنه في انتظاره؟!

يندفع سائرًا بجوار سور المنتزه دون كلمة وهو يتساءل: لماذا فعل معه محجوب بك ما فعل؟

سيخبر أباه بما حدث فهل ينتخب النحاس باشا؟!

قال له الناظر إنه نجح، فلماذا لا يفرح... وأيام أن كان يبيع البيض لتشارلي... كانت النقود تملأ جيبه كل يوم، ولو كان قد ادخر ما صرفه أيامها لأصبح الآن غنيًا ولاستطاع أن يشتم محجوب بك ويلعن له أباه... ولو أن الكابتن لم يطرده لكان الآن يحمل من النقود ما يكفيه

طوال العمر، ولما كان قد اهتم بالنجاح أو الرسوب... عند بداية سور المنتزه كان «حامد» ينتظره بالأجراس العازفة بلا توقف...

«ساقط... يا ساقط».

وكانت «أوظه» أسبق منه إلى الرد على «حامد»... وقبل أن يفتح فمه ألقت بنفسها فوق الدراجة ودفعت حامد من فوقها ليسقط على الأرض، ويكف عن السير عندما يضع «بعضشي» طوقه حول عنقه ويهجم على حامد مشاركًا في المعركة، يلتقط من الأرض قطعة حجر ويضرب بها أسلاك الدراجة وجرسها... يبتسم بالرغم منه ويداخله السرور عندما يبكي حامد بصوته الغليظ وتنسال دموعه، ويجد لسانه أخيرًا فيصيح بكل صوته الصامت:

«بتعيط؟ خيبة يا خيبة!».

«يا ساقط».

«ده ناجح يا ابني... والناظر هوه اللي قال له قدامنا كمان».

يداخله اليقين فجأة بأنه نجح، فيدق قلبه وكأنه يسمع الخبر لأول مرة من «بعضشي»...

«يا ساقط، يا بليد... إن شا الله يا رب تعيد سنة رابعة عشر سنين».

ينقبض قلبه إلا أنه يبتسم صائحًا:

«أنا ناجح يا ابني... وكمان حضرة الناظر جاي عندنا البيت دلوقت علشان يبارك لبابا...».

«يا ساقط».

«يا ابن الكلب... ياللي أبوك أقرع».

«يا ساقط... يا ساقط... يا ساقط».

«وحضـرة الناظـر كمان بيقول عليـك بليد وزي التنبـل والحمار... وقال إني حاجيب مجموع كبير وحاطلع الأول على القطر كله».

«ساقط... يا ساقط».

«يا بو دمعة زي البنات... ياللي أوظه ضربتك وخلتك تعيط».

يلمح عند الميدان عم سـعداوي آتيًا نحوهم فوق دراجته... النجدة هـي، أم الخبـر بخيبة الأمل؟ تتسـمر قدمـاه فوق الأرض ولا يسـتطيع الحراك... يرتفع صوت حامد بالبكاء حتى يسمعه عم سعداوي ويصبح شاهدًا أمام أبيه ولا بد أن يكذب حامد ويقول إنه اشترك في ضربه حتى ولـو لـم يفعـل، تلتصق بـه «أوظه» وهـي تمسـح أنفها بظهـر كفها وقد ازداد تذمرها:

«مش حاتقول لأمك بقى يا اسمك إيه إنك نجحت؟!».

يدور «بعضشـي» بالطوق من حولهم وهو يسـب «حامد» ثم يصيح في مرح:

«حانشرب شربات دلوقتي... اللي عاوز يشرب شربات يا اولاد!».

على وجه عم سـعداوي ابتسـامة ونظرات تتسـاءل عن سـبب بكاء حامد، ولا بد أن يطمئن أولًا...

«عم سعداوي... هوه عم كامل اتكلم من البندر؟!».

ينظر عم سعداوي إلى حامد ويسأله عما به... وعن سبب بكائه.

«اتلموا عليَّ وضربوني هم التلاتة... وكانوا عايزين يكسروا البسكليت».

يجذب عم سعداوي من كمه في قلق:

«هو عم كامل اتصل من البندر؟!».

ويستمع الرجل لشكوى حامد... ثم يلتفت إليه:

«وانت عايز عمك كامل يتصل ليه؟ ما تبطل عفرته وتهتدي بالله بقى!».

«يعني أنا ناجح صحيح والنبي يا عم سعداوي؟».

«إنت مش سمعت الناظر بودنك؟».

ينقض «بعضشي» صائحًا وهو يحتضن «أوطه» ويخرج لسانه لحامد:

«مش قلت لك يا بنتي... نجح... ويكا نجح!».

ولا يتوقف عم سعداوي عن السير بدراجته... فيجري بجواره والدماء تزغرد في عروقه... يلتفت إلى الخلف ليرى «حامدًا» وهو واقف بجوار دراجته يمسح عن نفسه تراب الطريق، وينظر إليه بعضشي وهو يعدو صارخًا:

«ويكا نجح يا واد يا حامد... نجح وانت سقطت يا ابن الاقرع».

على الجانب الآخر لعم سعداوي كانت «أوطه» تجري وقد بدت عليها السعادة، يمرون بصالون فاروق... وقهوة خريستو... ولا بد أن

عم سعداوي في طريقه إلى أطراف البلدة... يداخله إحساس باليقين أنه نجح حقًا... يتوقف عن الجريان ويترك عم سعداوي ويلتفت نحو «حامد» الذي كان يتبعهم من بعيد:

«سامع يا بليد؟ أنا ناجح اهه... وحاجيب مجموع كمان واطلع الأول».

لا يرد عليه «حامد» فتجتاحه الغبطة ويتنفس ملء صدره... يحس بنشوة النصر تدفع قدميه نحو البلدة بكل ما في جسده من قوة وفرح... تهب من الشارع نسمة ترطب وجهه الملتهب فينتفض بانتعاش يشمله كله... ويتعالى من خلفه صوت «بعضشي» وهو يقلد السيارة فتزداد سرعة جريانه... يتذكر ضحكة الناظر وكلماته فيرتجف لهول السعادة... لقد نجح، فكيف نسي كل هذا... وكيف أصابه محجوب بك بالألم؟ يلعن أبوه وأبو نادية معًا... يصرخ فجأة... بعلو صوته:

«يحيا النحاس باشا...».

ثم يقرر أن يصبح وفديًا... فيصرخ حتى تنتفخ رقبته:

«يسقط محجوب بك نصير العدل».

يندفع إلى الشارع الطويل فيلمح عم ياقوت على البعد وبجواره عم رزق وهما جالسان عند الناصية، دكاكين الشارع مفتوحة... والناس على الأرصفة وفي الداخل والخارج... وبجوار عم رزق مقعد أبيه... الخالي... يلمحه عم ياقوت فينهض إلى عرض الشارع مهرولًا ليستقبله بذراعيه وصوته الجهوري:

«عملت إيه يابني... طمنا، ربنا يطمن قلبك؟».

«نجحت».

يقولها وكأنه يقذف بكل جسده إلى آذان الناس جميعًا...

«صلاة النبي... ميت فل عليك يا حسن».

«نجحت يا عم ياقوت... أنا نجحت!».

يبلغ به الفرح حدًّا يدفع بالدمع إلى عينيه فيرتجف صوته... يدق قلبه بعنف شديد ويدور رأسه بنشوة تستولي عليه تمامًا... ينهض عم رزق لينضم إليهما في عرض الشارع وتلتفت نحوهم كل الرءوس... ويتوقف في عرض الطريق عربجي كان يقود عربته وحصانه ليتفرج، ويسأل عم ياقوت في فرح:

«جوز عمتك اتصل يا وله؟!».

«وقال إني نجحت ... وعم مينا قال لي اقول لبا... .....».

ويقاطعه صوت عم ياقوت مجلجلًا في الشارع:

«فرقع قزازة شربات يا جدع... ابن ثابت نجح... وأخد الابتدائية».

«وحضرة الناظر وعم إسكندر جايين عندنا يشربوا الشربات كمان!».

ينقض عليه عم ياقوت فيحمله من تحت إبطيه... ثم يقذف به في الهواء إلى أعلى... يرتفع ويرتفع وكأنه يطير، وإذا الناس من تحته كلهم ينظرون إليه، وإذا كل الأفواه تبتسم... وإذا الرجال يتركون أعمالهم ودكاكينهم ويخرجون إلى الرصيف ليتفرجوا، وإذا هو يهبط من جديد... وإذا بيدي عم ياقوت تتلقفانه وصوته يدوي:

«حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي... اجري يا واد بَشَّر أبوك».

وعندما يضعه على الأرض يصيبه الدوار، ويغرق جسده العرق وتتحول الدنيا إلى لحن يعزف عليه قلبه بدقات موجعة... يهلل الرجال، ويتحدث كل الشارع، وتطل العيون وتنطلق التهاني فيندفع عدوًا نحو السوق وهو يرد على كل من يسأله بصرخة تملأ فمه:

«نجحت... نجحت... أنا نجحت!».

شارعهم الطويل والوجوه والنوافذ وبخار مياه الغسيل المدلوقة على الأرض... وتلمحه أم أوظه فيتدلى جسدها من البلكونة سائلة... عم علي يبتسم له والحلاق عند الناصية يسأل... لكنه لا يرد فلا بد أن يزف الخبر بنفسه إلى أبيه... فماذا يقول؟!

تفتح النوافذ في بيت النواجي فيندفع إلى داخل بيتهم قبل أن يصيبه سؤال، ويصل إلى أذنه صوت أم أوظه وهي تنادي على ابنتها:

«أوظه... يا بت يا أوظه».

لكن أوظه لا ترد، بل تصيح فيه وهو يضع قدمه على أولى درجات السلم:

«نازل تاني يا اسمك إيه؟!».

ويتوقف عن الصعود وكأنه تسمر فجأة في مكانه، يرتجف قلبه بالرغبة ويلتفت نحوها، وكان «بعضشي» بجوارها يرقب... فهل يستطيع؟!

يملؤه الإحساس بحبه لأوظه... فإذا به حقيقة أثبت من حبه لأبيه وأمه وإخوته والأولياء جميعًا... يشير إليها فتنفلت بسرعة إلى بئر

السلم... وبعد لحظات يلفهما الظلام... ويصيح عم علي سراج في الخارج بصوته الرائق:

«يا ولد... بعضشي... إنت يا ولد يا بعضشي....».

وتعطيه خدها فيلصق به شفتيه ويهم بالسير... لكنها تمسك به... صدرها ملتصق بصدره، وبطنها ينام فوق بطنه، وشفتاها أمام شفتيه... وأنفاسها تدثر كل وجهه...

«تتجوزني يا اسمك إيه؟».

ولا يدري ماذا يقول... فيضطرب ويخفق قلبه ويتلعثم...

«حاتروح البر التاني بعد ما تقول لامك؟!».

قبل أن يجيب كان «بعضشي» يقف بينهما في الظلام متسائلًا:

«وانا يا ويكا... مش حاتاخدوني معاكم؟!».

ينفلت من الجب المظلم إلى فناء البيت ويندفع نحو السلم وهو يهمس:

«لما اقول لبابا الأول...».

يقفز الدرجات وقلبه يدق ووجهه تغرقه قطرات العرق... وسيحاسبه أبوه لو لم يكن هناك نجاح، لكنه ناجح ولسوف يفاجئه بالخبر... فماذا سيقول؟!

باب الشقة مفتوح، والصالة خالية، ولا صوت... فلا بد أن إخوته غادروا البيت في الوسعاية عند الكنيسة... أو بجوار الجامع الكبير... يدق قلبه ويدق وهو يخطو داخل الشقة متلصصًا على أطراف أصابعه

وتصل دقات القلب إلى الحلق والأذنين عندما يأتيه صوت أمه في الداخل:

«ولكن افرض يا ثابت أفندي الشر بره وبعيد... إن الولد سقط؟!».

يقترب من باب الغرفة... فيسمع صوت أبيه وهو يسعل ويزفر... ثم يقول:

«وحاعمل إيه يعني... هوه ونصيبه بقى؟».

«والنبي ده كان بيذاكر يا ثابت أفندي».

«بطلي الكلام الفارغ ده يا ست هانم... لو كان ذاكر يبقى حاينجح، هوه كل من قعد ومعاه كتاب يبص فيه يبقى بيذاكر... أدي احنا عملنا اللي علينا... والباقي على الله».

«يعني يا ثابت أفندي... لو الولد... بعد الشـ... ...».

لا... لا يريد أن يسمع... قفزة واحدة فإذا به وسط الغرفة، وإذا بأمه تشهق:

«بسم الله الرحمن الرحيم!».

وإذا بأبيه جامد كالتمثال لا يتحرك...

«إيه ده يا سيدنا الافندي؟!».

«نجحت!».

تصرخ أمه بفرح طاغ:

«إيه؟!».

«نجحت يا ماما... نجحت يا بابا!».

«والنبي؟ عرفت ازاي يا ابني؟».

ويزمجر أبوه قائلًا:

«إيه اللي انت عملته ده؟».

يوقن أنه أخطأ في شيء لا يعرفه، ولكن هناك ما يشفع...

«نجحت... أنا نجحت يا بابا... نجحت!».

لا شفيع عند العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين والغضب الزاحف على الملامح ليكتسحها والصوت يزأر:

«إيه اللي انت عملته ده؟!».

العرق البارد والأطراف المثلجة والرغبة العارمة في القيء والدنيا التي تميد... وصوت أمه:

«هوه عمل إيه بس يا ثابت أفندي؟!».

«مش عارفة عمل إيه يا ست هانم؟ دي طريقة يدخل بيها الأوضه؟!».

«ده انا نجحت يا بابا... أنا نجحت النهارده!».

يتوسل ويتحرك... ارتجف صوته وفي قلبه كره لكل شيء... حتى نفسه، يسود الصمت لثوان تسرح فيه دقات قلبه وتخفت، يعود أبوه إلى جلسته فوق الكنبة بعد أن هم بالنهوض... ساق مثنية وأخرى ترتفع ركبتها أمام صدره ليستند عليها الذراع الممتد إلى الأمام... السيجارة بين أصابعه ترسل دخانها في شريط رفيع يتلاعب في الهواء كثعبان...

ثم يتجمع أمام الوجه في كرة تظلل العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين... والأنف العظيم...

«هيه!».

جاءه الإذن بالكلام... لكنه لا يستطيع... يعوم الوجه بسحابات الدخان أمام عينيه ويشعر وكأن شيئًا يُكَبِّله، يقيد يديه وقدميه وها هو القيد يعتصر صدره... كان يريد السفر ويريد ركوب الدراجة ويريد الذهاب مع أوظه... لكنه لا يريد الآن شيئًا، فهل يأتيه الموت؟!

يزحف الاختناق من ساقيه بجيوش نمل بلا عدد، النمل الكبير الذي يطارده في الأحلام ويجثم على صدره عندما يكون في مثل حجم الفيل... الوجه الصارم لن ينفعل ولن يفرح ولو أصبح ملكًا... الفم القاسي لم يسمع منه سوى السباب... نجح أم لم ينجح، فليس هناك مفر... تتراكم الدموع في صدره وتصعد إلى حلقه وكم يود لو استطاع أن يصرخ...

«اتكلم يا سيدنا الافندي... وقول إيه اللي حصل!».

يفتح فمه للحديث... لكن لسانه يلتصق بسقف حلقه فمتى يستطيع الفرار؟

«ما تتكلم يا بيه... انت اتخرست؟».

«وبعدها معاك يا ثابت أفندي... حرام عليك... الولد مخضوض!».

«مين اللي قال إنك نجحت؟».

«ما تتكلم يا ابني!».

«عمك مينا كلم البندر؟».

«يوه... إيه اللي جرى لك يا ولد؟».

«مين كان هناك؟».

«بسم الله الرحمن الرحيم... ما تنطق يا ولد وترد على ابوك!».

«من ساعتها وانت في المحطة؟».

«ما تنطق يا ابني... يا ندامة!».

«ويكا... ويكا... عايزين الشربات يا ويكا!».

«أهو ده اللي انت فالح فيه... بعضشي؟... مش كده؟».

«يا ثابت افندي... ثابت افندي!».

«طبعًا فضحت الدنيا قبل ما تيجي... أيوه يا اسطى علي!».

«والمرسي ابو العباس يا نينة نجح... أنا كنت معاه في المحطة».

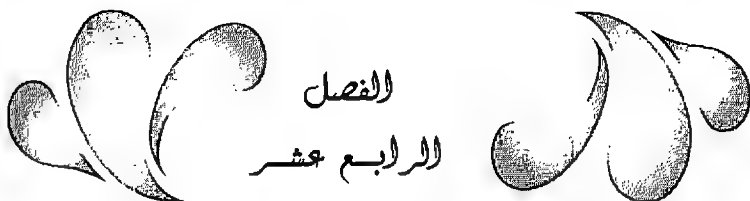
«أوظه» كمان؟ صلاة النبي أحسن... بتلعب مع «أوظه»؟».

«ويكا... يا ويكا... عايزين الشربات».

«شايفه يا ست هانم... سامعه؟».

«يا ولد ما ترد... ما تقول حاجة يا ابني... رد على ابوك... إيه اللي جرى لك؟!».

ترى... ماذا يفعل لو كان الخبر غير صحيح؟!



لا أمل... لن يستطيع الذهاب إلى البر الثاني مع أوظه... يبدو له الأمر كله وكأنه حلم من تلك الأحلام التي تحيره، النمل الكبير الجاثم فوق الصدر، الجب العميق... والباب العالي... والسور الشاهق... واليد الممدودة من أعلى... لكنها لا تلحقه... صرخاته المكتومة، حديثه الذي بلا صوت، والبساط السحري الطائر به إلى ما فوق المئذنة حيث يتركه هناك وحده، وجسد النبي المنبسط في البياض أمام عينيه، والصوت الذي يذكره جيدًا:

«ناجح بإذن الله».

فتحت كل النوافذ والأبواب في الشارع... وأطلت كل الرءوس وذاع الخبر... وتجمع العيال أمام البيت... ووقف المارة يسألون عن الحكاية؟...

«فرح مين ده؟!».

ويضحك الأسطى علي سراج وهو يرد على السائلين بصوت عال:

«دي شهادة عقبال أولادك... ابن ثابت أفندي أخد الشهادة!».

كانت زغرودة أم النواجي التي أطلقتها وهي تعبر الشارع إلى بيتهم هي البداية:

«يا ألف نهار ابيض... ألف ليلة بيضة... عقبال ما نفرح بعروسته إن شاء الله....».

وعند الباب تستقبلها أمه بعد أن غيرت ملابسها وهي تردد:

«دلوقت البلد كلها تعرف... والبيت يمتلئ بالناس، مش تلبس هدومك يا ثابت أفندي؟!».

نظرة من أبيه يذهب بعدها إلى البلكونة ليرد على عم علي سراج:

«والله لسه يا اسطى علي محدش يعرف... أهم بيقولوا... وكله كلام مش أكيد!».

يعلم يقينًا أن أباه على حق... ولا بد أن يزداد الخوف اضطرامًا في صدره... يقبع فوق مقعد في الصالة ويدس ساقيه تحت المائدة ويرقب ما حوله في سكون وترقب... نظرة من أمه فيها ابتسامة تغمر الوجه كله، تبدو له وكأنها في مثل سنه فيبتسم رغمًا عنه... ولو كان قد ولد في زمن أبيه لما تزوج أمه حتى ولو دفعوا له ألوف الجنيهات، يتمنى لو ضمته إلى صدرها ليدفن رأسه فيه، تتوقف أمامه وكانت تروح وتجيء بلا سبب، تبتسم له ولا تتقدم منه خطوة، فيرتجف وهو يستشعر دفء صدرها من بعيد... لكنها ترفع كفيها إلى السماء دون أن تمسه... ويرتجف صوتها بالانفعال داعية:

«يا رب... يا رب انت عالم وغيرك لا يعلم... يا رب...».

وتغزو عينيه موجة من الدموع، هو يعلم عن يقين سبب هذا الدعاء المتوسل، فلماذا تختار أمه هذا الدعاء بالذات؟ لماذا ترده ليل نهار؟

يزداد خوفه من الله فجأة فيشعر برعشة تعتري جسده... ومنذ شهور والحديث دائر حول النتيجة وأبوه يردد:

«مصاريف الثانوي اتناشر جنيه.. ربنا يستر... والبيه يجيب مجموع كويس علشان المجانية».

ثم الصمت - دائمًا - لثوان، يحدجه فيها بنظرة تعقبها تنهيدة:

«والا حتى نص مجانية... وحياة عزة الله وجلاله أنا مستعد امشي معاه لحد آخر السكة... الثانوي... والجامعة... ولو كان فيه حاجه بعدهم كمان... وربنا يقدرني».

وعندما يبتسم أبوه، يصبح على استعداد لأن يحبه حتى الموت!

الشتاء... والوحل في الشوارع... والطرقات الزلقة... والمطر... والبرد... وسعال أبيه طوال الليل... ولو مضت به ألف سنة فلن ينسى يوم حرق الجاز جسد أبيه وسلخ جلده... الليل والنور الخافت... والشبح الجالس فوق السرير منكفئًا... وجه أمه المذعور ودموعها... وصوتها المرتجف يوقظه من عز النوم...

«ولد... إنت يا ولد... قوم الحق شوف ابوك».

قفز من مكانه وقد شله الرعب... عيناها الدامعتان ووجهها الشاحب ويداها المرتجفتان والأنين الصادر من غرفة النوم والصوت صوت أبيه!

«ماما... بابا ما له يا ماما؟!».

اعتصره الفزع اعتصارًا... واندفع نحو غرفة النوم يتخبط في الحيطان والباب وأعمدة السرير... الجسد المحني إلى الأمام... والوجه المحتقن... والظلال تملأ الحيطان... الجريدة الملقاة فوق

الأرض... ورائحة الجاز تملأ أنفه وتنتشر في البيت كله، مد يده يهز أباه المنكفئ فالتصق باليد شيء لزج بعث الرعب إلى قلبه، تراجع إلى الخلف واستيقظ تمامًا وكان أبوه عاريًا... حملق في الظهر العاري فرأى اللحم سائلًا ولون الجسد أحمر كالدم، شهق وتراجع وصرخ:

«بابا!».

فاجأه الأنين المدفون مع الوجه في الغطاء:

«البودرة... هات البودرة».

الشتاء قرين السعال الطويل والظهر المريض... والصدر المتعب، الملابس الصوفية... وورق الجرائد... لكن البرد ينفذ إلى العظام... وفي كل عام يسمع أباه وهو يقول:

«الشتا السنه دي عمره ما حصل!».

ولا ينفع معه أي دواء يصفه الطبيب... وقال أبوه ذات مرة: إن الطبيب منعه من التدخين... لكنه لم يمتنع، وظل يدخن ويسعل!

جلسة المساء حول راكية النار... وحبات أبو فروة... وأعواد القصب... والوجوه المحمرة بالدفء والابتسام والكلام اللذيذ... والحكايات الباهرة في أمسيات الخميس... ويوم اشترى أبوه الراديو تجمع أهل الشارع في البيت ليسمعوا غناء عبد الوهاب... وترتيل الشيخ محمد رفعت... وكان يتذكر «أوظه» كلما غنى عبد الوهاب «حبيبي ياللي حياتي فيك»... وذات مساء سهرت «أوظه» مع أمها

عندهـم... وكانـت تنظـر إلى الراديو في شـغف... ثم لـم تعـد تهتم به، وغنى عبد الوهاب ليلتها:

يـا لوعتي يا شـقايا يا ضنا حالي... فمصمصت أمه شـفتيها استحسـانًا وقال أبوه: إن عبد الوهاب ليس مثل سيد درويش... فانتابه الغضب وقال:

«إيه ده يا بابا... عبد الوهاب أحسن دشليون مرة...».

ونظر إليه أبوه نظرة... ثم سأله:

«إنت سمعت سيد درويش؟!».

فلم يرد... ولم يسـتطع أن ينظر إلى «أوطه» بعد ذلك... وكره سـيد درويش دون أن يسمعه أو يراه... وجاء الدور ذات ليلة على أم النواجي فجاءتهـم بعـد أذان العشـاء، ثم طبت طنـط جانيت ليلتها مـع عم ألبير وهمـا يحمـلان لبشـة قصـب.... فغمـر البيـت كلـه بالسـعادة وامتـلأ بالضحكات والمرح وارتفع قشـر القصب وسـط الغرفـة مثل تل كبير، ومصـت أم النواجـي عـودًا كامـلًا رغـم فمهـا الخالي من الأسـنان... وسـعال أبيه يشتد كلما أشـعل سـيجارة... واحتقن الوجه العظيم ذات مـرة... حتى أصبح فـي لون اللهب في الراكيـة وكانـت أمـه تتحـدث، وأم النواجـي تتحـدث... لكـن طنـط جانيت هـي وحدها التـي كانت ترقب أباه:

«ما تبطل الزفته السجاير دي يا ثابت!».

ويستمر أبوه في السعال... ويستمر الراديو في الغناء... وأم النواجي فـي الثرثـرة... ويوغـل الليل... ويغـط إخوته في النـوم... ويرين على الغرفة ذلك الهدوء الذي يعشقه في آخر كل سهرة...

«وحياة النبي يا سي ثابت أفندي دي وصفة ما تنزلش الأرض أبدًا... جرب وابقى اديني الحلاوة...».

ويرفع أبوه وجهه إلى أم النواجي بعد أن ذهبت النوبة، وابتسمت طنط جانيت ودارت ضحكتها بكفها... المرأة تصف الدواء:

«تجيب جرنان قديم يا خويا... وترشرشه بالجاز لما يستوي... وبعدين تحط الجرنان اسم الله على مقامك ما بين الفانلة وضهرك ليلة واحدة... تصبح الصبح تدعي لي!».

القعدة فوق السرير... ومص القصب... وساعات الصفاء الرائعة... وتحيطه طنط جانيت بذراعها فتملأ خياشيمه رائحتها فيرتعد بالسعادة وهو يدفن رأسه في صدرها، وإذا تذكرها طردها عن ذهنه وانتابه الضيق والاشمئزاز... ولماذا؟!

وعندما تغادرهم أم النواجي لا بد أن تطيل الدعاء لأبيه بطول العمر والصحة، وتكتم طنط جانيت وعم ألبير ضحكاتهما حتى يغلق باب الشقة فينفجران فيه:

«انت مجنون يا ثابت تسمع كلام الولية دي؟..».

ابتسم أبوه ساخرًا وهو يتمتم:

«انت بتقولي فيها يا جانيت؟!...».

«يا راجل انت اتجننت... والا جرى لعقلك حاجة؟!».

«والدكاترة عملوا لي إيه؟ مش يمكن الوصفات البلدي تجيب نتيجة؟!».

«حد يحط على ضهره جاز طول الليل؟!».

ودائمًا ما يبدأ بينهما النقار اللذيذ، ولا تكف أمه عن الابتسام والتعليق، ولا يكف عم ألبير عن الضحك والتريقة، ولا بد أن تحمر العينان ويتجمد فيما بين الحاجبين، ولا بد أن يقول أبوه:

«إنت مش ناوي يا سيدنا الافندي والا إيه؟!».

ولا بد أن ترد طنط جانيت في غضب جميل:

«ثابت... ما لك وما له... هوه انت شايله على دماغك يا أخي؟».

ابتسم أبوه ولم يرد... ففاض قلبه بالراحة ودفن نفسه في صدرها أكثر... ثم استنام هناك... مدد ساقيه بين أجساد إخوته المبعثرين من حوله فسرت الحرارة في بدنه... وراح يفكر لحظتها في شيء بدا له شديد الغرابة:

هل تتزوجه طنط جانيت لو طلب منها ذلك؟!

تمرغ في الإجابة بلا رقيب... تاه ولم يصح إلا ساعة الرحيل والقبلة الدافئة وطعم الروج في شفتيه... وخدر النوم يسري في مفاصله... وصوتها يدغدغ أذنيه، وصوت أمه وهي تقول ضاحكة:

«ما تشدي حيلك بقى يا جانيت وتجيبي لنا ولد...».

ويلقيه ردها الضاحك في هاوية من الأحلام...

«كفاية هوه عليَّ... ما هو ده ابني تخلي بالك منه».

ثم الكابوس والنمل الكبير والفزع والسباحة في النهر حتى الشاطئ الآخر خلف «أوظه».

«ولد... انت يا ولد... قوم الحقني... شوف ابوك...».

الدقائق الملهوفة ورائحة البرودة النفاذة والآهات والهمسات... والسعال ولحم أبيه السائل... القلق والأنات وبرد الليل والترقب والأنفاس المتقطعة، وذلك الشيء الذي ينغرس في قلبه فيدميه بعذاب لا قبل له به... الجبل العالي ليس تلًّا، التل جبل صغير فكيف يضعف أبوه وتخرج من فمه الأنات متلاحقة... وهل يضعف الجبل أو يمرض ذات يوم؟

ومع أذان الفجر السابح إلى الغرفة عبر الحواري والشوارع... كانت الحياة تعود إلى وجه أبيه المتقلب بالألم... وإذا جاء الموت فهل يخاف أبوه ويتأوه كما فعل في تلك الليلة؟!

«أعمل لك شاي يا بابا؟».

أراد أن يهرب من يقين يداخله ويملأ رأسه بأن هذا الرجل ليس أباه...

«إعمل لي كباية تليو!».

جاءه الصوت ضعيفًا متقطعًا... ويوم احتقن زوره والتهب ورقد في الفراش وبكى من شدة الألم... صاح فيه أبوه:

«هوه فيه رجاله تعيط وتقول آه... يا سيدنا الافندي؟».

لهب النار في رأس الوابور تحرق في نفسه شيئًا خفيًّا، الدخان الأسود المتصاعد إلى السقف... والدفء الساري إلى اليدين والسكون يلف الكون، ثم يقطعه صياح الديك فوق السطح، وكيف يتأوه أبوه ويتألم وهو رجل؟ وعندما تصاعد بخار التليو أمام عينيه كانتا دامعتين...

وعندمـا قـدم لأبيـه الكوب السـاخن لاحـت فـي العينين نظـرة غريبة، الصوت العريض يتصاعد وكأنه يحيا من جديد:

«ما لك يا سيدنا الافندي؟!».

انسابت دموعه رغمًا عنه، وقالت أمه وهي تشهق:

«وهوه اللي جرى لك ده شويه يا ثابت أفندي... يا ندامه!».

واختنق صوتها... ودمعت عيناها... وساد الصمت تمامًا...

وإذا كان أبو حامد بخيلًا فكل الناس تشهد بكرم أبيه... وإذا كان أبو حامد يصلي بسرعة ويخطف الركعات... فأبوه يتمهل كلما صلى ويتم الآيـات... ويـوم أن تعارك رجلان علـى الرصيـف وكاد أحدهما يقتل الآخـر... تحدثـت البلدة كلها عن أبيـه وكفه الرادعـة للطرفين، صفعة واحـدة لكل منهما فتوقفا عن العراك حائرين دون أن يجرؤ أحدهما أن يرفـع عينيه إليه... فلمـاذا يتأوه إذا مرض؟ ولمـاذا ينكفئ على وجهه؟ ولماذا لم يسـمع كلام طنط جانيت؟ وهل لو كان أبوه قد ولد مسـيحيًّا لأصبح هـو الآخر كذلك ودخل النار؟ وكيف تدخل طنط جانيت النار وقد ولدت مسيحية لا تعرف الحقيقة؟!

«كل ده من السفرية الأخيرة!».

الصـوت القـوي يسـتعيد مكانه فوق العـرش وترفع أمـه خدها عن قبضتها وهي تتمتم دامعة العينين:

«ما بلاش السفريات يا ثابت أفندي».

ويتصاعد الصوت الساخر من باطن الغرفة:

«لا يا شيخة... بالذمة إيه؟!».

القرى البعيدة... ومكاتب التليفون... والتفتيش والبطانية... والبرد يهري العظام... وبدل الوسادة كتابان أو ثلاثة... وعندما يهطل المطر يصبح الموت شبحًا يتلصص فوق رءوسهم... وكلما عاد أبوه من رحلته... حكى عن السيارات التي تنزلق كل يوم إلى الترع والمصارف... وترعة الملوانية تمر من هنا، لكن ترعة التوفيقية تذهب إلى الإسكندرية... والرياح شيء والمصرف شيء آخر... وقد كان يعرف هذا من كتاب الجغرافيا... لكن عزوز أفندي مدرس التاريخ يقول إنها «هبة الفقر»...والشيخ بسيوني يحب الشغل، وهو يكرهه... ولو كانت كل العلوم مثل الحساب لجاء ترتيبه الأول على الدنيا كلها... ولماذا يخاف أبوه من وقوع السيارات في الترع، ألا يستطيع العوم؟!

«بابا... حضرتك بتعرف تعوم؟!».

حدجه أبوه بنظرة فأيقن أنه لن يتلقى ردًّا.. اعتدل في جلسته ثم استدار نحو أمه قائلًا:

«وحانعيش ازاي من غير السفريات دي يا ست هانم؟ إنتي عارفة بدل السفر الشهر ده كام؟!».

«وصحتك يا ثابت أفندي... صحتك يا خويا!».

«أربعة جنيه... إلا بريزة».

«هوه يعني الشر بره وبعيد لو جرى لك حاجة كده والا كده، ها تنفعنا السفريات؟!».

«ومصاريف البيه؟!».

«تتدبر...».

«منين يا وليه؟».

«ربنا ما بينساش عبده المؤمن».

«ما دي احنا مؤمنين وموحدين بالله!».

«يبقى ربنا مش حينسانا».

«هيه السما بتمطر فلوس؟».

«هوه مش يا خويا قال: «ويرزقكم من حيث لا تعلمون؟»».

الضحكة الساخرة... والنظرة الغريبة...

«ما هو قال كمان: اسعى يا عبد... وانا اسعى معاك».

«ما هو يا ثابت أفندي... ...».

ثم أعادت قبضتها إلى رأسها من جديد.. فعم الصمت، لم يرد أبوه على سؤاله وهو لن يفعل... تنتظم الأنفاس اللاهثة مع رشفات التليو... ورغم البرد كان جسده دافئًا...

«بتذاكر كويس يا سيدنا الافندي؟».

وجاء صوته من بعيد:

«أيوه يا بابا وحياتك».

«والنبي يا خويا بيذاكر.. الحق كده».

ويستند الرأس إلى سياج السرير وتسرح العينان في ظلال السقف العالي:

«ذاكـر كويس عشـان المجمـوع، أديك شـايف اللي بيـه... إنت ما بقيتش صغير ولازم تشـيل معايا شويه وتساعدني علشان اقدر اعلمك، وانـت لو جبت مجموع يدخلك المدرسـة مجانًا حاقـدر اربي اخواتك وادخلهم المدارس زيك... سـهام وسـامية لازم يخشـوا ابتدائي السـنة دي... وكلهـا سـنة والا اتنيـن... واخـوك سـامي يدخل المدرسـة هوه كمان....».

صمت... لكن أمه تساءلت:

«قلت إيه يا ثابت أفندي؟».

«مصاريف الثانوي اتناشر جنيه...».

«ما بلاش السفريات دي يا خويا... صحتك!».

«غير ثمن الكتب والكراريس والأقلام... ...».

«يا خويا قول يا رب...».

«حاقطع لك أبونيه في القطر عشان تروح البندر...».

«ده حتى انا باتشائم من العربيات اللي بتقع في الميه دي».

«وحابقى اديلك كل يوم قرش علشان تتغدى بيه هناك».

«وهو مافيش طريقة غير السفر يا ثابت أفندي؟!».

«وقـرش تاني مصروف إيـدك... واديك شـايف... قالوا عد غنمك يا جحا».

«حاتقعد تقول لي... قالوا في المثل!».

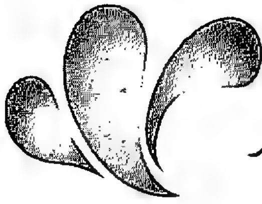
«لازم تهدى وتعقل علشان تفهم كويس...».

«ما هم قالوها في المثل يا خويا... مش عارفة إيه قالوها إيه؟!».

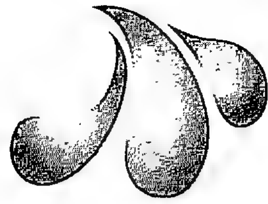
«بس على الله تنجح وتجيب مجموع... ربنا يستر...».

وامتـدت اليد الهائلة بالكوب الفـارغ نحوه، وعندما نهض طقطقت عظامـه، أخذ الكـوب فظلت اليـد ممـدودة، انحنى عليهـا ورفعها إلى شفتيه وقبلها، لم ينظر إلى الوجه أو العينين، بل أسرع دون كلمة ليدس نفسـه فـي دفـء الفـراش... لكنه لم ينم حتـى مطلع الشـمس... وكان يتساءل طوال الوقت: هل يستطيع أبوه أن يعوم؟!

ومـاذا يفعـل كل هـؤلاء النـاس الذين تحدثـوا وجـاءوا وباركوا... وزغردوا... لو كان الخبر غير صحيح؟!



الفصل الخامس عشر



... ولو كان الخبر غير صحيح فما الذي سيفعله به أبوه بعد كل هذا الذي حدث؟!

يمتلئ البيت بالنسوة وتنطلق في الغرفة الكبيرة زغاريد الفرح، وتتعالى أصواتهن وضحكاتهن وهن يتحدثن مع بعضهن، وأمه تحدثهن جميعًا وتضحك معهن، وتضم ذراعيها أمام صدرها مرددة:

«الله يبارك فيكي يا اختي، عقبال ما نفرح بأولادك!».

يعود أبوه من البلكونة مقطب الجبين، ويدخل غرفته... ثم يغلق على نفسه الباب:

ويجد نفسه مع نفسه وحيدًا في الصالة!

يجلس على مقعد ويسند ذراعه إلى المائدة ورأسه إلى كفه ويرقب ويسمع ويهز ساقيه في الهواء ولا يرد على نداءات «بعضشي» وصيحات «أوظه»، ثم يتلو في سره كل ما حفظ من آيات القرآن ويدعو الله ألا يسمعها أبوه... ولا تدخل امرأة إلى البيت إلا وتقبل أمه، لكن إحداهن لم تنظر إليه ولم تقبله ولم تقل له مبروك... مع أنه هو الذي نجح... ثم تغلق عليهن الغرفة الكبيرة فيقع المحظور ويفتح أبوه باب غرفته ويطل من الباب رأسه الغاضب ونظراته الحمراء ويأتي صوته هامسًا منذرًا:

«عاجبك كده يا سيدنا الافندي؟!».

ينكمش في نفسه وتتداخل أعضاؤه ولا يرد...

«مافيش حاجة نقدر نعملها في السر أبدًا؟!».

ويختفي الوجه الغاضب خلف الباب مزمجرًا ويرتفع في الشارع صوت عم إسماعيل المحولجي من البلكونة المقابلة:

«يا ثابت افندي... يا ثابت افندي».

يوقف هزات ساقيه وتتجمد أعضاؤه فلا بد أن أباه سيخرج الآن، ويضطرب قلبه عندما يعلو صوت «بعضشي» من الشارع متذمرًا:

«ويكا... إنت يا سي ويكا».

وتدهمه على الفور نظرات العينين الحمراوين، وكان أبوه قد ارتدى بنطلونه:

«كلم يا سيدنا الافندي... كلم يا سي ويكا!».

«ثابت افندي... ثابت افندي».

«أيوه حالًا يا اسماعيل افندي... حالًا».

وليس أبو رأفت أفنديًا، إنه محولجي وقد رأى اسمه في كشوف العمال مع عم إسكندر... وكان اسم أبيه في كشف الأفندية، فهل يرقى ذات يوم ليصبح بك؟!

سأل أمه مرة: **«بابا ماهيته كام جنيه يا ماما؟»**.

بان عليها الجزع وراحت تمطره بالأسئلة في قلق:

«بتسـأل ليه يا ولد؟ فيه حد سـألك السـؤال ده؟ كنت بتلعب مع مين النهارده؟ عايز تعرف ماهية ابوك كام ليه؟ ما تخافش، قول لي يا ابني دانا أمك... مين اللي سـألك السـؤال ده؟ وعايز تعرف ليـه يا ضنايا... هه؟ ما تتكلم يا ولد؟ ما تقو... ...».

كان يهز رأسـه بالنفي بعد كل سـؤال... فلم يكن أحد قد سـأله عن مرتـب أبيه، راح ينفي ويقسـم ويغلظ في القسـم ويدعو على نفسـه أن تصدمه سيارة أو يفرمه قطار أو تحرقه نار جهنم، لكنها لم تصدقه...

«وبتسأل على ماهية ابوك ليه؟!».

لـم يكـن يعلم لماذا سـألها، وقـد كان يعرف كـم جنيهًـا مرتب أبيه فأصابته الدهشة وأرتج عليه...

«إذا حد سألك... قول خمستاشر جنيه في الشهر... فاهم؟!».

لمـاذا تكـذب أمـه؟! ولماذا سـألها وهـو يعلـم أن مرتب أبيه ستة جنيهـات؟ رآهـا بنفسـه في الكشـف الكبير أمـام عم إسـكندر... ويوم اسـتدان أبـوه مـن عـم سـعداوي وقـع فـي الحيـرة والدهشـة وأصابه الاشـمئزاز وكاد يتقيـأ كـل ما في أحشـائه... فكيـف يستدين أبـوه مـن السـاعي؟! وكيـف يصبح عم سـعداوي مالـكًا لبيـت يسـكن فيه بـلا أجـر؟ ولمـاذا يصبـح السـاعي - وهـو سـاع - صاحـب ملـك... والأفنـدي - وهـو أفنـدي - مدينًـا؟! وإذا كـان عم علي سراج هو الآخـر عاملًا في مصنع الصابـون يذهب كل صباح إلى عمله... فكيف تأتّـى لـه هو الآخـر أن يسـكن في بيـت ملـك؟! وللناظـر بيـت في أطـراف البلـدة بجوار الڤيـلا، بالقرب مـن ناديـة... ومحجـوب بـك

الذي سيدخل النار حدفًا، فهو يشرب الخمر علنًا وأمام الناس دون خوف من الله!

يفتح باب الغرفة الكبيرة فتتعالى أصوات النسوة وتلعلع ضحكاتهن في أنحاء البيت... يطل بعينيه مختلسًا نظرة... فيرى فخذ أم رأفت عاريًا، ويصيبه القرف... وتهرول أمه سائلة عن أبيه:

«أبوك فين يا ولد؟...».

تميل أم النواجي داخل الغرفة فتراه من فرجة الباب وتصيح فيه:

«والنبي لابخرك بعين العفريت».

ويعود أبوه من البلكونة ليلتقي بأمه في منتصف الصالة:

«إيه يا ست هانم المولد ده؟!».

«يا خويا تنك طيب...».

«إيه اللي جاب الناس دول كلهم؟».

«يا اختي... جرى إيه يا ثفندي؟».

«قلتي لهم إيه؟!».

«ويعني حاقول لهم إيه يا اخويا؟».

«طبعًا قلتي لهم إن البيه خلاص نجح!».

تلتفت إليه أمه:

«مش بتقول إن الناظر قال لك يا ابني؟!».

«وما لك مش ملمومة على نفسك كده؟».

«يا ابني ما تنطق... هوه الناظر مش قال لك؟!».

«الناظر ماقالش كده يا ست هانم... ابقي افتحي ودانك كويس للكلام!».

«مش بتقول يا ولد إن عمك إسكندر كان هناك كمان؟!».

تنطلق في الداخل زغرودة، فتصب عليه العينان احمرارهما...

«عاجبك كده يا سيدنا الافندي؟».

«يا ابني ما ترد.. انت جرى لك إيه؟ مش بتقول الناظر قال لك؟».

وتأتي من الشارع صيحة «بعضشي».

«ويكا... يا ويكا...».

يستدير بالرغم منه نحو البلكونة فيلمح «أوظه» في بلكونة بيتهم...

«مش نازل يا اسمك إيه؟!».

ولعلعت ضحكة أم النواجي وهي تصيح في الداخل:

«والنبي... ومن جعل النبي نبي ما انا نازلة من هنا إلا لما اشرب الشربات... وآخد الحلاوة كمان... اسم الله... دي الشهادة يا ادلعدي!».

تخترق عينا أبيه قمة رأسه:

«كويس كده؟!».

وتزيط الغرفة بالضحكات... وتصفق المرأة بكفيها في مرح:

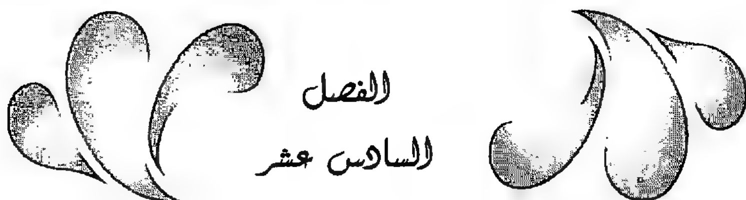
«الشربات يا أهل البيت...».

ويجيء الصوت المزمجر وسط صليل الضحكات:

«عاجبك كده يا ست هانم؟!».

وقبل أن تفتح أمه فمها، تنقر باب البيت أصابع متلهفة مرحة... ينتفض في مكانه وقلبه يدق، ها هو الفرج قد جاء، يملأ صدره بالهواء وينفذ فيما بين أمه وأبيه غير عابئ، ويصيح بلا إرادة:

«طنط جانيت!!».




الفصل السادس عشر

لـن ينقـذه اليوم إلا هي، وسـتكون أول من يقبلـه... صوت «أوظه» يناديـه... لهفته على لقاء طنط جانيت أقـوى... فاح عطرها فصاح قبل أن يراها:

«طنط جانيت... أنا نجحت».

يطالعه وجهها الباسـم بكل روعته، تنحنـي عليه لتضمه إليها فيغرق في صدرها مغمضًا عينيه:

«وأنا جاية علشانك مخصوص يا حبيبي...».

القبلـة... والضمـة الحانيـة... والهـواء المعطـر يمـلأ صـدره... ورائحتهـا تغـزو كيانـــه، وعندمـا قبلتـــه... قبلهـا، وعندمـا ضمتــه إليهـا... لـف ذراعيـه حـول عنقهـا... وصـدره يجيـش بالانفعـال... يفـور الدمـع مـن عينيـه، ينخـرط فـي بكـاء صامـت فيتـرك لنفسـه العنـــان دون مقاومة... ورغم دهشـة الجميع إلا أنه استشـعـر للبكـاء لـذة عجيبة!

«والله عال... إيه ده يا سيدنا الافندي؟!».

ولا بد أن يكون أبوه هو السباق لاستقبال طنط جانيت، وتنشغل أمه بغلق باب الغرفة الكبيرة على النسـوة والاعتذار لهن... أما هي فكانت

راكعة على ركبتيها لتحيطه بذراعيها وتضمه إلى صدرها وتقبله... يزمجر أبوه من خلف ظهره فتصيح فيه منذرة:

«ثابت... خلي عندك دم... ده بقى راجل واخد الابتدائية خلاص».

«وعرفتي منين يا ست هانم.. الخبر لسه مش أكيد؟».

ويرتجف...

فماذا لو كان الخبر غير صحيح بالفعل؟!

«سيبي الولد يا جانيت، بلاش دلع...».

الصوت منذر وغاضب، ولكن... هل يستطيع الاقتراب منه طالما كانت هي موجودة؟!

...وعندما أراد أبوه ذات مرة أن يضربه في حضورها منعته وسدت عليه الطريق وفردت أمامه ذراعيها وصاحت فيه ضاحكة:

«اتفضل عدي لو كنت تقدر يا سي ثابت...».

وكانت أمه تقف بعيدة عنهم وهي تفرك كفيها وقد بدت عليها الحيرة...

«خلاص بقى يا ثابت أفندي... علشان خاطر جانيت...».

لم يرد أبوه على طنط جانيت، وإنما زأر في وجه أمه:

«إنتي تخرسي خالص... فاهمة!».

بعد الزئير أطلقت الحبيبة ضحكتها المزغردة في أنحاء البيت كله:

«خوفتني.. والنبي انت ما تنفعك واحدة زي مراتك دي أبدًا...».

وقالت أمه وهي تتراجع نحو الحائط:

«عاجبك كده يا جانيت...آهه دايمًا يشخط فيَّه بالشكل ده!».

لماذا لا ترد أمه على أبيه؟ ولماذا تخاف منه؟ ولماذا لا تقول له يا ثابت فقط مثلما تفعل طنط جانيت وهي ليست زوجته؟!

«ما هو الحق عليكي يا عبيطة... ساكتة ليه؟!».

وهو لم يحب أحدًا من أصدقاء أبيه قدر حبه لعم ألبير زوج طنط جانيت... وليس هناك من يشبهه منهم، لا عم ياقوت ولا عم أبو فرخة ولا عم رزق ولا الناظر ولا عم مينا... هو دائمًا يبتسم... دائمًا طيب الوجه هادئ الملامح خافت الصوت... وفي كل مرة ذهب فيها إلى بيتهم تمنى لو لم يغادره حتى آخر العمر، الصالة الواسعة والأرض اللامعة والضوء الخافت والستائر الرقيقة والجدران والأثاث وكل شيء... غرفة النوم من الخشب وليس لسريرها ناموسية، وفي البيت دائمًا ذلك العبير الذي يتسلل إلى عظامه! ولطالما تساءل: لماذا لم يكن لطنط جانيت ولد أو بنت؟! وكلما جلس في بيتها أحس برغبة شديدة في الصلاة... وهم ذات مرة أن يفعلها ثم تراجع متسائلًا:

«أليس حرامًا أن يصلي في بيت نصارى؟!

«وإيه اللي عرفك بالخبر يا جانيت؟!».

«العصفورة».

تقولها بدلال وهي تجلس في الصالة دون أن تتركه... يجلس أبوه أمامها وتتراجع أمه إلى الغرفة الكبيرة، تغيب لثوان... ثم تعود لتقف بباب الصالة ترقب الحديث الدائر وذراعاها معقودتان أمام صدرها،

الضحكة بضحكة، والكلمة بكلمة... وطنط جانيت لا تكاد تستقر من الفرحة:

«كنت في زيارة لزوجة مينا افندي... بقى لي شهر مارديتش زيارتها، كنت مكسوفة يا ثابت وفي نص هدومي منها... أنا دخلت من هنا، وسعداوي طب من هنا... جايب الخبر».

«خبر إيه يا جانيت... ده مش أكيد، ومحدش لسه يعرف!».

«صدقني يا ثابت ماقدرتش اقعد عند الست أكثر من خمس دقايق، لما بقيت في نص هدومي وانا نازلة من عندها...».

شيء كالوخز يصيب قلبه... وعندما تململ أفلت يده من يدها فلم تشعر... يتراجع قليلًا إلى الخلف عندما تقول أمه:

«مالكيش حق يا جانيت، دلوقت الست تزعل...».

«تقفز الحبيبة واقفة وهي تضع يديها في خصرها... فتتمسح نظراته بجسدها بطول الظهر...

«اسمعي يا بت انتي.. اللي تزعل تزعل... ...».

وترد إليه الروح عندما تلتفت نحوه في مرح... ثم تنحني لتضمه إليها قائلة:

«حبيبي نجح... وافضل انا قاعدة في بيت مينا أفندي اقول سلامات... الله يآنسك؟!».

«يا جانيت اعقلي... الخبر لسه مش أكيد...».

«فين الشربات امال؟!».

«شـربات علـى إيـه يـا مجنونــة انتــي... علـى حاجـه لسـه مـا نعرفهاش؟!».

وتقول أمه هامسة في تخاذل:

«أنا مش قلت لك يا ثابت أفندي؟!».

«بطلي زن يا ست هانم... إنتي فالحة الا في كده؟!».

«ثابت!!».

«مش لما نتأكد يا جانيت؟!».

«يرضيكـي والنبـي يـا اختي كـده؟ أم النواجـي قاعدة جـوه وطلبت تشرب شربات بلسانها!!».

«وافرضوا إن احنا جبنا الشربات... والبيه سقط!!».

تميـد بـه الأرض ويختنق صـدره، يرفع عينيه إلى أبيـه ولم يكن هذا ينظـر إليه، يرفعها إلى طنط جانيت ليجدها لاهية عنه وإن كانت ذراعها تحيط به، يستدير نحو أمه ليراها فاغرة الفم حائرة:

«تف من بقك يا ثابت أفندي... الشر بره وبعيد يا اخويا...».

ولا تختفي الابتسامة... ولا تزول النظرة التائهة ويأتي الصوت كالحلم:

«إخص عليك يا ثابت، يهون عليك تقول كلمة زي دي؟!».

«يعني ام حامد تفرق شـربات واحنـا لأ يا اخويـا؟ طـول ما حسـك في الدنيا نفرق الشربات على كيفنا.. فيها إيه دي؟!».

«ثابت... انت ما ينفعشـي معاك الطيب، قزايز الشربات حاتيجي... تعالى يا حبيبي روح عند بنداري وهات قزازتين شربات...».

يرتد بعينيه إلى أبيه في تساؤل خائف... يشعر فجأة برغبة شديدة في القيء، يضع يده على فمه ويتأوه... النمل الزاحف من الساقين إلى البطن... ثم الصدر... والثلج اللابد في الأطراف وركبتاه ترتجفان... وينهار السقف هاويًا إلى الأرض...

«ما لك يا حبيبي؟!».

«ما لك يا ولد؟ بسم الله الرحمن الرحيم...».

«جرى إيه يا سيدنا الافندي... إيه ما لك؟!».

العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين والأنف العظيم ولا صوت، الأفواه والأسنان ولا بد أن أمه الآن تصيح لكن صوتها لا يخرج، الحيطان والأبواب وجسده السابح في الهواء ولا شيء يسنده مهما امتدت يداه لتلحقا قشة طائرة على بعد... يريد الكلام لكن يدًا تقبض على عنقه وتحبس أنفاسه... شفتاه تنتفخان ولا بد أن لسانه قد مات، فهل حل الأجل؟! ذراعاه مشدودتان وساقاه امتلأتا بالحديد ويعود السقف إلى السقوط وتصعد الأرض إلى السقف والأيدي والوجه والعيون وليس لحديثهم صوت... وعندما قالت له «أوظه» ذات مرة وهما نائمان على فراشهما في العربة الخالية:

«أنا مش باحب ابوك...».

نهض وارتدى ملابسه وطلقها في الحال وعاد إلى البيت وحيدًا ليجد العصا في انتظاره لذنب لم يعلم عنه شيئًا... ولو ظهرت النتيجة ولم يكن ناجحًا..! ويختنق صدره برائحة البصل النفاذة وتتسلل المياه إلى عنقه وصدره وهو راقد على فراش أبيه... والوجه الجميل يطل

عليه بابتسامة... خلف طنط جانيت يقف أبوه مقطب الجبين وهو يقول في صوت صارم:

«ضربة شمس طبعًا... من لعب الشوارع واللف طول النهار مع الست أوظه وبعضشي افندي!».

يتمنى لو استطاع أن يصرخ...لكنه يعرف المصير فيما بعد، تمتلئ عيناه بالدمع ويتحرك لسانه فيطلق لسحابات الدمع المختزنة في صدره العنان، تحيطه الحبيبة بذراعيها فيدفن رأسه في صدرها وهو يشهق وكل جسده يرتجف، تدب أقدام أمه على أرض الغرفة ويعم الصمت تمامًا ويأتيه همس أمه خافتًا:

«عين... عين وصابت... من قبل ما نعرف...».

ثم تملأ أنفه رائحة البخور...

«إيه ده يا ست هانم؟!».

«بخور... بخور يا خويا... الواد كان حايروح من إيدينا».

ينسحب الدمع من عينيه ويصفو وجه طنط جانيت... لكن في عينيها الواسعتين دمعًا لا يخفى...

«عاجبك كده يا سيدنا الافندي؟ علشان تبطل جري في الشوارع!».

«ثابت؟!».

هكذا كانت تناديه دائمًا، لكن الصوت الآن مختلف...

«وبعدها وياكي يا جانيت؟!».

«ثابت... والمسيح الطاهر ما ادخل لك بيت بعد كده...».

وتدق أمه على صدرها:

«إنتي بتعيطي يا اختي؟».

ويضحك أبوه وهو يعود إلى الكنبة ويشعل سيجارة... وفي الغرفة المجاورة كانت الأصوات خافتة، تميل عليه حبيبة القلب وتقبل رأسه وتربت على كتفه... ثم ترفعه بذراعيها فينهض معها وهو يمسح دموعه وينظر فيما حوله في دهشة... إذن، فهذا هو الإغماء؟!

«صلاة النبي أحسن!».

القول المتهكم الساخر له وقع العصا الرفيعة...

«شد حيلك يا حبيبي علشان تروح تجيب الشربات...».

ولا ينطق أبوه حرفًا وتخرج أمه بالمبخرة فينفذ الدخان من النافذة إلى الشارع. يرفع عينيه إلى أبيه هذه المرة ويتمنى لو رآه ميتًا... تجف دموعه ويهدأ قلبه ثم يتنفس ملء صدره وكل عظامه تتفكك... ينزلق من السرير هابطًا إلى الأرض ويدها تحيط به...

«إنت كويس دلوقت يا حبيبي؟!».

يهز رأسه فتبتسم وهي تمسح دموعها... ثم تدفعه برفق نحو الباب...

«تروح على مهلك وتيجي على مهلك، تجيب الشربات من عند بنداري، وتجيب لنفسك شيكولاتة كمان».

ولا يستطيع الحركة فكأن شيئًا يجذب عينيه نحو الوجه الجاثم بجوار الشباك، ترتفع اليد بالسيجارة إلى الفم، ويندفع عمود الدخان حتى منتصف الغرفة، وتهتز الرأس في استسلام:

«اتفضل يا سيدي... اتفضل...».

وتصيح أمه في فرح:

«تجيبهم برتقال وفراولة يا ولد... برتقال وفراولة.. إوعى تنسى...».

يغادر باب الشقة وكأنه يسير فوق سحاب.. يغلق الباب وراءه فيرتج جسده كله بالراحة... وإذا كان هذا هو الإغماء فما الذي يؤلم فيه؟ يتنفس ملء صدره وهو يهبط السلم على مهل... قبل أن يصل إلى الفناء يندفع إخوته من باب الشارع صائحين مهللين وهم يتزاحمون ويتسابقون... ما إن يروه حتى يتوقفوا وهم يتحدثون إليه في صوت واحد... عيونهم الواسعة... وأفواههم تفتح وتغلق بلا توقف... تقترب منه سامية وتتقهقر سهام مبتعدة... ويبقى سامي في مكانه، وتصيح سامية في فرح:

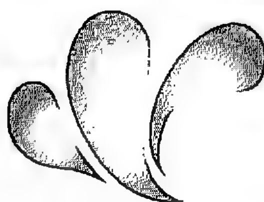
«انت مادريتش؟!».

ويرد عليها بصوت ما زالت آثار الدموع تبلله:

«بإيه؟!».

وتصيح سهام وهي تقترب من باب الشقة وتستعد للفرار من وجهه:

«إنت نجحت يا عبيط.. حتى اسأل العيال في الشارع!».



الفصل السابع عشر



يستقبله «بعضشي» عند باب البيت مهللًا:

«حاتركب بسكليت يا ويكا؟!...».

وتلمحه «أوظه» فتخطف حذاءها بأصابعها وتندفع إليه:

«تيجي نروح اللي بالي بالك يا اسمك إيه!؟...».

ويهتف «بعضشي» بعلو صوته:

«تاخدوني معاكم!؟...».

فيرد عليهما بفخر واعتزاز:

«أنا رايح اجيب شربات!».



ينفلت إلى الشارع المزدحم وهو يتلقى نظرات الناس بخجل... وعيناه إلى الأرض، تصيح أم «بعضشي» وهي في نافذة بيتها العلوية:

«اسم النبي حارسه وصاينه يا اختي... إن شالله عقبال ما نفرح بيه يوم فرحه!».

... ويقف العيال صفين وظهورهم إلى حيطان البيوت وهم يتطلعون إليه بعيون مبهورة، ويزعق من خلفه عم علي سراج:

«مش تيجي لما نبارك لك يا ابني؟!...».

عند الناصية يستقبله الحلاق أمام باب دكانه محدثًا رجلًا امتلأ وجهه بالصابون في الداخل:

«ده ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات... أخد الشهادة النهارده!».

ويتوقف رجل كان يمر بالشارع لينظر إليه ويحملق في وجهه مبتسمًا، وتزداد ابتسامته اتساعًا وهو يداعب شاربه... ثم يمضي عنه دون كلمة... وعندما يقترب من السوق يحيطه «بعضشي» بذراعه قائلًا:

«آجي معاك وتديني كباية شربات يا ويكا!؟...».

وتتبرم «أوظه» وهي تسبقهما... ثم تستدير نحوهما سائرة بظهرها:

«أنا رايحة البر التاني!».

يتوقف عن السير وينظر إليها في غضب ويقول:

«مش أنا سُورقت النهارده!؟...».

كيف أغمى عليه؟... وما الذي حدث منذ كان في الصالة حتى أفاق فوق السرير الكبير؟... هل حمله أبوه... أم أن طنط جانيت هي التي حملته؟... عينا «بعضشي» الدهشتان... وشفتا «أوظه» المقلوبتان... ومن حولهم زعيق السوق ونداءات الباعة ولطالما تمنى أن يصيبه الإغماء حتى يكتشف ما يحدث للناس أثناءه، وعندما كان «عبورة» أو «بعضشي» يصاب بالإغماء كانت أمه تطق بالصوت ويتجمع الناس وتدس في أنف ولدها بصلة كبيرة وترش على وجهه الماء وتقرأ في أذنه القرآن... يهتف «بعضشي» في قلق:

«انت سورقت صحيح يا ويكا!؟...».

فيهز رأسه إيجابًا، ثم تنتابه الرعشة عندما تصيح «أوظه» وهي تلتصق به:

«يبقى عليك عفريت!!...».

يلمح «حامدًا» على البعد فلا يهتم، وتضع «أوظه» ذراعها حول كتفه، ويلتصق خدها بخده:

«أبقى آجي لكم لما امك تعمل لك زار... يا اسمك إيه!؟».

يوقعه سؤالها في الحيرة فلا يرد... يقترب منهم حامد وكانت «أوظه» لا تزال تحيطه بذراعها فلا ينظر إليه، ويصيح «حامد» وهو يبتعد بدراجته: **«ساقط... يا ساقط!...»**.

...فلا يلتفت نحوه ولم تغضب، ابتسمت له وتوقفت عنده وانحنت عليه وقبلته... ثم أعطته قرشًا، فلماذا يغضب أبوه كلما رآه يلعب مع «أوظه» أو «بعضشي»... لماذا؟!

«أنا رايحة البر التاني!...».

يغمره الغضب فجأة فيطلب منها أن تفعل ما تشاء...ورغم كل شيء فلن يتزوج إلا هي... وعندما يأخذ التوجيهية سيصبح مهندسًا أو ضابطًا وسيكون له بيت مثل بيت عم ألبير، وستكبر «أوظه» ولا بد أن يجعل لها رائحة طنط جانيت، وسيناما على سرير من الخشب، ولن يضع فوقه ناموسية... في زحام السوق تتشبث به وهي تطلب منه أن يسير على مهل، تزوم وتغضب وتدق أرض الطريق بقدمها وهي تسأله إن كان سيذهب معها إلى البر الثاني فلا يستطيع الإجابة... ولو استطاع

الآن أن يذهب معها لكان أسعد الناس ولأيقن أن الله يحبه... ولو مات أبـوه فلـن يمنعه أحد عـن صنع شـيء يريده، ولـن يخاف إذا سـهر في الخارج حتى منتصف الليل، وسيذهب إلى المولد ويلعب مع العيال... ويركـب المراجيح... ويأكل الحلوى... ويشـرب الشـربات ويصحب «بعضشـي» إلى المقهى ليشـربا شـايًا... ويلعبا الطاولة... وسيعود إلى البيـت ليجد «أوظـه» في انتظـاره... وهي ترتدي قميصًـا أحمر كالذي ترتديـه طنـط جانيـت... ولا يراهـا بـه إلا هو وعـم ألبير... ينظـر إليها مبتسمًا... لكنها تعبس في وجهه، يدور «بعضشي» حولهما ويسبقهما... ثم يعود إليهما كقطار مرة... وكسيارة مرة أخرى... وسيصعب عليه من الآن أن يفعـل مثـل هـذا، سـيصبح طالبًا فـي الثانوي وليـس تلميذًا في الابتدائي، ولا بد له أن يصلي كل يوم وسيحاسـبه أبوه لو تأخر عن أداء فرض، ولو لعب يومًا مع «بعضشـي» سـتكون الطامـة، ولو رآه أبوه مع «أوظه» بعدها لكانت هذه هي جريمة الجرائم... يتمنى للحظة ألا ينجح فيـدق قلبـه لهول ما سـيحدث... تبتعد ضجة السـوق مـن خلفه عندما ينثني إلى شـارع بنداري البقال ويلوح له النيل عن بعد، وتبتعد «أوظه» عنـه فجأة وهي تندفع نحو المياه التي بدت من بعيد وهي تضوي تحت وهج الشمس...

«أنا رايحة نعوم!».

يتشبث بها وقد اقتربا من دكان بنداري:

«أوظه!...».

«أنا عاوزة نعوم!...».

تفلت منه فيصيح وهو يعدو خلفها متوسلًا:

«مش عاوزة تشربي شربات نجاحي!؟».

«ما نحبوش!...».

ويهتف «بعضشي»:

«وانا يا ويكا... وانا!؟...».

يغزوه الحزن ظاهرًا... فيتوقف عن العدو ويقول:

«مش انا نجحت يا أوظه؟...».

«أبوك بيقول ماحدش لسه يعرف حاجه!...».

«حضرة الناظر وعم مينا قالوا!...».

«أنا عاوزة نروح البر التاني!...».

«لو أنا رحت معاكي... بابا يزعل ويضربني!...».

«وانا مالي!...».

«طب لما اجيب الشربات...».

«تديني كبايه يا ويكا!؟...».

«قلت لك... أنا ما نحبش الشربات!...».

«علشان نشيل القزايز سوا!...».

«أنا عاوزة نعوم!...».

«مش هوه جوزك يا بنتي؟...».

«أنا ما لي... أنا مش زوجة حد!...».

«حا خاصمك!...».

«خاصم!...».

«وانا كمان حا خاصمك!...».

«طظ!...».

«طلقها يا ويكا!...».

«هوه الجواز دلوقت ينفع يا ابني... داحنا لسه صغيرين!».

«أوظه... ...».

«أنا ما لي أنا عوزة نعوم!...».

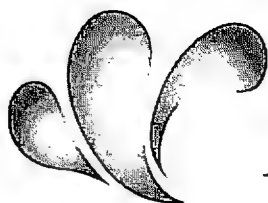
تنفلت عدوًا نحو النيل... فتتسمر قدماه في الأرض وبركان الغضب يزمجر في صدره، تظل تعدو وتعدو حتى تختفي هناك... يلتفت نحو «بعضشي»... فيقبل هذا عليه:

«ولا يهمك يا ويكا، بكره تلاقي أحسن منها!...».

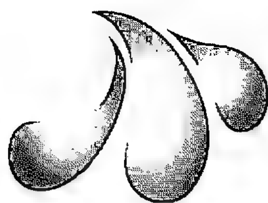
يشجعه حديث صديقه فينفجر:

«والله العظيم.. والله العظيم... ثلاثة بالله العظيم ما انا لاعب معاها بعد كده... حا طلقها... واتجوز واحدة تانية!...».

ولسوف يفعلها، حتى ولو كان الخبر غير صحيح!...



الفصل الثامن عشر



يملؤه الحزن والغضب وهو يوسع الخطا... يقترب من دكان بنداري ولا تزيل صيحة الرجل المرحة غضبه، تتسمر قدماه في الأرض وهو يرتجف... الوجه العريض... والشعر القصير والجسد المكتنز... والضوء الخافت في الدكان والرائحة النفاذة وابتسامات الرجل في الداخل:

«ألف مبروك يا عفريت يا ازرق... ألف نهار ابيض!...».

تركته في يوم نجاحه لتلعب مع العيال... بلغ الخبر عم بنداري ولا يدري كيف، ولا بد أن كل الناس تعرف...

«بابا بيقول لك عاوزين قزازتين شربات... واحدة برتقال... وواحدة فراولة!...».

الوجه الضاحك والصوت العالي... وإذا الصيحة تملأ الشارع فتلتفت إليه كل الرءوس:

«وحياة النبي لو كان ابني نجح ما كنت افرح له بالشكل ده... ده علشان ربنا بيحب ابوك!...».

وإذا كان الله يحب أباه... فهل لا يحبه هو؟... وإذا كان قد نجح... فهل فعل الله ذلك من أجل أبيه... لا من أجله هو!؟...

«هـات لـه قزازتين شـربات على الحسـاب يا زكـي، وقزازتين على حسابي!...».

يلمح حامدًا وهو آت من أول الشارع فينتفض قلبه بالسرور، وما إن وقف «حامد» بدراجته أمام الدكان حتى يصيح في عم بنداري:

«وشيكولاتة كمان.. بابا بيقول هات باكو شيكولاتة كبير!...».

يغمـر الغيظ وجه حامد فيزداد سـروره، ويتذكر أوظـه عندما يصيح عم بنداري في التليفون:

«ده ابن ثابت أفندي يا سعادة البيه، أخد الشهادة!...».

يدق قلبه فربما كان عم بنداري يحدث محجوب بك نفسـه، ولا بد سيذكره الرجل وسيشـتمه وسيقول عنه كلامًا حدث وكلامًا لم يحدث وسيصدقه الناس ويكذبوه، ويضحك عم بنداري صائحًا:

«يوصل إن شاء الله... حا بلغ ثابت افندي... عقبال ما نفرح بالهانم الصغيرة، يا سعادة البيه!...».

تخطـر «نادية» ببالـه ويتخيل «أوظه» وهي تعدو فـوق الكوبري إلى البـر الثاني وحدها، ينتابه الضيق عندما يقترب «بعضشـي» من «حامد» ويضع يده فوق الدراجة قائلًا:

«تديني لفة يا وله يا حامد؟...».

يضع عم بنداري زجاجات الشربات بين يديه:

«كفايـة كـده دلوقـت، وابقـى تعالـى خـد باكـو الشـيكولاتة كمان شوية!...».

يلمحه «بعضشي» بحمله... فيندفع نحوه ليحمل عنه زجاجتين...

«بلاش عفرتة لحد ما تروح، وتخللي بالك من القزايز كويس، انت بقيت راجل اهه!...».

يمضي بجوار «بعضشي» في السوق «وحامد» يتبعهما، يشعر مع الضيق بنشوة شديدة، ولو كانت «أوظه» معه الآن لحملت زجاجة شربات وطردت حامد وضربته وأوقعته من فوق الدراجة لكنها الآن تغدو فوق الكوبري... هي لا تذاكر ولا تُضرب ولا يسمع لها الجيران صراخًا إلا إذا طلبت شيئًا ومنعوه عنها... ويوم عاقبتها أمها ولم تعطها قرشًا ظلت تبكي من العصر حتى أذان المغرب... فقذفت لها أمها بالقرش حتى تسكت... يتمنى لو أصبح بحارًا ثم تاه في البحر مع أوظه وعثرا معًا على جزيرة روبنسون كروزو وعاشا فيها وحدهما.. وعندما قص على «أوظه» قصة «مدام أكسفورد» قالت له إنها بايخة... وطلبت منه أن يحكي لها حدوتة... فلم يستطع...

«هوه ابوك مش بيحكي لك حواديت!...».

يسيل العرق فوق وجهه وعنقه ويتسلل إلى ظهره... لكم اشتد زحام السوق، يرفع رأسه فيرى أمامه عم أبو فرخة والد حامد فيصيح متلهفًا:

«أنا نجحت يا عم ابو فرخة!...».

يبتسم الرجل ويتمتم بكلام لا يسمعه، ثم يمضي نحو ولده... فيشتمه في سره ويدعو عليه أن يموت وأن يدخل النار... ولا بد أن «أوظه» قد وصلت الآن إلى نهاية الكوبري، ولا بد أنها تنزلق إلى بحر الرمال الممتد على شاطئ النيل وسحابات التراب تتصاعد من حولها،

ولـو كان معها لتصايحـا وراحا يتسـابقان وقدماه حافيتـان وحذاؤه في يـده... لاندفعـا إلى كثبان الرمال وخلع كل منهما ملابسـه حتى يسـبق الآخر إلى المياه، وهو لا بد سيسبقها لكنه لم يتعلم العوم حتى الآن... لغسل جسـده من العرق وتمرغ في المياه واحتضن أوظه... وذهبا عند الغـروب إلى ما تحـت الكوبري... حيـث الظلال الداكنـة والهدوء... وأصوات الجنود وصيحاتهم الآتية من كل صوب... ومهما حدث فلن ينسـى المرة الأولى وكل منهما يقـرأ الفاتحة، عيناها ووجهها الملتهب وشعرها المبتل وابتسامتها... ثم:

«مش حاتبوسني... يا اسمك إيه؟!...».

وتضـرب دقـات قلبـه في حلقـه... ويجف لعابـه... وتلتهـب أذناه وتتثلـج شـفتاه وهمـا تلامسـان خدهـا... وإذا هما يسـتحمان في بحر الرمـال تحتهما، وإذا هما يسـتحمان فـي بحر الرمال الدافـئ، وإذا هي تهمس وعيناها في عينيه:

«بوسني هنا!...».

لم تخطر له الجنة ولا النار على بال، تذكر أباه... ثم تذكر الله... ثم نسـيهما في الحال.. هو شـيء وقع لـه ولن يحدث مرة أخـرى، وكلما ذهـب معها إلى البـر الثاني بحث... وانتظر... وترقـب... ودق قلبه... لكن المرة الأولى لا تتكرر، وكلما اسـتحم معها صاح واضطرب.. ثم أخذها إلى كثبان الرمال وتمرغ معها... ولكن هيهات، وعندما يغلقون عليـه الباب ويفتح الكتاب ويسـتعد للمذاكرة، وعندما يسـود السـكون إلا مـن أنفاسـه مع خضرة السـتائر المسـدلة، وعندما تتسـلل إلى عقله «أوظـه» والبـر الثاني وطعم الشـهد فيسـتغفر ويتـوب... وعندما تخلع

ملابسها مرة أخرى وقد عفرتهما الرمال من رأسيهما إلى أقدامهما.. يسرع هو الآخر فيخلع ملابسه دون وعي... وإذا هو عار تمامًا تحت سماء شديدة الزرقة.. وإذا نسمة تهب فكأنه يطير فوق البساط السحري، وتدفعه «أوظه» ضاحكة فيتمرغ فوق الرمال بجسد عار وتغزوه لذة تطلق الصيحات من حلقه عالية تملأ الفضاء الساكن من حولهما... وإذا هي تستلقي بجواره فيمر بأصابعه على جسدها الأبيض وتسري في جسده رجفة، حملق في صدرها النابت... ثم ابتسم وهو يلمسه بأصبعه قائلًا:

«مشمش!...».

فدفعته أوظه وهي تضحك:

«أمي بتقول رمان!...».

ولو خرجت جنية من أعماق المياه لتخطفه يومها لما استطاعت... وإذا حديث «أوظه» في فمه كقطرات عسل شديد الحلاوة:

«لما تخلص الحرب نرجع اسكندرية!...».

«إحنا لنا قرايب هناك!...».

«لما تروح لهم حاتيجي عندنا؟!».

«لما اكبر حا اتشغل هناك!».

«وتتجوزني؟!...».

«ونسكن في بيت زي بيت عم ألبير!...».

«لما نتجوز حا نسكن في الرمل!...».

«نسكن على الكورنيش، قدام البحر!...».

«أنا عاوزة أودة نوم خشب!...».

«أنا عاوز ابقى، يا إما ضابط يا مهندس!...».

«ونجيب أمي تعيش معانا!...».

«وحا اشتري لك قميص احمر!...».

«حا نطبخ لك كل يوم مسعقة، أنا بنعرف نطبخ!...».

«أنا باحب الملوخية!...».

«وانا مش عاوزة نخلف، خالتي رقية ماتت وهي بتولد!...».

«أنا ما احبش العيال!...».

«أمي بتقول العيال نعمة!...».

«تيجي نسافر بلاد برة!...».

«أنا عاوزه نسافر اسكندرية!...».

«انتي بتخافي من الغارات؟!...».

«نوسة أختي ماتت في الغارة!...».

«هوه فيه قنابل بصحيح في اسكندرية؟!...».

«أنا عاوزة نروح... عاوزة نروح بيتنا.. أنا مروحة!...».

قرب ناصية الشارع يسير حضرة الناظر مع عم إسكندر، يسيران متجاورين وقد انثنيا من السوق ناحية شارعهم... يجمد في مكانه وهو يحملق فيهما، وإذا كان عم إسكندر قد جاء مع حضرة الناظر فلا بد أن

عم ألبير قد حل محله... ولا بد أن الساعة الآن الخامسة وعشر دقائق، ينظر إلى «بعضشي» ويقول بلسان مرتجف:

«الناظر!...».

«الناظر!...».

يرددها «بعضشي» في وجل وهو يقدم له زجاجتي الشربات، يأخذهما منه فيثقل حمله.. لكنه ينطلق عدوًا وفي قلبه ألف صرخة... ظهرت النتيجة حتمًا وعرفها الناظر وعم إسكندر... تحدث عم كامل من البندر... وزف إليهما الخبر، يبتلع لعابه ويخفف من سرعته وهو يجاورهما ويرفع إلى وجهيهما عينيه... وكانا يبتسمان... يراه الناظر فيتوقف وتسقط عيناه على زجاجات الشربات فتزداد ابتسامته اتساعًا... يبدو وجه الناظر جميلًا طيبًا، أجمل مما كان في المكتب، وعندما يتحرك شاربه الكث يتلوى قلبه باللهفة:

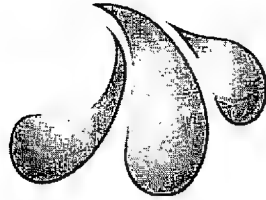
«اجري يا ولد على البيت وقول لوالدك: إننا جايين نشرب الشربات!...».

إذن فهو اليقين!...

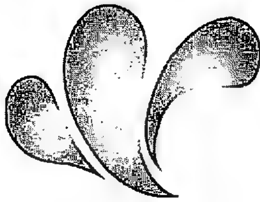
«هو عم كامل اتكلم من البندر يا عم اسكندر!؟...».

ويصيح عم إسكندر:

«اجري يا جن... اسمع كلام حضرة الناظر!...».



الفصل التاسع عشر



فات الكثير ولم يبق إلا القليل، ومهما طال الزمن فيستطيع أن يلحق «أوظـه» فـي البر قبل عودتها... سـيكون معه مصروفًا يشـتري به شـيئًا أو يسـتأجر دراجة إن أحب، وسيستحم معها في المياه ويتزوجها... ثم يأخذها معه أينما ذهب بعد ذلك... وسيكون معهما «بعضشي» إذا عاد قبـل العشـاء... الشـارع الممتـد حتـى الوسـعاية... وبـرج الكنيسـة بأجراسـه... ومئذنـة الجامع... الجدران والبيـوت... والوجوه المطلة عليه بعيون ملؤها الابتسام... وسيشرب كل منهم كوبًا من الشربات... الأشـياء تتطايـر من حوله وهـو يطلق لسـاقيه العنان... أنفاسـه تتقطع، ولسانه يتمتم بشكر ملهوف:

«الحمد لله... الحمد لله... الحمد لله يارب!...».

وإذا مر بشـخص يعرفه فلا بد أن يسـمع نفس السؤال: «هيه النتيجة ظهرت؟!...» ولا يستطيع سوى أن يردد في لهفة:

«حضرة الناظر، حضرة الناظر!...».

وبعد دقائق سـوف يعود إلى الشـارع.. وعلى الأولاد أن يفسحوا له الطريـق وهـم يحملقـون فيه وفـي زجاجات الشـربات بيـن ذراعيه... تطارده النظرات والأسئلة لكنه لا يستطيع إلا أن يردد **«حضرة الناظر... حضـرة الناظـر!»**، يقفز السـلم قفـزًا وينفذ مـن الباب المفتـوح مندفعًا

إلى الداخل ليصطدم بأبيه وسط الصالة... يرفع عينيه إلى أعلى ليطالعه الشـرر المنبثق من العينين الغاضبتين دائمًا وليسـت طنط جانيت هناك، لكن الحبيبة تخرج إليه من غرفة النوم قبل أن يفتح فمه بكلمة...

«حضرة الناظر... حضرة الناظر!...».

وتشهق أمه من خلفه:

«حضرة الناظر؟!...».

ويختفـي شـرر الغضب وتنفـرج ثنيـة اللحـم ويأتيه الصـوت مليئًا بالاهتمام:

«ما له حضرة الناظر يا سيدنا الافندي؟!...».

وتنحني عليه طنط جانيت فيغرقه عطرها ويأتيه صوتها:

«إيه الحكايه يا حبيبي... هات القزايز دي الأول!...».

وقبل أن تمد يدها إلى الزجاجات... يجد صوته يقول:

«حضرة الناظر يا طنط جانيت وعم اسكندر... دول جايين ورايا!...».

«مين اللي قال لك الكلام ده يا سيدنا الافندي؟...».

«دول زمانهـم طالعين على السـلم يا بابا... حضـرة الناظر هوه اللي قال لي دلوقت!...».

هـذه أول مرة يقول فيها شـيئًا لأبيه فيبتسـم... يندفع نحـو البلكونة يطـل منهـا بينمـا أمه تنقض بلهفـة علـى الزجاجات، وتهـرول بها نحو المطبخ:

«يا دي الحوسة يا اختي... دا ما فيش ثلج!...».

«اسـمعي يا بنت انتي بطلي لبخه، إيه يعني الناظر، هيه القيامة قامت كل حاجة على مهلنا... إيه يا ثابت، دخلوا البيت؟!...».

يعـود أبوه من البلكونة وقد انبسـطت كل أسـاريره وبـدت في عينيه فرحة طغت لها جوانحه بالألم...

«ادخلي انتي وجانيت أودة النوم!...».

«حاضر يا اخويا!...».

تقولهـا أمه وهي تتجه إلى غرفة النـوم ملبية في اهتمام... وتضحك طنط جانيت في وجهه:

«ومين يعمل لك الشربات يا سي ثابت!...».

«خلي الســتات اللي جوه يوطوا صوتهم شـويه... الناظر طالع على السلم!...».

وتعود أمه إلى عبور الصالة وتتجه نحو باب الغرفة الكبيرة مرددة:

«حاضر يا اخويا!...».

ويتسـرب إخوتـه بـلا صوت... ثـم يقفـون بجوار بعضهـم البعض وتندفع سهام نحو باب الشقة لتغلقه... فيصيح فيها:

«ماتقفليش الباب... حضرة الناظر جاي!...».

«اخرس انت!...».

يقولها أبوه بجفاء... فترتد نفسه إلى الخلف متوارية...

«تعملوا كبايتين شربات كويسين يا جانيت وابعتي حد من الولاد يشتري ثلج بسرعة يا ست هانم... وتطلعي الطقم المذهب من دولاب الفضية!».

وتدب على السلم أقدام تقترب في بطء... وسعلة ترتفع من خلف الباب، معلنة وصول الضيوف... ويتحرك البيت كله باهتمام، إخوته والخادمة وأمه... وطنط جانيت... والمقاعد والستائر والأحذية والشباشب... ويخفت صوت النسوة في الداخل... ثم يعود صمت كصمت الجامع بعد صلاة العشاء وانفضاض الناس من حول الشيخ وتخلو الصالة تمامًا وتبدو الأبواب وكأنها تحبس أنفاسها... وما يكاد يتحرك نحو الباب حتى يسمع نقرًا وقورًا قويًّا واضحًا يدق له قلبه بعنف، ويصدر أبوه الأمر بصوت واضح النبرات عظيم، وكأنه يتحدث في الراديو:

«افتح الباب يا ولد!...».

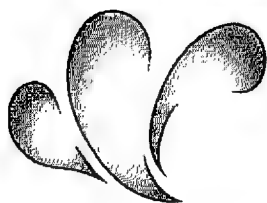
وقبل أن تمتد يده إلى باب الشقة يسمع صرير باب الغرفة الداخلية، فلا بد أن أمه تريد رؤية الناظر من ثقب رفيع بين الضلفتين:

«اتلمي واقفلي الباب يا ست هانم!...».

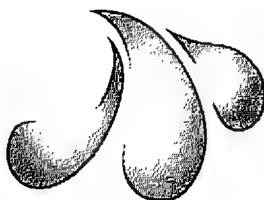
يأتيه صوت أبيه هامسًا كصوت العصا وهي تشق الهواء، وقبل أن تمتد يده لتفتح باب الشقة، يلتفت إلى الخلف ليطمئن أن آخر الأوامر قد نفذ... كل شيء ساكن وليست هناك سوى قامة أبيه تكاد تصل إلى السقف، ونظراته الثابتة، وتدهمه الرهبة فترتجف يده وهي تمتد نحو الباب لتفتحه وما إن يتعالى صريره حتى تدوي في سكون البيت كلمات أبيه:

«أهلًا وسهلًا حضرة الناظر.. ده شرف كبير لنا... أهلًا وسهلًا... أهلًا وسهلًا...».

ويحس أن شيئًا عظيمًا قد حدث... وكان هو سبب حدوثه!



الفصل العشرون



البـاب المغلـق دونـه والأصـوات المنبعثة مـن خلفه وأيـن هو من الحقيقة الآن؟!

يعلو في الداخل صوت حضرة الناظر وصوت أبيه... لكنه لا يستطيع تفسـير ما يقولان... المقاعد الخضراء والستائر السميكة المسدلة على النوافـذ كالحيطـان، السـجاد الناعـم كالحريـر... وجو الغرفـة المعبق بالسكينة... ولا بد أن الحقيقة تقبع خلف الباب واضحة...

نجح أم لم ينجح؟!

لـم يعد السـؤال الآن سـؤالًا، أصبح جوابًـا... فقد ظهـرت النتيجة وخـط القـدر كلمتـه... وإذا كان ناجحًـا، وإذا كان عم كامل قد أرسـل رسـالته من البندر، وإذا كان هذا مقدرًا في اللوح المحفوظ منذ ولد... ففيـم كان التعب والعذاب إذن؟!... لماذا ذاكر وسـهر الليالي، وخاف حتى الموت وانتابه القلق؟... الله قادر على كل شـيء فلماذا لم يخلقه بعينيـن تخترقان الأبـواب وأذنين تسـمعان ما خلف الحيطـان؟... أمه لا تتعـدى بـاب الصالة خوفًـا، تفتح الحبيبـة دولاب الفضيـة وتحمل الأكـواب المذهبـة والصينيـة الفاخـرة... ولا تخـرج هذه الأشـياء من الـدولاب إلا صبـاح كل عيد... وهـي التي فتحت بـاب الغرفة الكبيرة لتتسـلل منه النسـوة خارجات وهـن يطلقـن الدعـوات والتمنيات في

همس... تقبله أم «أوظه» وهي تقول إنها ستزوجه لابنتها حتى يصبح زيتهم في دقيقهم، ويمتد الطابور من باب الغرفة حتى باب الشقة، وتتسرب النسوة واحدة بعد الأخرى حتى يخلو البيت، فتستدير أمه نحو طنط جانيت قائلة في أسى:

«نزلوا يا اختي من غير ما يشربوا الشربات يا دي الفضيحة!».

وتزجرها الحبيبة وهي تندفع نحو المطبخ:

«كلها نص ساعة ونبعت لهم الشربات في بيوتهم... الناظر جوه والبيت لازم يفضى للرجالة!».

يسود السكون وتخلو الصالة إلا منه فيجلس على مقعد ويهز ساقيه... لا يدري ماذا يفعل... وينفرج باب الغرفة الكبيرة وتطل سهام محملقة فيه بعينيها الواسعتين ولكنها لا تجسر على الحركة، تخرج له لسانها فيبصق في الهواء ويشيح عنها بوجهه فيأتيه صوتها عاليًا:

«انت بتف على خلقة ربنا؟... طب ودين النبي لانا قايلة لبابا!».

ويسمع صرير الباب وهو يفتح... فيضطرب... ترتد عيناه ليجد سامية وهي تغادر الغرفة وتتجه نحوه في خفة وتقترب منه وعلى وجهها ابتسامة:

«انت نجحت؟!».

يهز رأسه دون كلمة... فتلتصق به متسائلة:

«أبوسك!...».

يهز رأسه مرة أخرى ويشعر بشفتيها فوق خده فيقبلها هو الآخر ويتنهد في ارتياح، وعندما تستدير عائدة... يحاول أن يوقف اهتزاز

ساقيه فلا يستطيع، تجلل الرهبة حواسه جميعًا ويكتم أنفاسه عندما يصيح «بعضشي» مناديًا:

«ويكاااا... ... ويكا...».

ولا بد أن أباه قد سمع النداء، ولولا وجود الناظر لنخسه بكلمة في عظامه... وذات يوم حيره الأمر... فسأل أباه:

«هوه ربنا لو كان عايزني اموت دلوقت يا بابا مش برضه اموت!».

خبطت أمه على صدرها صائحة:

«بعد الشر عليك يا ابني!...».

ونظر إليه أبوه متسائلًا دون كلمة... فأعاد السؤال مرة أخرى... وجاءه الجواب بلا جديد:

«قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... يا سيدنا الافندي!».

«يعني لو كان ربنا عاوزني أنجح... مش أنجح على طول؟!».

العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين... والصوت الحاسم كحد سكين:

«طبعًا يا سيدنا الافندي... وهيه دي عاوزه سؤال!».

«حتى لو ما ذاكرتش؟!».

وطقت العينان بالنور...

«عاوز تقول إيه!...».

أُرْتِج عليه وابتلع لعابه وعاد يسأل... فقد كان يريد أن يعرف:

«يعنـي يـا بابا بعد الشـر... لـو كان ربنـا عاوزني أسـقط مش برضه أسقط؟!...».

«انت عاوز تقول إيه؟!».

«حتى ولو حفظت كل دروسي وموت نفسي في المذاكرة؟!».

«جبت الكلام ده منين؟!».

«مش أنا باسأل حضرتك؟...».

«نعم...».

قالها أبوه بتبرم ونفاد صبر وهو ينفث الدخان في وجهه...

«يعنـي لـو كان ربنـا مثلًا يعنـي مثـلًا... عاوزني أنجـح، مش برضه أنجح؟!».

«من غير مذاكرة؟!».

لم يكن سؤالًا من أبيه بقدر ما كان زئيرًا ونذيرًا...

«ما هو يا بابا... ...».

وقفـز إلى الخلف مذعورًا فقد كان الكف يهوي نحو وجهه... لكنه أفلت في آخر لحظة... ارتطم جسـده بالسرير وتمرغ على قضبانه حتى اصطدم بالحائط فسـقط على الأرض متداخلًا في نفسه والزئير يلاحقه هاجمًا عليه:

«ما لك انت ومال الكلام الفارغ ده؟... انت حاتكفر على آخر الزمن يا سيدنا الافندي؟...».

«أبدًا والله العظيم يا بابا... أنا أصلي... ...».

يطل عليه الوجه الهائل من أعلى محتقنًا بدماء الغضب...

«انت تذاكر وبس، تذاكر وبس... فاهم؟!».

«حاضر...».

«وإذا كان عليك فرض تقوم بيه من غير ما تسأل... فاهم؟!».

ابتلع لعابه وهز رأسه وازداد تداخله والتصاقه بالحائط... وتبعثرت أفكاره وراح يردد:

«حاضر... حاضر...».

وقفت أمه عند باب الغرفة لكي تعلمه:

«ما هو يا ابني ربنا قال... اسعى يا عبد وانا اسعى معاك...!».

لم يعرف الجواب... وظل السؤال يلاحقه ويحيره... ولو استطاع الآن لقام وتوضأ وذهب إلى الجامع فصلى واستغفر وقام وسجد وركع تائبًا... فهل يستطيع أن يترك الناظر في الداخل وعم إسكندر حتى ولو كان الله هو سبب ذهابه؟! وإذا كان النبي قد جاءه في المنام وقال له. إنه سينجح، فقد قال الشيخ زهران نفس الكلام فهل يصدقه...؟!

وفي ليالي رمضان يطربه صوت الشيخ الشجي في المديح ويبكيه مع الناس... لكن دموعه لم تعد تستجيب منذ تلك الليلة حتى ولو أراد... اللحية البيضاء... والطربوش الأسود الذي تحيطه هالة من القماش الأبيض الناصع... العينان الصافيتان.. والوجه المليح يبدو وكأنه ملاك هبط من السماء ليهدي الناس في الأرض، ويوم تضيق به الحال كان يتوهم أنه!!... أنه ليس ابن أبيه... لكن قبلة على يد الشيخ كانت تمسح عن نفسه الحزن، وركعتان لله تصيبانه بالسكينة... سطح

الجامع والنجم اللامع والسماء الصافية والبحث عن الله والدعوات والابتهال الصادر من أعماق القلب البريء وأصداء ابتهالات الشيخ زهران... وإذا ضحكات الناظر ترده إلى نفسه فيتنفس ملء صدره... وإذا جلجلة الضحكات في الغرفة الخضراء تصفق في مرح فيبتسم... وإذا صوت أبيه يتصاعد من خلف الباب المغلق:

«وحياة عزة الله يا حضرة الناظر... أنا غلبت معاه!...».

يدهمه الانقباض فتسود أحاسيسه بلون الليل، ويوم قال لأمه: إنه سيصوم رمضان... صاحت خوفًا عليه... لكن أباه زجرها قائلًا:

«سيبيه يصوم، هوه صغير؟!...».

أسقط في يده يومها... وأصبح الصوم فرضًا لا يستطيع التراجع عنه، تمنى لو أنه لم يقل ما قال، فقد تمنى الصوم دون أمر... فلماذا يحب عصيان الأوامر؟... ولماذا يحلو له الشيء إذا منع عنه؟... كان السحور الأول مزدحمًا بالأحداث، سبقته ليلة لم يُزْجر فيها ولم يُضرَب وأُعطِيَ مصروفًا وطالعته الدنيا بابتسامة جللت وجه أبيه... وظل في الشارع حتى أوغل الليل، وطاف مع «بعضشي» و«أوظه» بالفوانيس، وطرقوا أبواب البيوت صائحين مهللين: «حالو يا حالو... رمضان كريم يا حالو!» وامتلأت جيوبهم باللوز والجوز وقطع قمر الدين الشهية... وأراد أن يظل يقظًا حتى مطلع الفجر لكن النوم أخذه أخذًا، وعندما أيقظته أمه رأى إخوته جميعًا وهم جالسون من حوله فوق الفراش وعيونهم مفتوحة، وعندما غادر الغرفة تزاحموا حول المائدة وكان الظلام في الخارج دامسًا وأصوات الخفر تتصايح عن بعد وعن قرب:

«طفي النور... طفي النور!...».

وعندما توقف المسحراتي أمام باب بيتهم ذكر اسمه ودعا له بالهداية والنجاح... وارتفع صوت الراديو في سكون الفجر يقرأ القرآن، وعلا في المطبخ صوت الوابور، وراحت أمه وجاءت، ورغم حبه الشديد للفول المخلوط بالزبادي فإنه أكل بمعدة مغلقة وشرب شايًا ولم يشعر بالعطش إلا عندما أذن الفجر وأصبح الصوم واجبًا... توضأ ومضمض فمه مرات ومرات... لكن عطشه كان يزداد في كل مرة، أقام أبوه الصلاة فوقفوا جميعًا من خلفه وصلى الفجر بذهن غائب فقد كان العطش يطارده... نام الجميع وتمدد وسط إخوته وبان في الخارج أول بصيص لضوء النهار وأصبح العطش عذابًا، وإذا كان يوم الحساب يبدأ من سن الثامنة عشرة، إذًا فليس الصوم عليه واجبًا، فلماذا يفعل؟! قال الشيخ زهران كما قال أبوه: في القرآن ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾... فلماذا لا يمرض... وإذا أفطر فعليه أن يطعم عشرة مساكين... فمن أين يأتي بالمال؟... ولماذا يصوم من الآن وما زال أمامه ستة رمضانات أو سبعة... ولماذا أصبح الملك ملكًا؟ ولماذا لم يكن هو ابن بك؟... ينهض من مكانه ليشرب ولن يعرف سره مخلوق... تسلل من تحت الغطاء حافي القدمين... وتخطى جسد الخادمة ثم انفلت من باب الغرفة إلى الصالة وهو يكتم أنفاسه، واحتبست دقات قلبه خلف أذنيه وأصبح لها دوي الطبول... الظلام والسكون وصوت الأنفاس المترددة في سكون البيت يلقي بالرهبة إلى نفسه فيرتجف... خطوة إلى اليمين ويصبح داخل المطبخ، وخطوة إلى الأمام ويصبح في مواجهة صينية القلل وعليه ألا يشرب منها فلو رفع

إحداها لاهتزت كالعادة وأحدثت في البيت صوتًا سيدوي في سكون الفجر هذا... عن يساره كان الصنبور ويعب من المياه كيفما شاء... لاحت منه نظرة إلى نافذة المطبخ... وإذا النهار في الخارج يطلع... ودق قلبه بعنف فإن لم يره أبوه فالله حتمًا يراه أينما كان وإذا كان الصوم واجبًا على من يبلغ الثامنة عشرة فهو يعرف أن الإفطار حرام!...

«الصوم واجب على كل عاقل يا بني!».

هكذا قال الشيخ... وهكذا دب الرعب في قلبه... فلا بد أن الله يرقبه.. فأين المفر؟... تسمرت قدماه فوق بلاط المطبخ وجمدت حركته ونفذت البرودة إلى عظامه وكان الضيق ينهشه وكل ما فعله مع «أوظه» رآه الله... لكن تشارلي يوم أعطاه «تشارلي» قطعة من لحم الخنزير لم يستطع أن يرفضها فقد كان جائعًا وقد دخل الحرام جوفه ودنسه.. عاد إلى الفراش واندس تحت الغطاء ونام... لكنه استيقظ قبل الجميع بحلق جاف وصدر منقبض...

«ما لك يا ولد؟!».

نظر إلى أمه... ولم يرد... فصاحت سهام وهي تبتعد عنه:

«عاوز يفطر يا ماما!...».

استولى عليه الغضب وهم بضربها فصرخت وولولت وبكت وتذكر ساعتها أن أباه لم يخرج إلى عمله بعد... وجاءه الصوت من الغرفة المجاورة قبل أن يرتد إليه طرفه:

«اصطبح على الصبح وقول يا فتاح يا عليم الدنيا صيام يا ابن الكلب!!».

وقبل الغروب ستأتي ساعة المغربية... عندما يضيق الخلق وتصبح أقل حركة كافية لتفجير بركان الغضب... وفي النهار لم يشعر بالجوع لكنه تمنى لو استطاع أن يأكل دون حرج... استغفر الله... وتوضأ... وعندما وقف ليصلي أيقن أن الشيطان كان يحرضه، توقف عن الصلاة وتذكر الجامع والشيخ زهران فإذا بقلبه يرقص طربًا فهناك الملاذ دائمًا... في الجامع توضأ مرة أخرى وصلى وقرأ قرآنًا وسبح الله حتى جف لعابه، وعندما وقف خلف الشيخ زهران لصلاة العصر كان الصف خلفه طويلًا... وعندما قال الله أكبر أحس أن الله قد غفر له وأنه سيدخل الجنة... بعد الصلاة جلس بجوار الشيخ وقبل يده وراح يستمع مع الجميع إلى الدرس وقصص الأنبياء والمرسلين وحديث الشيخ عن النبي وسيدنا عمر، وأبي بكر، وعثمان... أحبهم جميعًا... لكن حبه لعلي بن أبي طالب فاق حبه للجميع، وكم تمنى لو أن الله خلقه في زمانهم لينجو من النار، كم تمنى ذلك حتى إذا كبر أصبح شجاعًا وامتطى جوادًا واستل حسامًا... وراح يقاتل الكفار... وسماه الناس سيف الله المسلول... بعد الدرس قبل يد الشيخ وقد زايله الجوع والعطش وأحس ساعتها أنه يستطيع رؤية الله لو أراد. الشوارع المزدحمة... والأطفال... وباعة الفول ونداءات رمضان... وصفاء السماء العظيم... على الأرض وجد لقمة فالتقطها وقبلها ثم وضعها بجوار حائط وهو يتمتم:

«نعمة ربنا...».

وعند ناصية الشارع رأى «بعضشي»... فقال له في حماس:

«إن ما جيتش تصلي معانا العشا في الجامع حاخاصمك!».

ورد عليه «بعضشي» وهو يجهز مدفعه الصغير لساعة الإفطار:

«خاصم وإيه يعني... أنا و«أوظه» حانقول حالو بعد الفطار!...».

ووجد شيخًا أعمى يعبر الطريق فقاده من يده إلى الرصيف الآخر، ودعا له الشيخ بالنجاح والفلاح فاستكانت نفسه راضية، وعند باب البيت قابلته سهام وصاحت فيه:

«إنت فطرت؟... حاقول لبابا!...».

«أنا مافطرتش!...».

«أمال إيه اللي في بقك ده؟!...».

فتح لها فمه عن آخره... ثم أخرج لها لسانه... فصاحت وهي تعدو مبتعدة عنه:

«هيه... أخدت صيامك يا عبيط!...».

ولم يغضب، ولم يهتم... راح ينظر إليها حتى توقفت عن العدو واستدارت نحوه وأخذت تحملق في وجهه، ثم أخرجت له لسانها وقالت:

«يا فاطر!...».

فقال: **«الله يسامحك!...».**

ثم دخل البيت وهو يداعب مسبحة أبيه القديمة ويتمتم بذكر الله الذي هداه... وقبل أن يصل إلى منتصف السلم لحقت به سهام منادية... نظر إليها وانتوى ألا يمد يده عليها مهما قالت ومهما فعلت، لكنها لم تخرج لسانها... ولم تغظه... وعيناها تزدادان اتساعًا:

«إنت مش حاتضربني...؟».

أنـوار المئذنـة لا تضاء منذ قيام الحـرب، وأذان المغرب في الراديو يدفعه للصلاة قبل أن تمتد يده إلى لقمة أو كوب ماء... بعد الصلاة كان سعيدًا وفرحًا وكأنه دخل الجنة، وإذا نفسه تعاف الطعام... فكيف انتابه العطش الرهيب في الفجر وقد ذهب الآن تمامًا؟

«ما تاكل يا سيدنا الافندي... ما لك؟».

يـرى الله أمام قبلـة الجامع عند صلاة العشـاء والتراويح... وعندما دخـل الجامـع كان العيال يتزاحمون عند بـاب المئذنة يريدون الصعود للتهليـل والتكبير قبل الأذان... وكان يعلم أن الشـيخ زهران لا يسـمح بالصعـود معه إلى السـطح لأحد من الأطفال حتى لا يزيطوا ويفسـدوا المديح... كان واقفًا وسـطهم بطربوشـه الأسـود وهالـــة البياض من حولـه ولحيته الناصعة ويـده الممتدة إلى الشـفــاه تلثمها في خشـوع، وكان موقنًـا أنه يسـتطيع رؤيـة اللـه لو أراد، ازداد تزاحـم العيـال حول الباب عندما فتحه الشـيخ فوجـد لنفسـه منفـذًا فتسـلل من تحت ذراع الشـيخ دون أن يـراه، وسـمع صيـاح صبـي فـوق أصـوات الأطفـال جميعًا:

«الحق يا عم الشيخ... فيه واحد دخل!...».

لكن الشـيخ ظـل ينهرهم ويزجرهـم ويبعدهم دون أن ينتبـه إليه... توقف في ظلام السـلم اللولبي الناعم الحيطان وأنفاسـه تتردد وحذاؤه في يده، وعند باب السطح توقف مرة أخرى وأخذ يصيخ السمع، خوفًا من أن يلمحه الشيخ، ويمنعه من الصعود إلى الدرج متخبطًا في الظلام.

عندما أغلق الباب وعم الصمت، عند شرفة المئذنة الأولى توقف... حمد الله ووقف في الشرفة الأولى يختلس النظر إلى الشارع فرأى العيال متجمعين وهم يهللون ويتصايحون... نظر إلى السماء وتمنى لو أن الله خلقه ملاكًا ليطير إليه ويسبِّح بحمده، وخفتت خطوات الشيخ وسعاله من سلم المئذنة فأيقن أنه خرج بدوره إلى السطح وأن المديح سوف يبدأ... انطلق يصعد الدرجات مسرعًا إلى الشرفة الثانية فهناك سيكون أقرب إلى الله... ارتمى عند بابها لاهثًا وهو يكتم أنفاسه، وطالعته السماء بنجومها وبريقها فنهض مترنحًا وخرج إلى الشرفة وفرد ذراعيه وملأ صدره بالهواء وهدأت دقات قلبه عندما تطلع نحو نجم بدا له شديد اللمعان، أين يكمن الله الآن؟! وإذا كان الله في كل مكان فلا بد أنه الآن في مكان ما!

«يا رب... يا ااا رب ترضى عني وتهديني وتنجحني وتبعد عني الشيطان يا ااا رب!».

كان موقنًا أن الله يسمعه، تعلقت عيناه بالنجم اللامع وتمنى لو كان هذا النجم في السماء السابعة وبدا له الله بعيدًا بعيدًا... شديد البعد... يجلس فوق عرشه الذهبي المرصع، تحف به الملائكة والأنبياء والكل ينظرون إليه ويبتسمون... وإذا نسمة تهب فتلف جسده وتغسل وجهه، وإذا النجم العالي يقترب، وإذا ذراعاه مفرودتان في الهواء، وإذا أراد الله شيئًا قال له كن فيكون... وإذا نور يغطيه من كل مكان، وإذا آيات القرآن تنسال من بين شفتيه في يسر، وإذا به يسبح في السماء ومن حوله النجوم والقمر والشمس وقلبه يخفق، وإذا صوت يأتيه من بعد سحيق:

«ناجح بإذن الله!...»... فارتجف!...

«والنبي تقرأ لي آية الكرسي!...».

واشتد ارتجاف مفاصله وفكه... أصابته الرعشة وسرت في بدنه قشعريرة... وانتفض مذعورًا والصوت يأتيه من قلب الفضاء!...

«ناجح... ناجح... إن شاء الله...».

ازداد ارتجافه وأصابه الهلع فانهمرت دموعه... وراح يقرأ آيات تساقطت من بين شفتيه وهو يتخبط في الظلام عائدًا، أخذ يهبط السلم بقدمين تسبحان فوق بحر من الفزع الرهيب، درجة بعد درجة... ولم يتمهل عند باب الشرفة الأولى، وهل يصدقه أحد إذا قال إنه سمع صوتًا يحدثه من السماء، أو أنه تحدث دون أن يفتح شفتيه... اقترب من باب السطح فداخله الاطمئنان قليلًا لكنه لم يكف عن قراءة القرآن ولن يخبر أحدًا بما حدث... سمع الصوت آتيًا من السماء وتحدث دون أن يفتح فمه أو يحرك لسانه ولو قتلوه فلن يتراجع... عند باب السطح كان قلبه يضرب جدران صدره بعنف أوجعه فارتد ملتصقًا بالحائط وطقطقت عظامه... وظل ينتفض... حاول القراءة لكن لسانه لم يقو على الحركة، وإذا كانت الشياطين حرة تفعل ما تشاء فالله يقيدها تحت الأرض في رمضان ففيم خوفه إذن؟

وإذا قدماه تهبطان السلم وجسده يبرد كالثلج.. تمتد يده لتفتح باب المئذنة... والناس في الجامع والأضواء الزرقاء كنجوم قديمة صدئة... وإذا الابتهالات كدمدمات تخنقه... وعندما كان صوت الشيخ زهران

يؤذن لصلاة العشاء كان هو يطلق لساقيه العنان في الشوارع وهو يهتف باكيًا والدموع تغرق وجهه:

«بابا... بابا... الحقني يا بابا!...».

***

يفتح باب الصالون فجأة... فيهتز قلبه اهتزازًا... يطل عليه أبوه بوجه ضاحك... لكن ثنية اللحم فيما بين الحاجبين كانت لا تزال معقودة ويتصاعد صوت الناظر في الداخل وهو يتحدث مع عم إسكندر، ولا تختفي الابتسامة من الوجه العظيم وإن كان الحاجبان يلتقيان فوق الأنف تمامًا... يحس بالرهبة تملؤه فلا بد أنه نجح... إنه نجح... ويقول أبوه:

«الشربات يا ولد!...».

فيتنفس الصعداء، وهو يبتسم متهللًا، وينتفض واقفًا والسؤال على أطراف شفتيه، وما يكاد يسأل حتى يختفي الوجه في الداخل ويغلق الباب دونه من جديد...

الفصل
الحادي والعشرون

يستدير نحو المطبخ ليطالعه الوجه الحبيب بابتسامة واسعة، يغص حلقه ويتمنى لو قبلته في فمه... فطعم الروج يعجبه... وتعاوده الرغبة في البكاء بلذة، وتنحني عليه فيغرقه عطرها...

«مبروك يا حبيبي... تحب أجيب لك إيه؟!...».

طالما كره دموعه ومقتها مقتًا، إنه يقاوم... ويقاوم... ويقاوم دون جدوى، ينبع الدمع من قلب صدره، يشعر بسريانه من الصدر إلى العنق... ثم الرأس والعينين.. وكأنه يرى مساره بعينيه، وعندما يتحدث يأتي صوته مرتعشًا رغم كل محاولاته:

«بابا عاوز الشربات!...».

تغادره ساعية إلى المطبخ وهي تهمس لأمه بصوت سمعه دون أن يتحرك من مكانه:

««يالله يا ست إنتي... جوزك عاوز الشربات!...».

وتبح أمه بصوتها في السكون السائد في البيت كله:

«فين الولد... كل حاجة جاهزة اهيه!..».

ثم يصبح أمام الباب وجهًا لوجه... وسيعبره بعد خطوة واحدة ويعرف الحقيقة، الصينية بين يديه... وأكواب الشربات تتلألأ على

أسطحها قطع الثلج اللامعة، وعندما يخرج من الغرفة الخضراء سيملأ لنفسه كوبًا مذهبة ويشربها على مهل... يغطي جسدها ظهره ويدغدغ دفء بطنها حواسه... وتشتد يداه على الصينية... تمتد يدها من فوق رأسه فيرى أظافرها المطلية بالمانيكير، نقرة واحدة هامسة يفتح بعدها الباب... وتهب عليه رائحة أبيه، يرفع رأسه فيرتجف، ويتمنى لو مات الآن وبقي الوجه على ما هو عليه، اجتاحته الدهشة اجتياحًا وهو يرى تلك البسمة المضيئة فكان الوجه يشع بالنور، وهل من الممكن أن يكون لأبيه تلك النظرة التي قال بها: «ادخل يا ولد؟...».

وهل من الممكن أن يكون له هذا الصوت الذي همس به من فوق رأسه: «خلاص... روح انت؟!...».

يغلق باب الغرفة من خلفه... ويهبط الصمت على رأسه كقطعة حجر، يطل عليه ضوء الشارع من فرجة الستارة الساقطة من السقف حتى الأرض، ولا بد أن «أوظه» قد وصلت الآن إلى البر الثاني، ولا بد أنها خلعت ملابسها وغطست في المياه... يخف الحمل عن ذراعيه فيستدير بالصينية نحو عم إسكندر، وتخف الصينية أكثر... ولا بد أنها الآن تسبح موغلة في المياه، جسدها الأبيض المبتل ورداء الرمال يغطيه... ثم السعي إلى ما تحت الكوبري عرايا ويداهما متشابكتان.. وعندما يستدير تلتقي عيناه بعيني أبيه، يتقدم نحوه خطوة فيوقفه الصوت الواثق بالأصبع المصوب نحو جبهته تمامًا:

«أنا قبل ما اشرب الشربات مع حضرة الناظر... أحب اقول لك كلمتين!...».

يترقرق الصمت فوق سطح الثلج العائم في الكوب الباقي، وإن كانت «أوظه» قد سبحت مع العيال وحدها فلن يكلمها حتى الموت، يتنحنح الناظر خلف ظهره وتهتز أصبع أبيه أمام وجهه منذرة:

«أنا أحب اقول لك إن الفضل الأول في نجاحك - ده إذا كنت نجحت - يرجع لحضرة الناظر!».

إذن فعم كامل لم يتصل من البندر بعد... وما زال الخبر غير أكيد.. هل تعود «أوظه» لتصحبه بعد خروج الناظر؟!...

«وإذا كنت أنا ربيتك وصرفت عليك، فحضرة الناظر خيره عليك أكتر مني لإنه علمك وخلاك بني آدم!...».

وتشق شعيرات المنشة هواء الغرفة من خلفه...

«وقالوا في المثل يا سيدنا الافندي.. من علمني حرفًا صرت له عبدًا!..».

ويقول الناظر من خلف ظهره إنه شاطر ونبيه وذكي.. غير إنه معجون بماء العفاريت...

«وانت مهما كبرت وعلا شأنك حضرة الناظر زيي بالضبط... عينك ما ترفعش فيه أبدًا».

تعود الشعيرات لتصفر من خلفه، ويقول الناظر إنه مؤدب... لكن شقاوته لا تطاق، ويخيل إليه أنه يسمع صوت «بعضشي» في الشارع... فهل تكون «أوظه» قد عادت؟!...

«أنا شفت وكيل وزارة بيوطي على إيد واحد شيخ ضرير وراح بايسها!...».

ويقـول عم إسـكندر... إن هـذا الرجل لا بـد أصيل... ومـن عائلة كريمة، فلماذا؟!...

«وعزة الله يا حضرة الناظر.. وطى على إيده في وسط الناس كلها... وباسها!...».

يتنحنح الناظر.. ويردد عم إسكندر إن ناس زمان لا وجود لهم هذه الأيام... فلماذا؟!...

«عارف يا سيدنا الافندي الشيخ الضرير ده كان يطلع مين؟!».

كان السـؤال موجهًـا إلـى عينيه... فخفض بصره إلـى الأرض حتى يصبح أكثر أدبًا!...

«ده كان مـدرس اللغة العربية بتاعه فـي ابتدائي... فما بالك بحضرة الناظر ذات نفسه؟!...».

وتدق في أذنيه نقرات أصبع الناظر على حلق طربوشـه من الداخل، ويتمنى لو اسـتطاع أن يسـتدير ليرى الناظر مرة واحـدة بلا طربوش... يحـرك قدميـه... ثم يهم بالـدوران إلى الخلف والشـوق يأكله، غير أن الصوت يوقفه بحسم فتجمد في مكانه:

«وإذا كان حضـرة الناظـر شـرفنا النهارده في البيت، فـده فضل كبير منه... لازم تحفظه في قلبك طول العمر!...».

يتوقف نقر الأصبع...ويسـود الصمت... فلا بـد أن الناظر قد لبس الطربوش وضاعت منه الفرصة... وسيقول لحامد إن الناظر زارهم في البيت، وسيغتاظ عم أبو فرخة... و... و...

«حاتخش الثانوي لو ربنا أراد لك النجاح صحيح، وربنا يقدرني وادخلك الجامعة كمان وتبقى بني آدم... لكن انت مهما عليت واللا وطيت، حضرة الناظر هو كل شيء... هو الأصل!».

عندما تحرقه شمس الظهيرة.. يهرب لينام تحت الكنبة... حيث يجلس عم إسكندر، الظلام الرطب وذيل الكسوة يصنع ستارة تحجبه عن العيون...

«أنا ابوك... ومفيش حد في الدنيا غير الأب يحب لابنه انه يكون أحسن منه!».

يسعل الناظر ويسري الألم من قدميه إلى ساقيه...

«وإذا كانت الظروف منعتني من إني اكمل تعليمي... فلازم انت تتعلم، ومن كام يوم يا حضرة الناظر كنت ماشي في باب الحديد، في مصر.. لقيت أمامي راجل عجوز ماسك عصاية بيتعكز عليها...».

يستريح في وقفته ويملأ صدره بالهواء، يرخي ذراعيه بالصينية ويسرح بعينيه إلى الستارة الخضراء... والمحطة... والقطار... وباب الحديد... بزحامه وصفير عربات الترام فيه، وفي كل مرة يشير أبوه إلى التمثال قائلًا:

«ده تمثال نهضة مصر يا سيدنا الافندي، واللي عمله المثال مختار، ده مصري ومن أعظم المثالين في العالم!».

الشيخ العجوز... والعصا... والزحام... والسيارة تكاد تدهمه... لولا أن جذبه أبوه إلى الرصيف...

«وأخدته من إيده... وعديت به الميدان... وسألته هوه رايح فين؟!...».

ضريح الإمام الحسين بمقامه وميدانه... ورائحة الطعام.. والناس... والمسجد الهائل.. والسجاد الفاخر.. وعندما خلع أبوه حذاءه، وعندما حمل حذاء الشيخ... وعندما تبعه إلى المقام، وعندما سأله الرجل عما يريد، وعندما قال أبوه: «عاوز اصلي وراك العشاء!»... وعندما أديا الصلاة، وعندما استدار الشيخ وراح يحملق في الوجه الغريب، وعندما سأله الشيخ: «انت مين يا ابني؟!»... وعندما رفض أن يذكر اسمه؟... «لأنه مش حايعرفني... ده كلام عدى عليه خمسة وعشرين سنة يا حضرة الناظر!»... وعندما نهض أبوه وعندما انحنى على يد الشيخ وقبلها وعندما خرج من الجامع، وعندما ركب الترام...

«ولما تقابل حضرة الناظر بعد كده لازم تفهم إنه هو المعلم الأول في حياتك!...».

وتخف الصينية بين يديه، ويرفع أبوه كوب الشربات إلى شفتيه... وإن كانت «أوظه» لم تعد حتى الآن فلا بد أنها تتمرغ فوق سطح المياه، ولا بد أنها تنتظره، ولا بد أن يذهب إليها، ولابد أن يستدير نحو الناظر في أدب ويمد له يديه بالصينية الفارغة... ولا بد أن ينكس عينيه أدبًا!...

«أبوك راجل أصيل يا ولد... لازم تحط دا في دماغك من الآن فصاعدًا... من عيلة أصيلة وكريمة.. وتبطل لعب مع أولاد الشوارع!».

لا فكاك ولا مفر، فحتى لو كان ناجحًا فسيصبح عليه أن يخاف الناظر ويحترمه وأن يعمل له ألف حساب، ولقد تمنى أن ينجح حتى لا يضرب للناظر سلامًا كلما رآه في الشارع... وحتى يرتاح من حديثه وأذاه، لكن... ها هو عليه أن يطيعه مدى الحياة... فأين المفر؟!

«وتبطل شقاوة وعفرته.. وتخليك محبوب زي والدك!...».

تثقل الصينية فيستدير بها نحو عم إسكندر، ثم يعود وجهه إلى وجه أبيه.. فيعم السكون... ويثقل الهواء ويتمنى لو مزق الستائر وكسر النافذة وقفز إلى الشارع، وخارج باب الغرفة همس... لا بد له أن يكف، يشير له أبوه وهو يرد على الناظر فيزحف إليه بقدمين خشبيتين، ويكاد يصطدم بالباب المغلق عندما تشق شعيرات المنشة هواء الغرفة من جديد، ولاحقه صوت الناظر محدثًا إياه:

«ابنك ولد كويس يا ثابت أفندي ومستقبله عظيم... بس هوه اللي... ...».

ينهض أبوه ليفتح له الباب وتتساقط الكلمات فوق رأسه كقطع الطوب وهو يعبر العتبة:

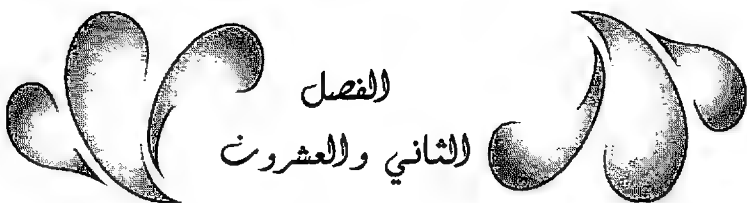
«يا حضرة الناظر أنا غلبت معاه، تصور إني قررت مرة إني... إني أوديه الصعيد علشان... ...».

يغلق الباب من خلفه واختنق الصوت في الداخل، ويصبح وحيدًا في الصالة فيتنفس ملء صدره:

تهب من البلكونة نسمة فيدير نحوها وجهه، ويأتيه صوت «بعضشي» مناديًا:

«ويكا.. عاوزين الشربات يا ويكا!».

يدق قلبه داخل صدره بعنف، ويقاوم رغبة طارئة في البكاء حتى يقضي عليها، ويداخله إحساس شديد بالحزن والحيرة، يتلفت حوله فلا يجد أحدًا... وتصعد الدموع إلى عينيه بالرغم من كل مقاومة.. فماذا لو كان الخبر غير صحيح؟!



الفصل الثاني والعشرون

المطبخ المزحوم والعيون المتطلعة إليه في لهفة، إناء الشربات تحت نافذة المطبخ والهواء يهب منها على وجهه فيسيل لعابه بالعطش الشديد، على جوانب الإناء تنزلق قطرات ماء شديد اللمعان، يستقبله جسد أمه المرتجف بالقلق وصوتها الهامس يتساءل:

«قالوا لك إيه يا ولد؟!».

تتخاذل ذراعاه بالصينية وتتقدم طنط جانيت ليلتحم جسدها بجسد أمه أمام وجهه في كرة هائلة تسد عليه الطريق، وتعود أمه إلى الإلحاح بالسؤال فتمتد يدا الحبيبة لتأخذ منه الصينية وهي تقول بحنان:

«ما تطولي بالك عليه يا بنت انتي... هات الصينية دي يا ابني!».

تضحك أمه في وجهه... لكنه لا يستطيع الابتسام، يحرك ذراعيه ويدعكهما بكفيه ويحاول النفاذ بعينيه من الحائط البشري دون جدوى، عن يمينه يمتد حائط المطبخ، وعن يساره وجوه إخوته المتراصة وكأنها صور معلقة على ارتفاع منخفض... أكواب الشربات في أيديهم ولعابه يملأ شدقيه بالعطش... يرقب شفاههم المبتلة... وتلح أمه بالسؤال في لهفة:

«أبوك قال لك إيه يا ولد؟!...».

يحاول الحديث دون جدوى فقد قال أبوه أشياء كثيرة، لكنه لم يقل شيئًا، فماذا يقول هو؟!...

«الناظر قال لك حاجه؟... ما ترد يا ولد!...».

تلاحقها طنط جانيت بابتسامة غاضبة، فتتعلق عيناه بوجهها مستنجدًا:

«يا اختي استني عليه شويه... تشرب شربات يا حبيبي؟!».

«عمك كامل اتكلم من البندر؟».

«تحب تشرب برتقال واللا فراولة؟...».

«عمك إسكندر بيقول إيه؟!».

«ناوليني كباية يا سهام!...».

«الناظر ما قالش حاجة يا ولد؟!...».

«حايقول إيه يا ست انتي أكتر من كده... واحد جاي يشرب الشربات، دي عاوزة كلام؟!».

«طب انت غبت جوه ليه... أبوك قال حاجة؟!...».

«يا بت الولد مخضوض... تعالى يا حبيبي اشرب الكباية دي!».

يزداد جريان لعابه في فمه فيغلق شفتيه أكثر وعيناه تترددان بين جدران المطبخ ونافذته... وإناء الشربات بظلاله الندي الذي يغطيه...

«شايفة يا جانيت.. آهو تيجي له ساعات يسكت كده... زي ما يكون أخرس!».

بجوار إخوته تقوم المنضدة الكالحة وفوقها وابور الجاز والحلل النحاسية، ولا تزال عيون إخوته تحملق فيه وكأنها بلا جفون ولا رموش فكيف يهرب منها؟... تسري إليهم أصوات حركة في الداخل فتترك طنط جانيت كوب الشربات بجوار الإناء ملهوفة وقد نسيته تمامًا،

تتسمر قدماها مرهفة السمع مع أمه عندما تتعالى من داخل غرفة الصالون أصوات ضحكات... فتهمس أمه وكأنها تصلي:

«دول بيضحكوا يا جانيت!...».

يتحرك من مكانه نحو كوب الشربات فيسد الجسدان عليه الطريق، وتنحني فوقه جانيت ملتصقة بأمه كالمظلة، ويطل عليه وجهاهما وقد تهدلت شعورهما من فوق الأكتاف.. تترك عيناه صدر أمه لتتعلقا بالشق العميق بين ثديي طنط جانيت، وتغزو أنفه رائحتها فتتهدج أنفاسه وتعود الأسئلة لتتساقط من فمها فوق رأسه... فيتراجع ملتصقًا بالحائط ويزداد التصاق شفتيه... ولن يرد...

«ما تتكلم يا ابني... انت جرى لك إيه... انخرست؟!».

وتهمس سهام وهي تتقهقر مبتعدة عنه:

«لازم سقط يا ماما؟!».

وتشهق سامية بعينيها الواسعتين:

«بعد الشر.. أهه انتي!!».

جف حلقه، ويفتح فمه بعشرات الألفاظ لكن صوته ينحبس فقد تعالى صوت باب الغرفة وهو يفتح، ثم تدوي في أرجاء البيت سعلة أبيه الواثقة، ويشق السكون صوته الهائل:

«اتفضل يا حضرة الناظر... اتفضل يا إسكندر افندي!».

تمتد إلى باب المطبخ كل الأيدي لتغلقه، ويسود السكون مرة واحدة وكأن الدنيا قد ماتت، ثم تعلو نحنحة الناظر مع رنين خطواته فوق بلاط الصالة:

«ها... احم... احم... يا ساتر!!».

ويختلط صوت الخطوات بالهمسات بحديث أبيه:

«إحنا حصل لنا الشرف يا حضرة الناظر والله.... نزورك في الأفراح دايمًا بإذن الله!».

بجوار باب المطبخ... يضحك عم إسكندر وهو يقول:

«مبروك يا ثابت... عقبال ما تفرح بيه وهو عريس يا ابن الـ...».

تتعالى الضحكات وسط السكون وتسبح طنط جانيت على أطراف أصابعها حتى تلتصق به، وتمتد يدها لتوارب الباب وتطل من شقه بعين واحدة، ثم تستريح في وقفتها عندما يتوقف الركب عند باب الشقة ويدور حديث الوداع المرح، تدفن جسدها الطري في الحائط وتظله غلالة لها رائحة ملأت كيانه بالبهجة.. ويأتيه صوت الناظر مرحًا:

«عقبال البكالوريا والليسانس يا ثابت افندي!».

«كله بفضلك يا حضرة الناظر...».

تبتعد الأصوات ويسري إليه دفء جسدها، وتدغدغ حواسه ليونة بطنها... فيغمض عينيه ويترك رأسه ليسقط عليه ويستنيم هناك... تخفت الأصوات في الخارج ويملأ عبيرها صدره فتجيش نفسه ويكاد يحيطها بذراعيه... يرين السكون ويعم الظلام من حوله فيضم شفتيه ببطء وحذر وكأنه يهمس بهما لنفسه، تنتابه الرجفة الهائلة وتصطك ركبتاه وهو يطبع قبلة صامتة... ويدق قلبه بعنف عندما يأتيه صوت الخطوات العائدة... وباب الشقة وهو يغلق، ينتفض مرتدًا برأسه إلى الخلف عندما انقشعت عنه فجأة ليندفع الهواء إلى صدره دفعة واحدة،

وتزداد دقات قلبه عنفًا عندما يفتح باب المطبخ وتخرج منه طنط جانيت وخلفها أمه وتتعالى الأصوات... وتعم الجلبة وكانت هي أول الناطقين:

«ألف مبروك يا ثابت!».

وترد أمه من بعدها ملهوفة بالفرح:

«ألف مبروك يا ثابت أفندي... عقبال ما تفرح بيه وهو عريس!».

يظل مسمرًا في مكانه لا يقوى على الحركة، رأسه ملتصق بالحائط وظهره مفرود عليه... وعيناه تنفذان من النافذة إلى السماء... تمرق سهام من أمامه ومن خلفها سامية يزاحمهما سامي ويعلو صوت أبيه مزمجرًا:

«مبروك على إيه يا ست انت وهيه!؟».

تحين اللحظة الحاسمة وينهار البيت... وتملأ أذنيه ضجة لها أصوات المدافع... ويأتيه صوت طنط جانيت من خلال صرخات ملأت أذنيه:

«يا بوز الإخص... بذمتك دي ردود في يوم زي ده؟!».

ينتزع رأسه من الحائط وجسده من التصلب ويتسلل بعينيه من الباب ليرى الوجه العظيم قد سبح في بسمة لا تنفرج لها الشفاه:

«إنتي اتجننتي يا جانيت... محدش لسه عرف حاجة... محدش عنده خبر أكيد!».

تسوخ روحه وسط سحابة الصمت الذي ران على البيت كله، وتعود رأسه إلى الحائط من جديد...

«إشمعنى يا أخي أبو فرخة ما قالش اللي انت بتقوله ده؟!».

«إذا كان أبو فرخة بيقول ريان يا فجل... اعمل إيه؟!».

«هوه مش كامل أفندي اتكلم من البندر يا ثابت أفندي؟!».

«محدش اتكلم يا ست هانم لسه... الراجل بيقول إنه سمع، وبعت يجيب الجورنال علشان يتأكد، ويظهر إنهم مشغولين مع مصر، ويمكن فيه غارة... محدش عارف!».

«إيه الكلام اللي انت بتقوله ده يا ثابت؟!».

يتحرك جسده ملتصقًا بالحائط ويخلو له المطبخ وتلتصق نظراته بكوب الشربات بجوار الإناء، كان ممتلئًا تسبح على سطحه قطعة ثلج كادت تذوب، يجري لعابه خلف شفتيه فيبتلعه دون أن يتحرك... ويقسم ألا يشرب الشربات... عندما سألته كان ينطق بالعطش الذي كان يلهب حلقه... ولولا سعلة أبيه لما تركته ومضت وقد نسيته كما ينساه الآن كل الناس... يتململ في وقفته ويهم بالحركة... لكنه يعود فيعدل عنها وقد استعذب الألم، يتمنى لو سأله أحد إن كان قد شرب شربات نجاحه فتسبح عيناه في الدمع... تشتد الجلبة في الخارج ويضج الجميع بالضحك لشيء لا يعرفه... ثم يسمع صوت أمه المتوسل:

«يعني الخبر مش أكيد لسه يا اخويا؟!».

يفكر في كوب الشربات مترددًا، لكن صوت الحبيبة ينتشله:

«ما دام الناظر جه... يبقى الخبر أكيد!».

وتعود أمه إلى الإلحاح:

«ما تبعته المحطة يا ثابت أفندي... يمكن يكون كامل أفندي اتكلم!».

تطل عليه سهام من الباب وتحملق في وجهه برهة... ثم تلقي على الصالة بنظرة... تهمس بعدها:

«يا ساقط!...».

ولا يستطيع الحركة ولا الرد... ويشتد به الغيظ والعطش معًا، ويقسم ألا يشرب الشربات وأن يضرب سهام حتى تنقطع أنفاسها حتى ولو حرموه من الخروج والمصروف، حتى ولو سقط وأدخله الله النار!

«أبعته المحطة يا ست هانم... علشان يروح يلعب مع «أوظه» و«بعضشي»!؟».

«ثابت!».

لا صوت يحميه إلا صوتها... وإذا قالت أمه شيئًا فكأنها لم تقله... أما هي فكلمتها تحذر أباه آمرة فيطيع... وهو يعرف السبب!!

هل يدخل أبوه النار؟!

تتحرك المقاعد في الصالة... فلا بد أنهم يجلسون... ورغم ازدياد الألم في ساقيه وظهره فلن يتحرك من مكانه، ورغم ازدياد العطش فلن يشرب الشربات، ورغم أنه رأى ما رأى فلن يخبر أحدًا حتى ولو قطعوه إربًا... عند شارع السوق ساعة العصر، المياه المرشوشة ونسمة الهواء الآتية من عند النيل، الدكاكين... والناس... والزحام... وأصوات الباعة... ونداء بائع الجيلاتي الآتي من البندر: توبي... توبي!

أولاد الخواجات يملئون الشوارع بملابسهم النظيفة ووجوههم البيضاء وشعورهم الصفراء ورطانتهم التي تملأ أذنيه بالرهبة... وأولاد العرب بجلاليبهم الممزقة وأقدامهم الحافية وشعورهم المهوشة...

وعندما يرى كوستا بن خريستو صاحب البار فلا بد أن يصيح فيه: «يا سوكوستا!»... ولطالما لعب معه كوستا في المنتزه بمسدسه، وعندما يهز له على جبهته خصلة شعره الناعم، ويأتيه صياح عكوش بن عبد الله القهوجي فلا يعيره اهتمامًا، ويطلق لساقيه العنان حتى يلحق بأبيه عند دكان عم ياقوت.

الناصية والعمود الأخضر... وجلسة عم ياقوت خلف مكتب الأختام الصغير، ضحكاته المجلجلة وحديثه الصاخب... ووجه عم رزق يفيض بالابتسام دائمًا، ثم الوجه المهيب عند الناصية يذكره بترتيل القرآن ساعة الفجر كل يوم، الصلاة في الصباح والظهر والعصر والمغرب والعشاء... واجب لا يحيد عنه مؤمن، وقراءة القرآن وترتيله في جوف الليل وفي ليالي رمضان... يريد التقرب إلى الله ورسوله... ولطالما حسد أباه لأنه سيدخل الجنة حتمًا ولا بد أن الله - وإن أدخله النار بعض الوقت - سوف يدخله الجنة إكرامًا لأبيه... أصوات النداءات في السوق وصيحات الرجال وخبطات قادوم عبد الرحمن السمكري... دقات قوالب الطرابيش الصفراء في دكان البرطومي الطرابيشي، وأمام دكان البلتاجي خطوات امرأتين من الخواجات اللواتي سيدخلن النار حدفًا... وخف هدير الأصوات وتلفتت كل الرءوس وحملقت العيون في اللحم العاري والأذرع الشديدة البياض... والجلد الناعم ولون البشرة الذي يفتح شهيته للطعام... من الرأسين يتدلى شعر ذهبي شديد النعومة، وما من شيء يخفق له قلبه قدر خفقانه للون العيون الزرقاء... وما زالت أمامه سنوات حتى يحق عليه الحساب، وإذا كان النظر كالزنا... فلينظر كما شاء وقد يميته الله قبل أن يبلغ الثامنة عشرة فلا يحق عليه دخول النار... وإذا كان الأقباط

واليهود سيدخلون النار... فلماذا خلق الله عم إسكندر قبطيًّا؟ ولن يهمه إذا مات ودخل الناظر جهنم، ولكن لماذا يدخلها عم رزق؟... وماذا كان يفعل لو أن الله لم يخلق أباه مسلمًا؟... وهل سيصبح في ذلك الوقت مثله؟... وهل سيدخل النار مع هاتين الفتاتين اللتين ذكرتاه بأوظه فلوى شفته... وأحب الرجال الذين كانوا يغضون عنهما البصر، وراح يحصي عدد الذين سيدخلون الجنة... ويجتاحه الغضب كلما رأى عينين تلتهمان أرداف المرأتين، وراح يحصي عدد الذين سيدخلون النار ثم اختلطت الأرقام في ذهنه ولم يعد يعنيه أن يدخل النار كل أهل البلدة، وليفعل كل هذا وليبتسموا وينظروا ويحملقوا حتى عم ياقوت... أما أن ينظر أبوه ويلتوي عنقه ويفتر فمه عن ابتسامة شديدة الاتساع، ويعلو صوته في الشارع ضاحكًا: «شايف القشطة يا واد يا ياقوت؟!»... فهذا لا يستطيع أن يصدقه...

العينان الجاحظتان والوجه الضاحك والكلمات الفاجرة تتساقط من فم أبيه، سرت البرودة في أطرافه، فارتجف... وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان واحتجبت الأضواء عنه فكأنها كابوس يجثم على صدره في ليلة شديدة الظلام، وجلجلت من جديد ضحكة أبيه وامتد العنق من خلف المرأتين واستطال... ثم استدار الرأس ببطء... واصطدمت العينان المرحتان بعينيه فاحمرتا، وتقلصت الضحكة وغاضت الابتسامة وصفعه السؤال:

«إيه اللي جابك دلوقت يا سيدنا الافندي... عاوز إيه؟!».

تصاعدت الكلمات إلى حلقه وتزاحم الدمع فسد عليه طريق الرد، تمنى الموت وأصابه الفزع... فهل سيدخل أبوه النار... وصفرت أذناه

بصفير كان يعلو ويعلو، وعاد السؤال يأتيه من بعيد فلم يستطع الرد، هز رأسه وفتح فمه دون جدوى... وإذا دخل أبوه النار فلسوف يحترق جسده ويسيح جلده ويصرخ، ولو فعل الله ذلك بأبيه لكرهه حتى ولو ألقى به إلى الزبانية التي تنهش اللحم نهشًا، العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين... ولا بد من الفرار... استدار مبتعدًا وقد بدا هطول الدمع الغزير... فكبله الخجل والعيون تحيط به من كل جانب... والشفاه تتحرك والوجوه تتساءل في دهشة... فماذا يقول؟ اندفع يعدو بكل قواه وراح يخترق الزحام والسوق... يرتطم بالناس وقد بدأ يشهق، طارده النداء من بعيد فأجلى الصفير عن أذنيه ودهمته صيحات الناس... قطع السوق وانثنى إلى اليسار... وانفتح صدره للهواء فازداد تطاير الناس والأشياء من حوله... ظل يعدو ويعدو... حتى بلغ شاطئ الترعة على الناحية الأخرى من البلدة، انثنى إلى اليمين... دهمته رائحة عفنة... ورأى على سطح المياه جيفة... وسمع صبيًّا يصيح وهو يسبح غير بعيد عنها:

«ده حمار ميت...».

انتابه القيء... والتوى جسده... وازدادت سرعة جريانه حتى لم يعد للناس وجود، الحقول الممتدة... والكوبري الصغير والمقابر المتناثرة... وصوت الذباب يطن عندها بلا توقف، وفي داخل القبور ذئاب يتحدث الناس عنها في فزع إذا ما هبط الظلام وانقطع النور عن الدنيا... وفي الناحية الأخرى ڤيلا محجوب بك بسورها الأخضر... وأشجارها السامقة وخفرائها ببنادقهم وشواربهم وصيحاتهم الشرسة في كل من يقترب أن يبتعد.. وقد تراه نادية فترى دمعه... ولا بد له من الابتعاد... عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وكان يقترب من بيت الناظر

وقد يراه وقد يسأل عما جاء به... ظل يجري ويجري حتى غاصت قدماه في طين حقل مزروع بالخضرة... توقف عن العدو وصدره يعلو ويهبط وأنفاسه تتعثر... وعيناه تتخبطان ما بين السماء والأرض... وكان لا بد له من الحديث مع الله... أتاه من بعيد صوت وابور مصفرًا في رتابة:

«تيت... تيت... تيت...» فارتمى تحت جذع شجرة وانفجر في البكاء وخرج صوته متوسلًا وهو يرفع كفيه نحو السماء متوسلًا:

«يا رب... يا اا رب... والنبي يا اا رب...».

ماذا يقول... ماذا يريد؟!

توقفت الكلمات في حلقه ولم يعد يعرف ماذا يريد من الله، داخلته الحيرة والخجل وجف دمعه وظلت عيناه معلقتين بالسماء. ليلتها لم ينم، وإن تظاهر بالنوم دون أن يتناول عشاءه... وعندما سألته أمه عما به... قال في اقتضاب:

«أنا شبعان»...

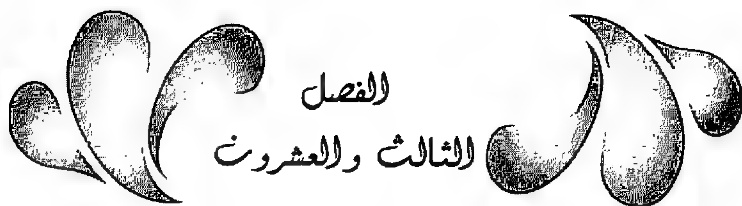
والغريب أنه لم يحس بعودة أبيه إلى البيت ولم يشعر بالجوع طوال الليل!

كوب الشربات اللامع... والثلج السايح... ونداء أبيه... وتحذير الحبيبة يأتيه...

«ثابت... خللي عندك دم».

«يا سيدنا الافندي..».

ظهرت النتيجة... أم لم تظهر... نجح أم لم ينجح... عليه دائمًا أن يرد النداء... فماذا لو لم يفعل؟



الفصل الثالث والعشرون

يستطيع الله أن يجعل منه ابن ملك، أو يجعله الآن وزيرًا، أو ناظرًا، وأن يميت هتلر والإنجليز معًا، وهو يستطيع أن يقتل الشيطان في لمح البصر... فلماذا لا يفعل؟!

ينتشر الألم في ظهره ورقبته فيتململ في وقفته... ثم يحرك ساقيه وذراعيه ويملأ صدره بالهواء... وينظر إلى كوب الشربات فيبلل شفتيه، لكنه لا يقرب الكوب، ولا الشربات... فلم يعد يريد شيئًا، ولم يعد يحب أحدًا!

يعاود أبوه النداء فلا بد من الرد... ولا بد من الطاعة ولا بد من الذهاب إليه... وإذا كان كل شيء مقدرًا ومكتوبًا فما حيلته؟ لو كان أبوه تلميذًا وأراد له الله أن يرسب لرسب دون أن يعاقبه أحد... يخطو إلى الصالة فتستقبله عيون إخوته المفتوحة، وترحب به ابتسامة طنط جانيت فلا تهتز فيه شعرة، وتضحك أمه في وجهه قائلة:

«ما تقرب يا ولد... ما لك عامل نفسك مؤدب كده؟!».

تصطاده نظرات أبيه فيملأ الغثيان حلقه... وعندما غادر الناظر وعم إسكندر البيت نسيت طنط جانيت أن تعطيه كوب الشربات لتلحق بأبيه، واندفعت أمه وإخوته خلفها وتركوه جميعًا وحده، نظر إلى كوب الشربات فعافته نفسه وغص حلقه وكره الشربات وكره أباه وتمنى له الموت.. وصاح «بعضشي» من الشارع يناديه:

«ويكا... عاوزين الشربات يا ويكا».

يشتد احمرار العينين فتنتابه رغبة في الرد على «بعضشي»... وليحدث بعدها ما يحدث، ويكاد يفعلها لولا زمجرة طنط جانيت في وجه أبيه:

«ثابت!».

ولسوف يكسر وراءه قلة إذا ما غادر البيت، ولا يتحرك عندما تقول أمه:

«روح المحطة... شوف عمك كامل اتكلم من البندر والا لسه».

هل تتذكر طنط جانيت كوب الشربات بعد ذهابه؟

«ما لك يا سيدنا الافندي؟».

وتمصمص سهام بشفتيها بعد أن أفرغت كوب الشربات في فمها، ولا بد أن يدخل أبوه النار... مهما صلى ومهما صام... وإن سألته الملائكة فلسوف يخبرهم بكل ما رأى... وإذا عادت ليلة الغارة مرات... ومرات... فلن يندم، يفيض به الحنين إلى الوسعاية والظلام... وشبح الكنيسة يطعن السماء ببرجه المدبب... المصابيح الزرقاء تتناثر... وصياح العيال يملأ شوارع البلدة وحواريها... النسوة جالسات على أبواب البيوت وهن يتبادلن حديث كل مساء... كان الحر خانقًا.. والعرق يسيل من كل مكان في جسده...

... وعندما دوت صفارة الإنذار... كان في الوسعاية... فزاط مع العيال وهلل وترددت صيحات الخفر منذرة:

«طفي النور... طفي النور...».

وشـمل الظلام كل شـيء، وأصبح العيال من حولـه كالخيالات... واطمأن ساعتها إلى أن أحدًا لا يراه... فزعق بكل صوته:

«طفي النور... طفوا النور يا ولاد الكلب...».

لـم يكن يدري لمـن كان السـباب... لكنه أراد أن يشـتم... وعندما سـمع أزيز الطائرة، التفت فلم يجد «بعضشـي» بجواره... وراح يتطلع إلى السماء عندما امتلأت أذناه بأصوات المدافع من كل نواحي البلدة، وامتلأت السـماء بكـرات اللهب فازدادت صيحات العيـال وتهليلهم، وانبعثـت الكشـافات تختـرق الظلام كالسـيوف اللامعـة، وهوى نجم وسط كرات اللهب... فتمتم:

«سيف الله المسلول... ينزل على القوم الكافرين...».

الكشـافات تروح وتجيء... وتلتقي في السماء لتفترق من جديد... ثم أحس بيدها تقبض على ذراعه فجأة فارتجف... فالتفت نحوها وقد التصقت به هامسة:

«أنا كنت بادور عليك يا اسمك إيه...».

كان صوتها مرتجفًا ويدها باردة كالثلج... فداخله الخوف:

«ما لك يا «أوظه»؟!».

«أنا خايفة من البمب...».

«قصدك القنابل...».

وازداد التصاقها به، واشـتد صياح العيال، وكثرت طلقات المدافع، واقترب أزيز الطائرة، وبذرت السـماء بكرات اللهب، وتشبثت «أوظه» بقميصه والتصقت به أكثر.

«أنا خايفه يا اسمك إيه».

دهمته السعادة فانفتح صدره... ونظر حوله... ثم وضع يده فوق كتفها... وهو يقول:

«متخافيش يا أوظه... الطيارات مش حاترمي قنابل هنا، هوه احنا في اسكندرية؟!».

وأصبحت الطائرة فوق الوسعاية، وصاح العيال مع الكبار مهللين:

«أهيه... الطيارة اهيه!...».

وتزاحم الناس بجوار بعضهم البعض... وقد بدت الطائرة في السماء كنجمة لامعة وسط الأنوار الكاشفة، وخرجت النسوة من البيوت إلى الشارع... فالظلام كثيف... ولن يكشف الرجال وجوههن... وزعق الخفراء... وتعالت الصيحات... واشتد هدير المدافع... وازدادت «أوظه» التصاقًا به، ثم غرست أظافرها في لحم صدره... لكنه كان سعيدًا...

«ما تخافيش يا أوظه... أنا معاكي اهه...».

سار بها نحو المراجيح بجوار بيت الفزاري... وكانت ترتعد... بانت له أخشاب المراجيح في الظلام وكأنها خيالات رسمت في الهواء... ازداد التصاقه بها وهما يمران من بين الأخشاب حتى وصلا إلى الجدار حيث لن يراهما أحد أو تصلهما قنابل... وازداد صياح العيال في الوسعاية... فمد عينيه من بين ألواح الخشب... وأنفاسه تتردد بسرعة... وقلبه يدق في حلقه، رعدت المدافع وتوهجت السماء... فازدادت أظافر «أوظه» انغراسًا في لحمه وكانت يداها

باردتين، ضمها إليه... فأحس براحة... لمس جسدها، ودفنت رأسها في صدره وأحاطت جسده بذراعيها، وعندما تحدثت كانت شفتاها تتكلمان في رقبته:

«هيه الطيارة حا ترمي بمب يا اسمك إيه؟!».

قال مؤكدًا، وكان صوته يرتجف:

«أبدًا يا أوظه... أبدًا...».

«أنا عاوزه نروح».

«متخافيش... أنا معاكي اهه...».

«أنا عاوزه نروح لامي...».

غامت عيناه في الظلام... فجلس على الأرض... وجلست «أوظه» في حضنه...

«هم الألمان حينطوا علينا بالباراشوت يا اسمك إيه؟!».

ولو جاء هتلر... فسيخرج الإنجليز من مصر - هكذا قال أبوه - كالكلاب، وسيطردون تشارلي... والساجن ذا الشعر الأحمر... والكابتن ذا الشارب الغليظ... وقد يقتلهم الألمان قتلًا، سمع نداء «بعضشي» عليه في الوسعاية... فكتم أنفاسه في كتفها، وعاد تهليل العيال وصياحهم... فقالت «أوظه» في أذنه:

«همه عملوا الحرب ليه يا اسمك إيه؟!».

التفت إليها... لكن قبضتها لم تتركه:

«دي حرب بين الانجليز... والألمان».

«وعملوها ليه يا اسمك إيه... عملوها ليه؟!».

«تيجي نلعب عروسة وعريس؟!».

«همه عملوا الحرب ليه... مش انت في المدرسة وتعرف؟!».

جف حلقه واضطرب صوته... تذكر أباه... وظلت «أوظه» على ذراعه قابضة.

«تتجوزيني يا أوظه؟».

«عارف البمبة اللي وقعت عند سيدي أبو الدرداء... تيجي قد البيت ده كله!».

«شفتيها؟».

«أبويا بيقول إن الطلاينة غشم وأولاد حرام... همه اللي هدوا بيتنا».

«أنا ما احبش موسوليني... بابا بيقول إنه حمار».

تململ في جلسته ليريح ساقيه وظهره، لكنها ازدادت تشبثًا به... كان يجلس فوق الأرض دون أن يهتم باتساخ ملابسه ولا بما ستقوله أمه، وأحس بسخونة وجهه تمتد إلى أذنيه، وقبلته «أوظه» في خده... فوصلت دقات قلبه إلى جنبيه وحلقه، وتفصد وجهها بالعرق... فانزلقت على خدها شفتاه، وقبلها في شفتيها وتمتمت «أوظه»:

«أنا خايفة نموت يا اسمك إيه».

«بعد الشر...».

نظرت إليه فرأى عينيها الخضراوين وهما تلمعان في الظلام...

«بتحبني يا اسمك إيه؟!».

«ودين النبي.... وان شا الله يا رب اموت... آه...».

«أنا عاوزة نتجوزك لما تكبر... تيجي؟».

«لما اكبر حابقى مهندس... وحاقول لبابا إني عاوز اتجوزك».

«أبوك مش حايرضى».

«ما يهمنيش...».

قالها وهو يتنهد ويستريح بصدره فوق صدرها... وهمست «أوظه» وهي تزيح قطعة طوب بعيدًا عنها:

«الوله بعضشي يشوفنا... ويقول للعيال».

«مش انتي مراتي؟!».

وابتلعت عيناه الظلام، وأحب «أوظه» حتى الموت، وقبلها في خدها وفي فمها... لكنه لم يقل كلمة... وعندما دوت صفارة الإنذار مرة أخرى... كانت الأنوار الكاشفة قد اختفت، وتصايح العيال... وصفقوا... وعادت الأنوار الزرقاء من جديد... وكان يشعر برغبة شديدة في التقيؤ...

ناداه «بعضشي»... فلم يرد عليه، واقتربت منه «أوظه» بعد أن غادرا مكمنهما... وأمسكت بيده، ففزع منها... تركته ومضت غاضبة فأحس بالراحة لبعدها... وهو لا يهمه أن يعلم الله بشيء فلسوف يصلي ويصوم ويتوب... ولسوف يغفر الله له... ولكن، ماذا لو علم أبوه بالأمر؟!

وقد يسـألـه «بعضشـي» أين كان... فماذا يقـول؟ وقد تخبره «أوظه» بـكل شـيء فهـي لا تخـاف ولا تهتم... وقـد انتهـت الغـارة واختفت الطائرة... وقد يخاصمه «بعضشـي» ذات يوم فيفضح سـره وتسمع أمه ويصل الخبر إلى أبيه... مضى عن الوسـعاية وخاض في ظلام الشـارع يتخبط جسـده في جدار بيـت الفزاري... غلبه النـوم فوضع أصبعه في فمـه... لكنه ارتد به عن شـفتيه وهـو يبصق قرفًا... واجتاحه إحسـاس بالتقـزز... فقـرر أن يسـتحم ويتطهـر... ولا بـد أن الشـيطان هو الذي حرضـه وتغلب عليه فما ذنبه؟ والتقت كفاه ثـم افترقتا وكأن كلًّا منهما يعاف ملمس الآخر... فرد أصابعه في الهواء حتى لا تتلامس، وسالت دموعـه وهو يقترب من بـاب البيت... وإذا كان أبوه يقرأ قرآنًا فلن يقبل يـده حتـى لا تصيبـه نجاسـته... راح لسـانه يتهـدج بالآيـات والدعـاء والتوسـل، وجاءته أصوات الناس تملأ الشارع... وكان عم علي سراج جالسًـا أمام بيته وهو يسـعل ويبصق ويرد تحية الرائح والغادي، وسمع أم النواجي تقول ضاحكة:

«إلهي ربنا يضلمها عليهم».

وكان النـور الأزرق يغمـر صالـة بيتهم وفـرش البلكونـة المفتوحة وعندمـا دخل باب البيت سـمع طنط جانيت وهـي تودع أمه... وصرخ سـامي في الداخل فدبدبت أمه عائدة.. وضحك أبوه، وتقدم من السلم وهو يقرأ الفاتحة... صعد درجة ورفع رأسه إلى أعلى فانتفض قلبه في صـدره وكأنـه لكمه... وحـاول أن يمنع نفسـه من التبول فلم يسـتطع، وفعلهـا وهو مفتوح العينين على الشـمعة والضـوء الخافت والوجهين الباسـمين والنظرة المروعة، خف جسده فلم يعد يشعر بساقيه، وانزلق

البـول على فخذيه... ثم ركبتيه وسـرى إلى قدميـه وأغرق صندله فكاد يصـرخ... ظـلال السـلم تغطيه ولا أحد يشـعر بوجـوده وقلبـه يتمزق راكضًـا في حلقـه موجعًا ضلوعـه... وعندما امتدت يـد أبيه نحو طنط جانيت غشـى عينيه ظلام دامس، وجاء صوتها الضاحك هامسًـا كسيخ محمي بالثلج:

«**ثابت... وبعدين معاك، انت اتجننت؟!**».

لوى عنقه وحرك سـاقيه وهبط الدرجة... وعبر الحوش وانطلق من الباب إلى الشارع ودموعه تهطل... كان خائفًا يرتجف... فماذا لو علم أبوه أنه رأى ما رأى؟!

فـي تلك الليلة أراد الوصـول إلى الله بأي ثمـن... وعندما نام على طرف الفراش مبتعدًا عن نفسـه... سـاد السكون تمامًا.. وكان يفكر في طريقة يقتل بها أباه!

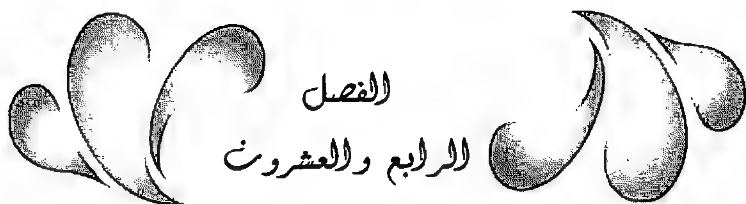
«**اتفضل يا سيدنا الافندي... اتفضل...**».

تلتقي عيناه بعيني أبيه فلا يرتجف قلبه...

«**اتفضل يا سـيدي روح المحطة ... والعـب على كيفك، بالك انت حاتنفع؟**».

«**ثابت!!**».

رغـم تحذير الحبيبـة يظل واقفًا وعينـاه في عيني أبيـه، كان يريد أن يبكي، ولـم يكن يريد البكاء، ولا النجاح!



الفصل الرابع والعشرون

ساعة العصر بزحامها... وعيالها... وصفارة بائع الدندرمة المشروخة... ونسمة النيل الندية... وسيمتلئ بار مانولي عند النيل بالخواجات... وسيذهب محجوب بك إلى كازينو المنتزه ليشرب الخمر مع الكابتن الإنجليزي أمام كل الناس دون خوف أو خجل، وسيجلس البكيت في بار خريستو ليخيف الرائح والغادي... ويصرخ في العيال إن اقتربوا أن يبتعدوا... وفي البار الصغير أمام بيت طنط جانيت يستطيع لو أراد أن يرى تشارلي وهو يعب البيرة عبًّا... ويوم رآه وهو يدخل بيت عم ألبير تهلل وابتسم... ثم ناداه باسمه أمام الناس وكأن شيئًا لم يحدث، فلم يرد عليه... وعندما أطل من الشباك ازدادت ابتسامة تشارلي ولوح له بيده... وكانت طنط جانيت تقف بجواره، أخرج له لسانه ثم أغلق الشباك في وجهه... فضحكت... ورد على ضحكاتها بتمتمة غاضبة: «يلعن أبو الإنجليز... أنا مش باحبهم»... فرفعته إلى صدرها وضمته وسحقت شفتيه بقبلة... وقالت «انت بتغير عليَّ يا حبيبي؟!».

وتمنى يومها لو لم يعد إلى بيتهم، وتمنى لو نام في حضنها... ولولاها لما رضخ أبوه... ولولاها لما كف عن نخسه بالكلمات والشتائم، ولولاها لما استسلم وهو يأذن له بالعودة إلى المحطة متأففًا:

«اتفضل يا سيدنا الافندي... اتفضل».

ورغم وجودها فقد أنذره الأصبع ملوحًا قبل أن يتحرك من مكانه:

«ومـن هنا للمحطة على طول، وحتلاقـي هناك عمك ألبير... تخليه يسأل جوز عمتك في البندر... ويشوف إيه الحكاية...».

قال: حاضر، دون لهفة... أصبح لا يريد نجاحًا ولا رسوبًا، ولا يعنيه أن يدخل الجنة أو النار، ولا يعنيه أن يرضى عنه أبوه أو لا يرضى، وكره أمـه والبيت... وقرر أن يهرب ويترك البلدة إلى بلاد الله، تركته الحبيبة للإنـذار منشـغلة بالبحث عن حقيبتها، نهضت مسـرعة وهـي تنظر إلى السـاعة لتزور أم حامد وتبارك لها... نسـيته كما نسـيت كوب الشربات ولـم تعد تذكره، مضى متباطئًا وعيناه على الأرض... فاصطدم بالباب، سمع صوتها يناديه... فتوقف دون رغبة، انحنت عليه وقبلته، ثم دست في يده قرشًا... فازدادت عيون إخوته اتساعًا، وصاح فيها أبوه محتجًّا:

«مـش لمـا نتأكد مـن النتيجة يا جانيت... الولد حايخسـر بالشـكل ده!».

وأيقن أنه لا بد يشبه الشيطان، وتأكد أن الله سيدخله النار.. وعندما غادر الشقة أغلق الباب وراءه بعنف حتى يغضب أبوه، ثم أطلق لساقيه العنـان... وراح يقفز السـلم... حتى إذا ناداه يكـون قد ابتعد فيغتاظ... ولو اسـتطاع الآن لأكل لحم الخنزير وشـرب الخمـر حتى يغضب الله هو الآخر وليحدث ما يحدث... يندفع إلى الشارع فتملأ الشمس عينيه وهي تطل من بين البيوت وهي الآن فوق النيل تمامًا، يوسع الخطا قبل أن تلحـق به طنط جانيـت في الطريق فلم يعد يريـد أن يراها... يتجنب

عيون الناس المبتسمة في وجهه. إن عم ألبير يجلس الآن مكان عم مينا، فوردية الصباح قد انتهت، ولا بد أنه يبتسم بوجهه المليح وذقنه الحليق وأصابعه الرقيقة تنقر آلة التلغراف بخفة... يتمنى ألا يقابل عم مينا في الطريق بوجهه الذي إذا ابتسم انصهر... وعندما يصل إلى المكتب سينبئ عم ألبير أن طنط جانيت كانت عندهم، لكنه لن يخبره أنها أعطته قرشًا، فلو تأكد الخبر وكان ناجحًا فقد يعطيه قرشًا آخر... يلحق به «بعضشي» عند الناصية ويلاحقه بنداءاته وصيحاته... ودبيب قدميه الحافيتين وهما تعدوان نحوه... ينقض عليه صديقه ليحيطه بذراعه وتلفح أنفاسه جانب خده:

«شربت الشربات يا ويكا؟!».

يتذكر كوب الشربات بجوار الإناء في المطبخ فيبتلع لعابه وهو يقول:

«أنا ما احبش الشربات...».

يقفز «بعضشي» إلى الأمام... ثم يستدير نحوه وهو يتقدم متقهقرًا:

«مش حاتديني كباية شربات يا ويكا؟!».

«أنا رايح المحطة لعم ألبير...».

«أم حامد فرقت شربات... أمي بتقول أربع قزايز!...».

«وإيه يعني... ما احنا جبنا أربع قزايز... مش انت شفت؟!».

«حاتديني كباية؟!».

«أنا حاركب بسكليت».

يقولها دون قصد... فيقفز «بعضشي» في الهواء مهللًا:

«وتديني لفة؟ حاتديني لفة يا ويكا؟».

«الناظر جه عندنا وبارك لبابا... قال له إني نجحت وطلعت الأول كمان».

ماذا يفعل لو كان الخبر غير صحيح؟!

«الوله حامد مش مصدق!».

«أنا حا أجر البسكليت البيضا أم جرسين...».

سيؤجر الدراجة وليحدث ما يحدث... ولن يضربه أبوه... فهو لن يعود إلى البيت...

«مش حاتروح لأوظه؟!».

«أنا حا اركب بسكليت».

«ومراتك يا ويكا!».

«مش رايح البر التاني، مين قال لها تروح لوحدها؟ وهوه فيه واحدة تروح في حته من غير إذن جوزها؟!».

ولا بد له أن يخاصم «أوظه» وأن يطلقها... ولو استطاع لضربها وركلها حتى تسمع كلامه بعد ذلك!

«دي ما راحتشي البر التاني... دي عند السلم قدام البلدية».

يتنفس ملء صدره ويبتسم رغمًا عنه، ولو مات أبوه اليوم أو غدًا فلا بد له أن يجد عملًا... وإذا كان ناجحًا فسيعمل بالابتدائية ولن يدخل الثانوي... وسيرتاح من المذاكرة... ولن يرفع يده بالتحية إذا ما

رأى الناظـر في الطريق، وإذا كانت «أوظه» قد اسـتحمت مع العيال...
فلـن يحدثها طوال العمر... ولن يتزوجها حتى ولو ماتت من البكاء...
وإذا اسـتأجر الدراجة البيضاء... فلسـوف تأتي معه أينما شاء، وتركب
أمامه ليطوف بها البلدة كلها، ويعبر الكوبري إلى البر الثاني...

«هو فيه عيال عند السلم؟!».

«عبـورة... وعكـوش... والولـه حامـد... رجع البسـكليت وقاعد هناك».

«أوظه استحمت معاهم؟!».

«مارضيتش... قالت أنا ما استحماش إلا مع جوزي».

يخفق قلبه... فيقفز في الهواء صائحًا:

«تيجي نشرب سجاير؟».

«أنا سرقت سيجارة من ابويا... تيجي يا ويكا؟».

ينقـض عليه «بعضشـي» فجـأة... وقد انتابـه فرح غامر، يسـدد إلى
وجهـه لكمـة تطيش في الهـواء... يغـادر الشـارع إلى السـوق ويترنح
«بعضشـي» راقصًـا... ويعـودان معًا وسـط الناس وهمـا يتصايحان...
يسبق صديقه بخطوات... ثم يستدير نحوه مصوبًا أصبعه إلى صدره:

«ويلمان».

يصطـدم به «بعضشـي» فيضحـكان... ويوم دخل السـينما لأول مرة
رأى المسدسات... والرجال... والسيارات... وضرب النار... وإذا أراد
له الله أن ينجح فلسـوف ينجح، وإذا قدر له أن يرسـب فما ذنبه؟ ولماذا

لا يستأجر دراجة مثل «حامد»... ولماذا لا يغيظه... ولماذا لا يذهب إلى «أوظه» ويأخذها أمامه... ويركب «بعضشـي» خلفـه... ولماذا لا يلعب حتى أذان العشاء... وإذا كان ناجحًا فلن يعنيه أن يتأخر عن موعد عودته، وإذا كان راسبًا فلن يعود إلى البيت... ولسوف يهرب...

«مش حا تأجر بسكليت يا ويكا؟».

تلوح له الدراجة البيضاء ذات الجرسين معلقة عند باب العجلاتي.

«تيجي نطفش يا بعضشي؟».

وتتسع عينا «بعضشي» وهو يصيح:

«هو انت سقطت يا ويكا؟!».

«ده أنا حاشتغل موظف بالابتدائية يا ابني...».

«دا انت لسه صغير يا ويكا...».

«أنا حاطفش».

«تبقى ساقط».

«ودين النبي أبدًا...».

«حاتروح اسكندرية؟».

«لا... حاروح مصر... عند عمي...».

«أوظه مش حاترضى!».

«وإيه يعني؟ نروح سوا... أنا وانت...».

«معاك التذكرة؟».

«معايا قرش صاغ...».

يحملق «بعضشي» في وجهه في دهشة... ثم يلتصق به قائلًا:

«وريني... وريني يا ويكا».

يظل قابضًا على القرش وهو ينظر إلى الدراجة المعلقة بباب الدكان القريب... الأوراق الملونة... والجرسين اللامعين... الكشاف الباهر في المقدمة... سيدق الجرسين ويملأ برنينهما الأسماع، ولسوف يغتاظ «حامد»... ولو أصبح ملكًا ذات يوم... فلسوف يشتري مائة دراجة، ومائة سيارة... وقد يركب الطائرة ذات مرة ويرى البلدة من فوق السحاب!

«لو كان معاك قرش صاغ صحيح... تعالى نأجر البسكليت البيضا».

يندفع نحو الدكان... ويعطي القرش للرجل... ويتسلم الدراجة وقلبه يخفق... يسير بها وسط السوق وهو يتحسسها حتى يبتعد عن الدكان... ثم يقفز فوقها... ويدفع البدال بكل قواه وعندما يقفز إلى المقعد الخلفي يتمرجح وتميل به الدراجة... حتى يكاد يسقط... يحيطه «بعضشي» بذراعيه... فيزداد اندفاعه وهو يدق الجرسين بلا توقف، ينحني إلى اليمين مخترقًا شارع عم ياقوت... فيطالعه النيل ومياهه تضوي تحت الشمس ببريق يخطف بصره، يقترب من دكان عم ياقوت الذي يصيح فيه بصوت ملأ الشارع كله:

«مبروك يا جن...».

ويلوح له الطرابيشي مبتسمًا...

«مبارك يا عفريت أزرق... عقبال الشهادة العالية...».

ولسوف يخبران أباه أنهما شاهداه يركب الدراجة... وخلفه «بعضشي»... فماذا يهم؟ وإن لم يطفش اليوم فلسوف يهرب غدًا، وإذا ضربه أبوه فلن يصرخ ولن يبكي... وسيذهب إلى تشارلي في الصباح ويصالحه... ويبيع البيض... ويدخر المال، ولو أعطاه عم ألبير قرشًا فلسوف يستأجر الدراجة مرة أخرى... ولسوف يذهب إلى البر الثاني بعد ذلك ويتعلم العوم ويلحق بـ«أوظه» في المياه العميقة... تخف به الدراجة وهي تطير طيرانًا... وتتعالى صيحات «بعضشي»... وتختلط برنين الأجراس، وتهب نسمة ترطب وجهه الملتهب، وعندما يقترب من ناصية الشارع يصيح بكل قواه:

«أنا ناجح... أنا ناجح يا اولاد الكا اا لب...».

ويخفق قلبه، ويتفصد جسده بالعرق، وتتصاعد إلى عينيه دموع سرعان ما تجففها الرياح...

الفصل الخامس والعشرون

ضوء المياه اللامعة يغشي عينيه، يهب الهواء ليداعب قميصه المفتوح ويجفف عرقه... يبدو ميدان البلدية ساعة العصاري شديد الاتساع وقد امتلأ بالعيال والخواجات... عن اليمين رصيف المقهى وقد ازدحم بالرجال... وصوت ستافرو الجرسون يلعلع:

«أونا بوتيري نيرو».

ويصيح «بعضشي» من خلف... وهو يلوح بذراعه:

«يا سو يا خواجه».

وأمام البار يجلس البكيت بوجهه الأحمر وعينيه الغاضبتين وهو يشرب البيرة، ولسوف يحل الليل... ثم ينتصف... وهو في جلسته هذه يخيف الناس ويصرخ في العيال أن يبتعدوا إن اقتربوا... تجرفه النشوة عارمة فيتلاعب بجرس الدراجة غير عابئ بنظرات البكيت الحمراء، وعندما يقترب منه يصيح بأعلى صوته:

«يسقط الإنجليز...».

يلتفت البكيت نحوه... فيدق قلبه بعنف، ويزداد التفاف ذراعي «بعضشي» حول وسطه وهو يصيح:

«يحيا النحاس باشا...».

وتبدو له العيال عند السلم الخرساني عرايا كالأرانب المسلوخة، ويرى «أوظه» وهي واقفة بجوار كومة ملابسهم وهي تنظر إليهم وتحدثهم دون خجل فينتابه الغضب... يزداد اندفاعه بالدراجة ويهب واقفًا عليها كمن يركب حصانًا، ويضغط على البدال بكل قواه فتزداد سرعتها، وتتلاعب أصابعه بالجرسين... ويتمنى لو قابل حامدًا وكاسره بدراجته وغلبه... يميل إلى اليسار فينفذ قرص الشمس إلى عينيه... وفي البر الثاني شريط الرمال الممتد بجوار النيل خاليًا من الناس تمامًا، ولو ذهب مع «أوظه» لاستطاع أن يعوم وأن يبني بيوتًا وأن يجري ويلعب دون ما رقيب، من خلفه يبدو الكوبري وقد بدأ يزدحم بالناس ككل عصر، يقفز «بعضشي» من خلفه ويجري نحو «أوظه» صائحًا:

«ويكا اا... ويكا اا...».

تلتفت نحوهما فيظل واقفًا فوق البدال مرة أخرى... لكنها لا تحرك ساكنًا، ويبرز رأس حامد من خلف السلم كبيرًا وكأنه كرة من الحجر... تنتابه النشوة فلم يكن مع حامد دراجة، تتطاير الأشياء من حولهما طيرانًا، يمر بالأجزخانة... والإسعاف... والشركة... والدكان... ثم حافظ بائع الدقيق... ثم من بعده موقف العربات، والسيارات تملؤه... يتدفق قلبه بالسعادة ويسبق «بعضشي» ويندفع أكثر ليسابق نفسه... فهل يستطيع أن يسبقها؟!

يضغط الفرامل بكل قواه... فتصرخ الدراجة وتميل به... ثم تسكن تمامًا... يداهمه إحساس بالقوة فينفخ صدره ويقفز إلى الأرض مرفوع الرأس، ويلحقه «بعضشي» مرتميًا فيما بينه وبين «أوظه» وأنفاسه تتهدج، ويتقدم منهم «حامد» ويقف على بعد خطوات يرقب

الدراجـة البيضـاء بعيـن مغيظـة، ويقول «بعضشـي» «لأوظـه» بصوت لاهث:

«تيجي نطفش يا ويكا؟».

تتنمر «أوظه» وهي تدقق في عينيه بنظراتها الغاضبة:

«أنا عاوزة نروح البر التاني».

يقدم لها الدراجة مبتسمًا وعن طيب خاطر...

«تاخدي لفه؟!».

تهز كتفيها وتضرب الأرض بقدميها محتجة:

«أنا عاوزه نروح البر التاني...».

ويصيح «بعضشي» فيها:

«تيجي نطفش؟ دا احنا حا نروح مصر يا بنتي!».

ويهز «حامد» رأسه منذرًا وهو يقول:

«حاتطفش مع بعضشي... ودين النبي لانا قايل لابوك!».

«أنا مش عاوزه نطفش، بعد الحرب حا نرجع اسكندرية تاني...».

«وهيه الحرب حاتخلص يا بنتي... دا ولا بعد ميت سنة!».

«أنا عاوزه نروح البر التاني...».

«أنـا لازم اروح المحطة لعم ألبير يا «أوظـه»... تيجي معايا المحطة الأول؟!».

«مش انت نجحت يا ويكا؟!».

«ده ساقط يا ابني... أنا اللي نجحت».

تسقط عيناه على وجه «حامد» فيتذكر المربع الأزرق على سبورة الفصل، ينتابه الغيظ وتتهدج أنفاسه أكثر... ويقفز «بعضشي» نحو حامد متحديًا:

«دول فرقوا شربات يا ابني...».

«وإيه يعني... بابا بيقول محدش لسه يعرف حاجه!».

«ده الناظر كان في بيتهم!».

«كدابين».

«ورحمة النبي أنا شفته بعيني.. دول حتى فرقوا عشرين قزازة شربات!».

وتخبط «أوظه» الأرض بقدميها:

«أنا حا نروح البر التاني... جاي والا مش جاي؟».

«أنا آجي معاكي يا بت يا أوظه... تتجوزيني؟».

يقولها حامد وهو يقترب منها... فيضطرب ويشتد به الغيظ، ينظر إلى «أوظه» والغضب يتملكه:

«حاتروحي معاه يا «أوظه»؟».

«أنا عاوزه نروح البر التاني».

«وتسيبي جوزك يا بنتي؟ ما يصحش كده!».

«مش هوه ناجح... حايروح المحطة ليه؟».

«أصل بابا قال لي أروح المحطة علشان... ....».

تقف الكلمات في حلقه ولا يستطيع الكلام... يضغط بأصبعه على جرس الدراجة فيصرخ بالرنين... يركل البدال بقدمه ويتذكر كوب الشربات المثلج في المطبخ فيحس بالعطش يكوي حلقه... نجح أم لم ينجح فماذا يهم والدراجة بين يديه و«أوظه» معه و«بعضشي» بجواره، ولماذا يفعل «حامد» كل ما يريد دون خوف وهو لا يستطيع؟ ولماذا كتب الله عليه أن يصبح ابن أبيه؟ ومتى يستطيع أن يفعل ما يشاء دون حذر أو خوف؟ تخبط أوظه بقدميها مرة أخرى... ويتطاير شعرها مع هبوب الهواء وهي تصيح فيه منذرة:

«رايح والا مش رايح يا اسمك إيه؟».

يصعد صبي درجات السلم عدوًا... والمياه تسقط من جسده العاري، ويصيح الصبي في «أوظه» أن تخلع ملابسها لتستحم معه... ثم يرقد على السياج الناعم ويترك جسده لينزلق عليه بسرعة... بسرعة... بسرعة... ثم يهوي في المياه، يهلل العيال وهم يتصاعدون واحدًا إثر الآخر... ويتزاحمون عند قمة السياج لتنزلق أجسادهم إلى المياه بسرعة... ويصيح العيال في «أوظه» أن تلعب معهم، ويشير إليه أحدهم صائحًا:

«هوه ده جوزك؟ يا خيبتك.. ده عامل أفندي وما يعرفش يعوم!».

ويتطاير شعرها من جديد وهي تصرخ فيه:

«جاي والا مش جاي يا اسمك إيه؟».

ويقترب منه «بعضشي»:

«تيجي نتزحلق معاهم يا ويكا؟».

خفقة القلب.. وملمس الهواء الناعم على اللحم العاري... هل يستطيع؟

«مش انت ناجح يا ويكا... حاتروح المحطة ليه بقى؟!».

دفء المياه ساعة العصر.. ودغدغة الأمواج الصغيرة لبطنه وصدره وتحت إبطيه... ولو فعلها الآن وعلم أبوه بالخبر... فلسوف يقطعه إربًا لا محالة... فهل يهرب حقًّا؟

«ساكت ليه يا ويكا... روح رجع البسكليت وتعالى نستحمى!».

« ماتيالله بقى يا اسمك إيه... جاي والا مش جاي... إيه البلاوي دي؟!».

«مش قلت لكم... ده ساقط وخيبه... وعبيط كمان!».

ترتطم كلمات «حامد» بوجهه كقطع الطوب وينفجر صوته فجأة بالسباب:

«يلعن أبوك يا ابن الأقرع...».

«أهو إنت يا خواف».

«أنا يا ابني مخافش من حاجه، ولا من العفاريت، ولا حتى من الغارات».

«ياللي خايف من ابوك...».

«وما له... مؤدب... ومتربي... أمال زيك اقول لمامتي يا بنت الكلب؟!».

يقولها والغثيان ينتابه... فلماذا لا يهرب... ولماذا لا يقول لأمه يا بنت الكلب؟!

«تخش لي؟!».

يقولها «حامد» ولم تكن في حسبانه، ينحني إلى الأمام ويطل عليه رأسه الكبير كفوهة مدفع موجه إلى صدره، وتستعد قبضتاه للنزال... فهل يفعل؟!

«تخش لي يا خواف يا ابن الخواف؟!».

يضطرب قلبه وتشتد قبضته على الدراجة... ويقفز «بعضشي» صائحًا فيه بحماس:

«خش له يا ويكا وسيب البسكليت معايا... متخافش، ده مافيهوش زقه».

ويقفز صبي من فوق السياج عاريًا... وهو يسأل:

«حاتخشوا لبعض يا عيال؟ حاتخشوا لبعض؟!».

ويصعد العيال من أسفل الدرج عرايا وهم يتقافزون بالسعادة والمرح:

«حاتخش له يا «حامد»؟!».

«اللي يغلب فيكم... يخش لي أنا...».

«لا... اللي يغلب يتجوز البت أوظه...».

وتصرخ «أوظه» في الجمع العاري غاضبة:

«وانت ما لك وما لي يا ابن الغسالة؟!...».

وحتى إذا مزق «حامد» قميصه فلن يهتم.. وإذا تغلب عليه أمام العيال فلن يروه بعد اليوم فقد قرر الهرب... وإذا كان العيال قد تركوا السياج الناعم والزحلقة والمياه الدافئة وجاءوا مهللين وأحاطوه زاعقين وداعبوا الأجراس وتحدثوا وتصايحوا... فلا شيء يبعث الغيظ في نفسه قدر وجه «حامد» وابتسامته الصفراء...

«لو كنت راجل من ضهر راجل تخش لي وانا اوريك».

وإذا صاح فيه صبي أن ينازله فأين المفر؟... وإذ جلست «أوظه» فوق حافة السياج وراحت تهز ساقيها وتتعجل النزال في نفاد صبر فماذا يفعل؟!

«ما تخش له بقى يا اسمك إيه... الله!».

وإذا هو وسط دائرة من العرايا الصارخين بأصوات تثقب أذنيه، وتتصاعد السخونة من أجسادهم العارية وتملأ رائحة مياه النيل صدره بالاختناق... وإذا قدماه مسمرتان في الأرض، وإذا هو عاجز عن النطق تمامًا، وإذا قلبه يدق بعنف... فلماذا؟!

«ما تخش لي يا ابن العبيطة... يا خواف!».

ويتصدى «بعضشي» وسط الحلقة منذرًا:

«إحنا فينا من الشتيمة؟».

«ما تخش له بقى يا اسمك إيه... إنت خايف؟!».

«أصله عامل تلميذ... ومش عاوز يتخانق!».

«يا ابن الكلب...».

«اشـتمه زي ما شـتمك يا ويـكا... قول له يلعن أبـوك على أبو أمك كمان».

«تتجوزيني يا أوظه وانا اغلب الوله حامد؟!».

«هوه إيه اللي تتجوزك يا ابني... هوه فيه واحدة تتجوز اتنين؟!».

«يا ساقط».

«تخش لي أنا يا وله يا حامد؟!».

«هوه انت مخاصمني؟!».

«لأ... بس أنا راجل... واقدر اغلبك».

«أنـا عـاوز اخش لـه هـوه... أصله عامل نفسـه جدع وهو سـاقط.. ولافيهوش زقه...».

ولو أنه لم يستأجر الدراجة، ولو أنه ذهـب إلى المحطة، ولو أنه لم يأت إلى السلم، ولو أنه سمع كلام أبيه... ولو أنه...

«يا خواف... يا جبان...».

ولو أنه رفع ذراعه، ولو أنه هوى بكفه على وجه «حامد»، ولو أنه فقأ عينه وأسـال دماءه، ولو أنه انتصر عليـه، ولو أن «حامدًا» بكى كما بكى في المرة الماضية، ولو أن... ...

«أخش له انا بدالك يا ويكا؟!».

«بس... بس... بس... بس ...».

وإذا الصيحـات تدهمـه من الأمام والخلف... واليمين واليسـار... وإذا صبي يدفعه من جانبه... وإذا آخر يجذب قميصه... وإذا الأجسـاد

تتكاثـف من حولـه عريانة لامعة تقطر منهـا المياه... والشـعور المبتلة الملتصقـة بالجبـاه، والأفواه المفتوحة وكأنها أسـنان كلاب مسـعورة، فلمـاذا لم يمت أبـوه؟ وإذا كان الله يحبه فلماذا يفعـل به ما يفعل، وإذا الدراجـة بعيـدة عنه بين يدي «بعضشـي»... وإذا يد «حامـد» ترتفع في الهواء لتهوي على وجهه في لطمة تطير من عينيه الشرر، فينتفض وكأنه يصحو من كابوس ويصرخ في الجميع:

«شاهدين؟!».

وإذا «حامـد» يدفعـه بكلتا يديه، وإذا مبنى البلديـة يرتفع في الفضاء وتسـقط السـماء على الأرض وترتطم رأسـه بتراب الميدان، وإذا دائرة الرءوس تطل عليه من أعلى ضاحكة... وإذا قلبه يدق بغيظ هائل فيقفز واقفًا ويعود مبنى البلدية إلى مكانه، وترتفع السماء إلى أعلى من جديد، وتغشـى الدمـوع عينيـه، ويرتد رأسـه إلـى الأمـام، وتـدور الأجزخانة وموقـف العربـات والمقهـى والبار والبيـوت من حولـه، وتخترق أنفه رائحـة «حامد»، ويملأ أذنه صوت أنفاسـه، وتقترب الأرض من عينيه، ثم يحجبها عنه رأس «حامد»... وتسـقط السـماء مـرة أخرى، وتصعد الأقدام إلى أعلى... وتتلاطم الأجساد العارية، وترتفع صيحات العيال وصرخـات «بعضشـي»... ويـأكل الغيظ قلبـه فلن يعود إلـى البيت... قسـمًا باللـه لن يعود... وسـيرفع جسـد «حامـد» بين ذراعيه ويمسـك بأذنيه، ويهوي برأسه إلى الأرض، وتدب في قلبه الضربات عندما يرى الـدم النازف من الأنـف الأفطس، ولن يعود إلى البيت، قسـمًا بالله لن يعود... وتصفيق العيال من حوله...

وصرخات «أوظه» كالسيخ المحمي يخترق أذنيه:

«اضربه يا اسمك إيه... اضربه يا حامد!...».

وصوت القميص الممزق كحشرجة بطة ذبحتها أمه منذ فترة فوق السطح، وتعود السماء إلى وضعها، وتقف الأقدام فوق الأرض ووجه «حامد» بجوارها، وصدره يعلو ويهبط، وإذا قدمه تندفع في غل لترتطم بالجسد الممدد... وإذا صوت «حامد» الباكي يصل إليه، وإذا العيال يصفقون، وتجذبه «أوظه» بعيدًا عنهم:

«تعال يا اسمك إيه...».

ويندفع «بعضشي» راكبًا الدراجة وهو يصيح في الميدان بأعلى صوته:

«ويكا... يا ويكا... يا أجدع راجل...».

وتغرق الدماء صدره وقميصه الممزق، وينهض «حامد» باكيًا... ويبتعد صائحًا:

«يلعن أبوك... ودين النبي لانا قايل لامك...».

وستقع الطامة لا محالة، وسيبلغ الخبر أباه وسيغضب عم أبو فرخة... ولن يعود إلى البيت مهما فعلوا، قسمًا بالله لن يعود... ليخلع ملابسه ويقف في الميدان عاريًا وليحدث ما يحدث، ليستحم في النهر مع العيال... ويغطس... وينزلق لحمه العاري على سياج السلم الناعم، نجح أم لم ينجح... فماذا يهم؟ صيحات العيال تحتويه، ويد «أوظه» تجذبه من ذراعه وهي تصيح في وجهه:

«انت بتعيط يا عبيط... ده انت غلبته!».

الفصل السادس والعشرون

«تيجي نروح البر التاني يا «أوظه»؟!».

«لا يا خويا... أنا حانعوم هنا».

«مش حاتتجوزيني؟».

«أنا عاوزه نعوم الأول...».

«أنا ما اعرفشي...».

«تعالى وانا نعلمك...».

«الميه غويطه...».

«ما تخافش... ما انا معاك...».

«ده جوه غريق...».

«تعالى يا عبيط...».

«أنا حاطفش النهارده...».

«وهوه فيه حد يطفش بالليل؟».

«إحنا لسه العصر!».

«دي المغرب حاتدن بعد شويه».

«أنا مش مروح بيتنا...».

«أمك حاتعيط...».

«ما يهمنيش...».

«أبوك حايضربك...».

«مـا حـدش له ضـرب عليَّ، أنـا ناجـح ومعايـا الابتدائيـة... واقدر اتوظف بستة جنيه...».

«تعال نام عندنا...».

«أمك... تقول لماما...».

«تعال نام فوق السطوح...».

«وتنامي معايا؟!».

«لا يا خويا... أنا بنام جنب امي...».

«مش انا جوزك؟!».

«اسم الله... وهوه بصحيح يعني... ده احنا لسه صغيرين!».

«مش انا غلبت الولد «حامد»؟!».

«وإيه يعني؟ ما انا بنغلبه!».

«ده انا اقدر اغلب ابن الملك كمان...».

«طب لو انت ابن ملك تعوم من هنا للبر التاني...».

«واقدر اشرب سجاير في الشارع... واقعد على القهوة...».

«ولما ابوك يشوفك؟!».

«أنا ما يهمنيش.. ولا الملك كمان!».

«حد يقول على ابوه كده؟ تبقى ابن حرام!».

«أنا ما يهمنيش حد... ولا حتى استغفر الله العظيم!».

«مش خايف لتروح النار؟!».

«أنا لسه ما بلغتش...».

«تخش لي في الميه؟».

«بس مافيناش زق...».

«تسابقني عوم؟».

«بعضشي معاه سيجارة...».

«سرقها من أبوه؟».

«وحانروح المحطة... ونشربها في المغربية...».

«دي الدنيا حا تبقى ليل!».

«أنا ما خافش من الغول... ولا من الجنية حتى».

«أمي بتقول الغارات الألماني عاوزه تضرب السكة الحديد... والكوبري...».

«أنا ما خافش من حاجة... ولا من الغارات...».

«تعالى نعوم».

«بقول لك الميه غويطه».

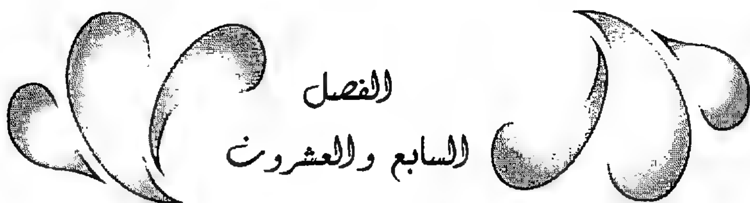
«ولا غويطه ولا حاجه».

«وإذا غرقت؟!».

«ما تخافش... عليَّ انا».

«مبعرفش اعوم!!!».

«ما انا حانعلمك يا عبيط!».



الفصل السابع والعشرون

ملمس بطنه الدافئ والرياح تغسله فتملؤه بألف لذة، يقف عاريًا أمام العيال دون خجل... لماذا لا يعيش الناس عرايا؟ ولماذا أصبح محتمًا عليهم أن يرتدوا الملابس؟ يقترب من «أوظه» باسمًا... فتأخذه من يده إلى السلم... ويزيط العيال ويصرخون منادين عليه، يهبط الدرجات معها في بطء، وإذا كان يستطيع أن يضرب «حامد» وأن يغلبه... فلماذا يخاف العراك؟! تمزق القميص وتلطخ بالدم فلا مفر، ولسوف تطق أم حامد بالصوت... ولسوف يصل الأمر إلى أبيه أينما كان... ذهب «بعضشي» بالدراجة... ولسوف يعود حتمًا. تلقي «أوظه» بنفسها في المياه فيتناثر الرذاذ فوق ساقيه باردًا، ويرتجف سعيدًا... يمد قدمه إلى سطح المياه الباردة ثم يشهق، يجلس على السلم ويدلي قدميه في وجل، تحين منه التفاتة إلى أعلى السلم فيدق قلبه بعنف ثم يهدأ... يطل عليه عم سعداوي من أعلى... ولسوف يحدث ما يحدث... كل شيء في اللوح المحفوظ مكتوب... فليس هو الملوم إذن... يهز الرجل رأسه ويصيح فيه وهو يخلع طربوشه ويمسح رأسه بالمنديل:

«يا ابني اتقي الله وسيبك من اللعب ده!».

«وانت ما لك؟!».

يصيح فيه صبي من قلب المياه:

«أبوك ده يا وله؟!».

يغمره الخجل لثوان... لكنه يقول:

«ده عم سعداوي... أنا باباي موظف!».

يدفع الرجل دراجته ويمضي عنه دون كلمة... فلا يفارقه الإحساس بالخوف، مم يخاف... وقد قرر الهرب وعدم العودة إلى البيت؟ صحبته «أوظه» أم رفضت فلسوف يهرب... سيفعل كل ما يريد ويستحم في النهر كيفما يشاء... وسيضرب كل من يعترض طريقه وكل من له وجه مثل وجه حامد أبو فرخة!

«ما تيجي يا اسمك إيه».

«تعالي علميني هنا الأول».

ولن يموت طالما كان في عمره بقية، يخطو في المياه وصدره يمتلئ بالهواء، تأتيه «أوظه» فيصيح فيها أمام الجميع:

«تيجي نتجوز بعد ما نستحمى؟!».

لماذا تحملق فيه غاضبة... ولم يكن هذا ليغضبها من قبل؟!

«تعالى نروح البر التاني يا أوظه».

«حاتيجي نعلمك.. والا مش جاي؟».

تمد له يدها صارخة فيه فيزمجر صوته بالغضب، يفتح فمه بالسباب... لكن دفعة تأتيه من الخلف فيهوي على وجهه في المياه، تلمس يداه القاع الناعم ويتقلب جسده ويحاول الوقوف فيتنابه الفزع...

«كده الواد يوقعك؟!».

وتنغـرس قدماه فـي طين النهـر.. وينهض واقفًا... وقطـرات المياه تحجب عن عينيـه الرؤية، تقترب منه «أوظه» فيعطيها كفيه كاللامبالي، تغـوص قدماه فـي الطين أكثر... ويبـول أمام الجميع بـلا حياء، تجذبه «أوظه» إلـى الداخل فلا يتزحزح...تترك يديه وتلقي بنفسـها في المياه مبتعـدة عنه وهي تضرب سـطح النهر بذراعيها وسـاقيها، يغرف المياه بكفيـه ويقذفها بها وهو يصيـح في مرح... يأتيه صوت «حامد» من قمة السلم وهو لا يزال يشهق:

«وبتستحمى في الميه كمان؟!».

يلتفت إليه ويصرخ فيه:

«وانت ما لك يا ابن الأقرع؟!».

ثـم يغمـس يده في الميـاه ويغترف حفنة طين يقذفـه بها وهو يصعد الدرج إليه... يتراجع «حامد» مبتعدًا فيدق قلبه بفرحة النصر، لن يتمزق قميصـه ولن يتسـخ بنطلونه... فلا بـد أن يضربـه إذن... يصل إلى قمة السـلم ليرى «حامدًا» في الطرف الآخر للميدان، يصرخ فيه بكل صوته حتى يسمعه كل العيال:

«تخش لي يا خواف... يا ابن العبيط؟!».

وقبـل أن يـرد عليه «حامـد»... ينحني إلـى الأرض ويختطف قطعة حجـر ويعبـر الميدان عاريًا.. يفـر «حامد» من أمامـه فيتوقف ثم يقذف بقطعة الحجر بكل قواه... تهب نسـمة هواء تدثر جسـده العاري وسط الميدان فيجيش صدره بالفرح الطاغي:

«أنا ناجح... أنا... نا ااا جح!».

لماذا قدر للناس أن يرتدوا الملابس... لماذا كانت هناك عورات يجب أن تختفي؟... ألا يعلم كل الناس أن كل الناس لهم عورات؟!

«أنا نا اا جح... يا اولاد الكلب!».

يستدير نحو السلم وملمس الهواء يدفع الصرخات إلى حلقه... يبدو له «بعضشي» وهو آت من طرف الميدان عدوًا.. فيصرخ أكثر:

«مين يخش لي؟!».

الشعر المبتل... والأنف الكبير... والعينان الضيقتان... والشارب الخفيف فوق الشفة العليا... والصوت الغليظ عندما يتشاجر مع «حامد».:. وما زال الصبي واقفًا عند قمة السلم...

«تخش لي يا وله؟!».

«تيجي نضربه يا ويكا؟».

عندما شاكله حامد كان هذا الصبي يشتمه... كان يريد أن ينازله.

«مش انت قلت إنك عاوز تخش لي؟ خش لي... دلوقت...».

لن يهمه أن يمزق لحمه ما دام قميصه قد تمزق...

«أخش له أنا يا ويكا؟!».

«ساكت ليه يا خواف... يا ابن الغسالة؟!».

يدق قلبه... يدق... يدق... يبتعد عنه بلا كلمة، ولو جاء أبوه الآن فلسوف يرد عليه... وإذا شتمه فلسوف يشتمه، وإذا قالوا عنه إنه ابن حرام... فالله أعلم... يخطف الصبي ملابسه ثم يجري مبتعدًا...

«لو كنت راجل من ضهر راجل... ترجع تخش لي».

يختفـي الصبي ويعود «حامد» فاغـرًا فاه عند الطرف الآخر للميدان فيشتمه...

«يا ساقط، يا ابن الأقرع».

«كده برضه تشتمني... مش احنا أصحاب؟!».

يقولها «حامد» وهو يتقدم منه محاذرًا، ويلمح «بعضشـي» و«أوظه» فـي المياه فيهرول نحو السـلم عـدوًا، ولو قتله أبوه قتـلًا فلن يبكي بعد اليوم، ولن تفر من عينيه دمعة... ولسـوف يلقي بنفسـه في المياه ويعود ويعبـر النيل إلى البر الثاني... ويلقي «بعضشـي» بنفسـه فـي النهر وهو يتصايح مع «أوظه»...

«أوظه...».

ينادي عليها فلا ترد عليه، فهي لـم تسمعه أو أنها خاصمته... تغطس في المياه ويختفي جسدها تمامًا فيهبط السلم مسرعًا... يقف عند حافة المياه وهو ينتظرها حتى يظهر رأسها عند قدميه...

«مش عاوز تستحمى معايا يا اسمك إيه؟!».

متى يكبر ويتزوجها...ويصبح له بيت مثل عم ألبير؟!

«بس على شرط.. بلاش نخش جوه يا أوظه».

«إنت بتخاف؟!».

«الميه جوه غويطه.. وانا مش باعرف اعوم لسه».

«تعالى يا ويكا.. وانا اعلمك».

«لمـا اخويـا علمني فـي المالـح رماني في وسـط الميـه لوحدي... ولا خفتش».

«لازم المالح مش غويط».

«هوه إيه يا ابني؟ ده أغوط من بحركم ميت مره!».

«يعني عليكي لو غرقت؟».

«عليَّ... ما تخافش».

«طب احلفي...».

«وتربة ستي...».

ملمس المياه البارد...وجسده الدافئ... والرجفة تشمله...

«إنت بتترعش؟!».

تجذب قدمه فينزلق إلى المياه... ثم يغطس...

«أوظه!...».

«تعالى ورايا».

«نام على وشك... وافرد ذراعيك».

لماذا لم يخلق وقد تعلم العوم ونجح؟!

«ما تخافش».

يطفو جسده... أم أنه واهم؟

«اضرب الميه بدراعك اليمين...».

يتذكر أباه فيصرخ ضاحكًا: «طظ...».

تتوقف «أوظه» وهي تحملق فيه... وبجوارها «بعضشي»...

«طظ في إيه يا اسمك إيه؟!».

«لا...».

«في حامد؟!».

«لا...».

«طظ فيَّ أنا يا ويكا؟!».

«أبدًا... ودين النبي ما فيك يا بعضشي».

«أمال طظ في مين؟!».

تقترب منه... ويلتصق لحمها بلحمه...

«مش عاوز تتعلم؟!».

«تيجي نطفش سوا يا أوظه؟».

«هوه انت سقطت؟».

«أبدًا ودين النبي».

«دول فرقوا شربات يا بنتي.. الشارع كله شرب شربات دلوقت!».

«أمال عاوز تطفش ليه؟!».

يفتح فمه... لكنه لا يستطيع الرد، يجلس في المياه ويغرس أصبعه في الطين... وتمتلئ يده بحفنة منه... يشتد التصاقه بـ«أوظه» ويسري دفؤها إلى لحمه، يرفع رأسه إلى أعلى فيرى «حامد» وقد عاد إلى قمة السلم...

«آجي استحمى معاكم؟».

ويعانقه صوت «أوظه» هامسًا:

«عاوز تطفش ليه؟!».

يبتسم دون كلمة... ولن يخيفه «حامد» بعد اليوم... ولن يخاف من أحد...

«تيجي تعلميني العوم يا أوظه؟؟».

وإذا مات غريقًا... سيموت شهيدًا... وسيدخل الجنة... ينادي عليه «حامد» ولا يرد عليه، لماذا لا يموت الآن فيدخل الجنة بلا حساب؟

«علميني يا أوظه... علميني».

يفرد ذراعيه ويملأ صدره بالهواء صائحًا:

«تيجي نطير يا أوظه؟ تيجي يا بعضشي؟؟».

«عاوز تطفش ليه... يا اسمك إيه؟؟».

«تيجي نروح البر التاني؟!».

«تعالى نعلمك العوم... قبل الشمس ما تروح».

هبطت الشمس حتى لامست سعف النخيل في البر الثاني... وفي رمضان تصبح هذه هي علامة اقتراب مدفع الإفطار، يهز كتفيه ويقذفه «بعضشي» بالمياه ضاحكًا... تهب نسمة هواء فيقفز إلى الداخل قفزة وتصل المياه إلى بطنه... تغوص قدماه في الطين... فيخفق قلبه، وقبل أن يخطو خطوة أخرى تجذبه يدها فتسقط السماء فوق البيوت، ويهوي على وجهه وتندفع المياه إلى عينيه وحلقه، يتنابه الذعر فجأة وتغوص يداه في الطين، تدوي من حوله الضحكات... ويرى العيال من بين قطرات المياه المتساقطة فوق عينيه...

«أوظه!...».

تدفعـه من الخلف يد أخرى... وتأتيه عبر المياه صرخة «بعضشـي» فيرتعب...

«أوظه!».

تملأ المياه فمه فتحتبس فيه الكلمات... ويصل إليه سباب «أوظه»:

«بتزقه ليه يا ابن الكلب؟ إوعى كده يالله».

يهـب واقفًا ويملأ صدره بالهواء غير أن الأرض تنسـحب من تحت قدميه...

«هوه فيه حد يتجوز ولد ما يعرفش يعوم؟!».

وتغوص ساقاه في الطين ويزداد الظلام...

«وانت ما لك يا بايخ؟!».

يعود رأسه إلى الهواء... فيشهق ويصرخ:

«أوظه!».

يتمايـل الكوبري ومـاذا يقول أبوه لو غـرق... ذراعاه تتخشـبان... وقدمـاه في الهواء... ورأسـه فـي الطين ولا بد أنه سـيعود الآن... فهل تبكي أمه؟

«أو ....».

تمـلأ الميـاه فمه مـن جديد... ويشـتد الظـلام... ويدوي فـي أذنيه سكون غريب، ثم تدوي وسط السكون صرخة:

«ويكا... ويكا!».

تمتد ذراعه في الهواء... وتنتشر في صدره ضربات مطرقة من حديد...

«يا اسمك إيه... يا اسمك إيه».

يشـهق شهقة وتنغمس ذراعه في الهواء... وتلحق يده بشعر «أوظه» وتأتيه الصرخة من بعيد:

«غريق... غريق».

«سيب شعري... يا....».

وإذا الميـاه مـن كل ناحيـة، والظـلام يسـود الدنيـا، وتنتفض سـاقه لتلامـس جسـد «أوظه»، فـي ذراعها، وجسـده يدور حول جسـدها... وتظهر السـماء ثـم تختفي... وتبدأ الصرخة ثم تختنـق... ويبلل الهواء قدميـه... وصرخات العيـال المذعورة... وتضرب يداه فـي المياه فإذا «أوظه» بعيدة... وإذا الظلام كثيف... كثيف... وإذا كان هذا هو الموت فأين ملاكه الذي يرتدي السـواد... أجراس الدراجة البيضاء... وصفير القطار الهادر فوق الكوبري وصياح أمه... وزمجرة أبيه... و«بعضشي» وسط الظلام يصرخ في رعب:

«غريق... غريق».

وتصطـدم يـداه بالحجر، وتنغرس قدماه في الطين، ويصعد جسـده كله إلى الهواء فجأة، ويشـهق رافعًا رأسـه إلى «بعضشـي» وسط جميع العيال فوق السلم:

«غريق... غريق».

وإذا الميـاه خاليـة إلا منـه، وكل العيال عرايـا... «وحامد» عند قمة السلم يبكي ويرتعد:

«غريق... غريق».

تسوخ روحه وترتعد ركبتاه وهو يتقدم من السلم... وكلهم يشيرون نحوه...

«غريق... غريق».

«أنا اهه... أنا اهه يا بعضشي... أنا اهه يا عيال... أنا ما غرقتش».

«غريق... غريق... غريق».

ورجال يأتون... وشباب يتجمعون... وامرأة تصرخ... وهو يصرخ:

«أنا اهه... أنا اهه».

ورجل يخلع ملابسه... و«بعضشي» يبكي بجواره...

«بعضشي.. أنا اهه».

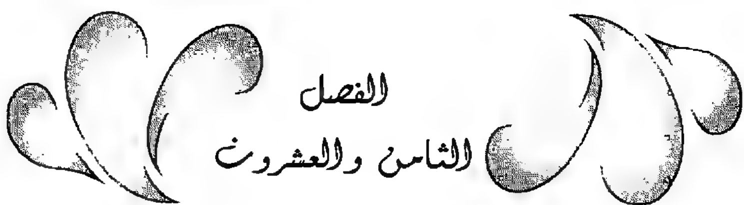
وينشق الهواء بصراخ امرأة انطلقت بالصوت:

«يا بنتي... يا ضنايا... هيه مين يا بني اللي غرقت؟!».

«أوظه... أوظه!...».

صرخة «بعضشي»... وولولة «حامد»... ودموع العيال.. ويزداد اصفرار السماء... وسطح المياه المترقرق.. ويلقي الرجل بنفسه في المياه... وترتعد ركبتاه... وتشق الدموع عينيه كالإبر الحادة:

«بعضشي... أوظه... فين يا بعضشي؟».



الفصل الثامن والعشرون

يـؤذن المغرب من فوق مئذنة الجامـع الكبير... فيجهش كل الناس على الشاطئ بالبكاء... ويبدو له النيل شديد السواد، ويشهق «بعضشي» باكيًا، وقد ارتدى كل العيال ملابسـهم... فهـل يمكن أن تكون «أوظه» قد ماتت حقًا؟!

يخرج الرجل الغاطس من المياه عريانًا يستر عورته:

«ما فيش فايده.. خدها التيار!».

إلى أين يذهب؟!

وكيف تموت «أوظه»؟! كيف تموت؟!

يبدو له الميدان شديد الظلمة... وقد خلا من الناس تمامًا... المقهى... والبـار... والدكاكيـن... ولا أحـد هناك... وعند الشـاطئ يشـتد الزحام، وعمـا قليل سـيأتي أبـوه، وسـتعلم أمـه بالخبر وتصـرخ فزعة، وسـيبكي إخوته... ولسوف يقام المأتم في شارعهم... فلماذا لم يكن هو الميت؟!

يصطـدم بجـدار الجامع فيسـتند إليه وقد تقطعت أنفاسـه ويأتيه من الخلف صوت رجل كان يهرول نحو الشاطئ مفزوعًا:

«قـول لـي يـا شـاطر... ماشـفتـش ابنـي سـعيـد؟ سـعيـد كـان معاكـم؟!».

هـل يفعلها أبوه... ويفزع عليـه إذا ما بلغه الخبر؟ ظهرت النتيجة أم لم تظهر؟! تحدث عم كامل أم لم يتحدث؟ ولماذا يموت الناس؟ وهل كانت «أوظه» ناسًـا حتـى تموت؟! وإذا كنا جميعًا سـنموت يومًا ما... فلمـاذا خلقنـا الله مـن البداية؟ أيكون الأمـر حلمًا سنسـتيقظ منه ذات صبـاح؟! لماذا لا يولـد من جديد؟ ولمـاذا ماتت «أوظـه» وهي تلعب معـه؟ إن اللـه قـادر علـى كل شـيء.. فهـل يخرجهـا مـن المـاء حيـة تسعى إليه؟

ترتجـف ركبتـاه وتبـرد أطرافه ولا تقوى سـاقاه علـى حمله يجلس بجوار جدار الجامع... فمتى يكف عن البكاء؟

«ما لك يا ابني؟!».

لا بد أن «أوظه» كانت تضحك عليه، ولا بد أنها اختفت تحت الماء وسبحت إلى البر الثاني!

«الواد مخضوض!».

ولا بد أنها الآن تنادي عليه... وهو لا يسمع... فلماذا لا يعود؟!

«انت ابن مين يا شاطر؟!».

غطسـت وسـبحت... وابتعدت ولـم يرها أحـد... وإن عـادت... فلسوف يخاصمها!».

«بيتكم فين؟ انت منين يا وله؟!».

ولن يلعب معها بعد اليوم... ولسوف يطلقها ولن يتزوجها...

«انت اسمك إيه يا ابني.. اسمك إيه؟!».

ولسوف يذهب إلى طنط جانيت.. ولسوف يبكي على صدرها...

«هاتوا شويه ميه يا ناس.. وبلاش اللمه دي... الواد مسورق!».

ولن يكلم أباه.. لن يكلمه...

«بسم الله الرحمن الرحيم... الواد متلج... شوية هوا يا خلق!».

وإذا نجح... فلسوف يرسب!

«ده ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات...».

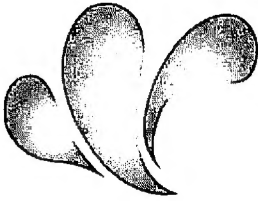
وإذا كبر فلن يتزوج!

«أهه أبوه جه».

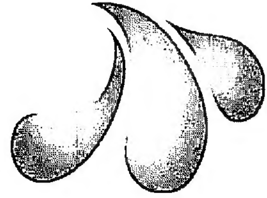
وإذا شاهد محجوب بك... فلسوف يبصق على الأرض... ولن ينتخبه!

«أيوه ده ابني.. عن إذنكم... يا ولد... إنت يا ولد.. يا سيدنا الافندي».

وإذا رأى تشارلي فلن يحدثه.. أبدًا... لن يحدثه...



الفهرس



من مؤلفات

الأستاذ

صالح مرسي

بنهضة مصر

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.



دار نهضة مصر
للنشر

